هربرت جورج ويلز

حرب العوالم

حرب العوالم

حرب العوالم

تأليف
هربرت جورج ويلز

ترجمة
شيماء عبد الحكيم طه

هنداوي

The War of the Worlds

Herbert George Wells

حرب العوالم

هربرت جورج ويلز

الطبعة الأولى ٢٠١٣م
رقم إيداع ٢٠١٢/١٥٣٠١
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

ويلز، هربرت جورج.
حرب العوالم/تأليف هربرت جورج ويلز.
تدمك: ٤ ١٥ ٦٤١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١-الكون

٥٢٣٫١

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2013 Hindawi
Foundation for Education and Culture.
The War of the Worlds
All rights reserved.

المحتويات

الكتاب الأول: قدوم المرِّيخيين ٩

١- عشيَّة الحرب ١١

٢- النجم الساقط ١٧

٣- فوق مرعى «هورسيل» ٢١

٤- انفتاح الأسطوانة ٢٥

٥- الشعاع الحراري ٢٩

٦- الشعاع الحراري في طريق «تشوبهام رود» ٣٣

٧- عودتي إلى المنزل ٣٧

٨- مساء الجمعة ٤١

٩- بداية المعركة ٤٥

١٠- وسط العاصفة ٥١

١١- في النافذة ٥٧

١٢- ما رأيت من دمار في «وايبريدج» و«شيبرتون» ٦٣

١٣- لقائي بالكاهن ٧٣

١٤- في لندن ٧٩

١٥- ما حدث في «سَري» ٨٩

١٦- النزوح من لندن ٩٧

١٧- «فتاة الرعد» ١٠٩

الكتاب الثاني: الأرض في قبضة المريخيين ١١٧
١- تحت الأقدام ١١٩
٢- ما رأينا من خلال المنزل المنهار ١٢٧
٣- أيام الحصار ١٣٧
٤- موت الكاهن ١٤٣
٥- السكون ١٤٧
٦- حصيلة خمسة عشر يومًا ١٥١
٧- الرجُل الذي قابلته على تل «بيوتني» ١٥٥
٨- لندن بلا حياة ١٦٩
٩- أطلال ١٧٧
١٠- خاتمة ١٨٣

تُرى من يسكن هذه العوالِم إذا كانت صالحة للسُّكنى؟
أنحن أسياد العالم أَم هُم؟
وكيف سُخِّرت الأشياء كلُّها من أجل الإنسان؟

كبلر (من كتاب «تشريح الكآبة»)

الكتاب الأول

قدوم المرِّيخيين

الفصل الأول

عشيَّة الحرب

لم يكن أحد ليصدِّق في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أن هذا العالَم يُراقِبه بانتباه وعن كَثَب عقولٌ أعظم قدرة من عقول البشر، وإن كانت فانية مثلها، وأنه في الوقت الذي انشغل فيه البشر بشئونهم المختلفة، فإنهم كانوا يخضعون للتمحيص والدراسة ربما بالدرجة نفسها من الدقة التي يفحص بها حامل المجهر الكائنات الزائلة التي تحتشد وتتكاثر داخل قطرة مياه. ضرب البشر في الأرض طولًا وعرضًا منشغلين بشئونهم التافهة غير مبالين بشيء، مطمئني البال بفضل قناعتهم بأنهم يسيطرون على المادة. ربما تتحرك الكائنات الدقيقة تحت المجهر على المنوال نفسه. لم يخطر على بال أحد أن تكون عوالم الفضاء الأقدم من عالمنا مصدر تهديد للبشر، أما من فكَّر في فكرة الحياة هذه فسريعًا ما طرحها جانبًا إما لكونها مستحيلة أو غير واردة. من الطريف أن نسترجع بعض العادات الفكرية التي سادت تلك الأيام الخوالي. من المرجح أن سكان كوكب الأرض ظنُّوا أنه ربما يكون هناك بشر غيرهم على سطح المريخ، ربما أدنى منهم منزلة، وعلى استعداد للترحيب ببعثة تبشيرية. غير أن عقولًا في الفضاء هي لعقولنا كعقولنا نسبة لعقول الحيوانات الفانية — عقول كبيرة متحجرة قاسية — نظرت إلى كوكب الأرض بعيون ملؤها الحسد، وفي تأنٍّ وثقة أخذوا يحيكون خططهم ضدَّنا، ثم تكشَّف الوهم الكبير في مطلع القرن العشرين.

من نافلة القول أن أذكِّر القارئ بأن كوكب المريخ يدور حول الشمس بمتوسط مسافة تساوي ١٤٠٠٠٠٠٠٠ ميل، وأن الضوء والحرارة اللذيْن يستقبلهما من الشمس يساويان بالكاد نصف ما يستقبله كوكب الأرض منهما. إذا كانت الفرضية السديمية صحيحة، فلا بد أن المريخ أقدم من كوكبنا، وأنه قبل أن تتوقف هذه الأرض عن الانصهار بزمن طويل، كانت الحياة قد بدأت على سطح المريخ. لا شك أن كون حجم

المريخ يساوي بالكاد سُبع حجم الأرض قد ساهم في الإسراع من انخفاض درجة حرارته إلى أن وصل إلى درجة حرارة يمكن بدء الحياة عندها. يوجد بالمريخ هواء وماء وكل ما يلزم لوجود حياة على سطحه.

غير أن البشر قد بلغوا الغاية في الغرور، وغرورهم أعماهم إلى حدٍّ أنه ما من كاتب — حتى نهاية القرن التاسع عشر — تطرق لفكرة احتمال وجود حياة ذكية في صورة أكثر تطورًا منها على كوكب الأرض، أو حتى في أي صورة كانت. ولم يدرك أحد على العموم أن قِدَم المريخ عن الأرض — بمساحته التي تكاد تساوي ربع مساحة سطح الأرض وببعده عن الشمس أكثر من الأرض — يقتضي بالضرورة ألا يكون هو الأقرب لبداية الزمان فحسب، وإنما الأقرب للنهاية أيضًا.

وصل انخفاض حرارة الكون — الذي لا بد أن يصيب كوكبنا ذات يوم — مرحلة متقدمة للغاية مع كوكب المريخ. ومع أن طبيعته الفيزيائية لا تزال لغزًا محيرًا إلى حدٍّ بعيد، فنحن نعرف الآن أن درجة الحرارة في منتصف النهار حتى في منطقته الاستوائية تكاد تصل لدرجة حرارة أشدِّ فصول الشتاء لدينا برودة. هواء المريخ أخفُّ كثيرًا من هوائنا؛ ومحيطاته نضبت حتى أصبحت تغطي ثلث سطحه فحسب، ومع التعاقب البطيء لفصول السنة، تتجمع قمم ثلجية ضخمة وتنصهر على قطبيه لتُغرق مناطقه المعتدلة بصفة دورية. أما المرحلة الأخيرة من استنزاف موارد الكوكب — وهي المرحلة التي لا تزال بعيدة تمامًا عن كوكبنا — فقد باتت مشكلة راهنة يعانيها سكان المريخ. وهكذا أسفر ضغط الحاجة الحالي عن اتساع مداركهم وزيادة قدراتهم وتحجُّر قلوبهم. وعندما نظروا في الفضاء بمعداتهم وبعقولهم التي لم نحلم يومًا بأن يكون لنا مثلها، رأوا على بعد ٣٥٠٠٠٠٠٠ ميل فقط باتجاه الشمس بصيصًا من الأمل؛ رأوا كوكبنا الأكثر دفئًا بنباتاته الخضراء، ومياهه الرمادية، وغلافه الجوي الغائم الذي يحمل أمارات الخصوبة، وعبر خيوط سحبه الجارية رأوا امتدادات شاسعة لبلاد مأهولة بالسكان، وبحارًا محددة المساحة مكتظة بالسفن.

مؤكدٌ أنهم نظروا إلينا نحن البشر — الكائنات التي تقطن كوكب الأرض — على أننا غرباء دونيُّون مثلما ننظر نحن إلى القِرَدة والليمور. يقرُّ الجانب العقلاني لدى البشر بأن الحياة صراع أبدي من أجل البقاء، ويبدو أن عقول قاطني المريخ تفكر على النحو نفسه أيضًا. لقد بلغ عالَمهم حدًّا كبيرًا من البرودة، بينما عالَمنا لا يزال مفعمًا بالحياة، لكنه مكتظ بمن يعتبرونهم حيوانات أدنى مرتبة. والواقع أن شن حرب باتجاه الشمس هو مهربهم الوحيد من الدمار الذي يتسلل إليهم جيلًا بعد جيل.

وقبل أن نقسو في الحكم عليهم، علينا أن نتذكر الدمار الوحشي الكامل الذي ألحقته أجناسنا ليس فقط بالحيوانات — مثل ثيران البيسون وطيور الدودو المندثرة — بل بالأجناس الأدنى منا مرتبة. أُزيل التسمانيون — بالرغم من تشابههم مع البشر — من الوجود تمامًا في حرب إبادة شنَّها المهاجرون الأوروبيون على مدار خمسين عامًا. هل نحن رُسُل رحمةٍ إذن لنبدي تذمرًا إذا ما شنَّ المريخيون علينا حربًا للغاية نفسها؟

يبدو أن سكان المريخ قد أعدُّوا حسابات غزوهم بدقة مذهلة — فمن الواضح أنهم متفوقون علينا كثيرًا في علم الرياضيات — وأنهم أعدوا العدة بإجماع تام. لو أسعَفَنا ما لدينا من معدات، لربما رصدنا منذ أن كنا في القرن التاسع عشر النائبة التي توشك أن تحل بنا. شاهد بشر أمثال الفلكي سكياباريلي الكوكب الأحمر — إنه لأمر غريب بالمناسبة أن يظل كوكب المريخ على مدار قرون عديدة رمزًا للحرب — لكنهم أخفقوا في تفسير الظهور والاختفاء المتعاقب للعلامات التي خططها المريخيون بإتقان بالغ. من المؤكد أن المريخيين كانوا يعدون العدة طوال ذلك الوقت.

أثناء اقتراب المريخ من الأرض عام ١٨٩٤ شوهد ضوء هائل فوق الجزء المضاء من قرص الكوكب؛ أولًا في «مرصد ليك»، ثم على يد بيرُّوتين من «مرصد نيس»، ثم من تلاهما من الراصدين الآخرين. علِم القراء البريطانيون بهذا الأمر للمرة الأولى من مجلة «نيتشر» في عددها الصادر في الثاني من شهر أغسطس. أجدُني ميَّالًا إلى الاعتقاد في أن هذا الوهج كان إطلاق المدفع الضخم — داخل الحفرة الفسيحة الغائرة في كوكبهم — الذي أطلقت منه طلقاتهم صوبنا. شوهدت علامات غريبة — مستعصية على التفسير — قرب موقع ذلك الانفجار في الاقترابين التاليين للمريخ من الأرض.

هبَّت العاصفة علينا منذ ست سنوات الآن. فمع دُنُو المريخ من الأرض، بعث لافيل من مرصد «جافا» برقيات تحدث فيها عن الأخبار المذهلة الخاصة بتدفق كميات هائلة من غاز متوهج على سطح الكوكب. حدث ذلك قرب منتصف الليل في اليوم الثاني عشر من الشهر، ورصد المنظار الطيفي الذي هرع إليه على الفور كتلة من غاز متوهج — هيدروجين في الأغلب — تتحرك بسرعة هائلة نحو كوكب الأرض. اختفت تلك الكتلة النارية نحو الساعة الثانية عشرة والربع. وقد شبَّهها بهبَّة لهب مهولة انبجست فجأة وبقوة من الكوكب؛ «مثلما تنبعث الغازات المتوهجة من المدافع.»

وقد أثبتت هذه العبارة دقة فريدة من نوعها فيما بعد. غير أن صُحف اليوم التالي خلت من الحديث عن هذا الأمر باستثناء تعليق موجز في صحيفة «ديلي تليجراف»،

ومضى العالم في طريقه جاهلًا بأحد أسوأ المخاطر التي تهدد الجنس البشري. ربما لم أكن لأسمع عن الانفجار مطلقًا لولا أني التقيت أوجيلفي — عالم الفلك المعروف — في «أوترشو». كان يشعر بإثارة بالغة إزاء هذه الأنباء، ووسط فرط إثارته دعاني إلى جولة معه تلك الليلة لإلقاء نظرة عن كثب على الكوكب الأحمر.

ورغم كل ما حدث منذ ذلك الحين، فلا أزال أذكر تلك الليلة بوضوح شديد؛ المرصد الساكن المعتم، والمصباح الذي يلقي ضوءًا خافتًا على الأرض في الزاوية، والدقات المنتظمة لآلة ضبط التلسكوب، والشق الصغير في السقف … شق عميق مستطيل يتخلله الغبار النجمي. تحرك أوجيلفي في المكان دون أن أراه لكني سمعت صوته. عندما نظرت من التلسكوب، رأيت دائرة من الزرقة القاتمة والكوكب المستدير الصغير يسبح في الفضاء. بدا جسمًا ضئيلًا، بالغ السطوع والصغر والسكون، تظهر عليه خطوط عرضية باهتة، ومستويًا قليلًا في المنتصف. لكن بقدر ما كان صغيرًا، بقدر ما كان متوهجًا. بدا وكأنه كان يرتجف، لكن الحقيقة أن التلسكوب هو الذي كان يهتز بفعل حركة آلة الضبط التي كانت تبقي الكوكب في مجال الرؤية.

وبينما كنت أشاهد بدا أن الكوكب يكبر ويصغر، وأنه يتمدد وينحسر، لكن غاية ما هنالك أن عيني كانتا مجهدتين. كان الكوكب على بعد أربعين مليون ميل منا؛ أكثر من أربعين مليون ميل من الفراغ. قليلون من البشر يدركون ضخامة الفراغ الذي يسبح فيه غبار العالم المادي.

أذكر أني رأيت بالقرب منه ثلاث نقاط باهتة من الضوء؛ ثلاث نجمات ضئيلة على مسافة شاسعة، وفي كل مكان حوله ينتشر الظلام الذي لا يُسبر غوره والذي يميز الفضاء الخالي. تعلَمُ كيف يبدو هذا الظلام في ليلة صقِعَة تضيئها النجوم؟ إنه يبدو أكثر عمقًا عند النظر إليه باستخدام التلسكوب. ثم ظهر «الشيء» الذي كانوا يرسلونه إلينا؛ الشيء الذي من المفترض أن يجلب لسكان الأرض الكثير من الصراع والنكبات والموت. لم أره بوضوح بسبب بعده وصغره الهائلين، لكنه كان يطير بسرعة وثبات نحوي عبر تلك المسافة الشاسعة ليقترب بمعدل عدة آلاف من الأميال كل دقيقة. لم يسبق لي قط أن تخيلته على هذه الصورة وقتها، بل لم يكن لأحد على وجه الأرض أن يتخيل تلك القذيفة التي لا تخطئ وجهتها.

في تلك الليلة أيضًا انبعث الغاز مرة أخرى من الكوكب البعيد. رأيته بنفسي؛ وهجًا ضاربًا إلى الحمرة على الأطراف، وذلك مع إعلان الميقاتي أنها منتصف الليل، وهنا

أخبرت أوجيلفي، وأخذ مكاني. كانت ليلة حارَّة وكنت أشعر بالظمأ، فتمشيت قليلًا، متحسسًا طريقي في الظلام نحو الطاولة الصغيرة التي يستقر فوقها المثعب، في حين صاح أوجيلفي عند رؤية خيط الغاز القادم نحونا.

انطلقت قذيفة غير مرئية أخرى تلك الليلة في طريقها من المريخ نحو الأرض قبل ثانية أو نحو ذلك من انقضاء أربع وعشرين ساعة على انطلاق القذيفة الأولى. أذكر كيف أني جلست أمام المائدة في الظلام تسبح أمام عينيَّ بقع خضراء وقرمزية اللون. تمنيت لو أن معي ثقابًا كي أدخِّن بينما يساورني بعض الشك في ما يعنيه الوميض الدقيق الذي رأيته وفي كل ما قد يجلبه لي في الوقت الراهن. استمر أوجيلفي في المراقبة حتى الساعة الواحدة، ثم توقَّف، وأشعلنا المصباح، واتجهنا نحو منزله. في الأسفل تحت جنح الظلام كان المئات من سكان «أوترشو» و«تشيرتسي» يغطُّون في نومهم مطمئنين.

كان لدى أوجيلفي تخمينات كثيرة عن حالة المريخ تلك الليلة، وتهكَّم من الفكرة الشائعة عن كونه مأهولًا بسكان يراقبوننا. كان يرى أن وابلًا من الأحجار النيزكية يتساقط على الكوكب، أو أن ثمة انفجارًا بركانيًّا مهولًا. أخبرني كيف أنه من غير الوارد أن يكون التطور العضوي قد اتخذ المنحى نفسه على سطح كوكبين متجاورين.

قال: «إن فرص وجود أي كائنات تشبه البشر على المريخ تساوي واحدًا إلى مليون.»

رأى مئات المراقبين الوهج تلك الليلة والليلة التي تلتها نحو منتصف الليل، ثم في الليلة التالية أيضًا، وهكذا ظل الوهج يُرى كل ليلة على مدار عشر ليال. لم يحاول أحد على كوكب الأرض أن يعرف سبب توقف القذائف بعد الليلة العاشرة. ربما تكون الغازات المصاحبة لعملية الإطلاق هي ما أزعجت المريخيين. انتشرت سحب كثيفة من الدخان أو الغبار — أمكن رؤيتها عبر تلسكوب قوي على الأرض كبقع رمادية صغيرة متأرجحة — وسط صفاء الغلاف الجوي للمريخ وحجبت أشهر ملامحه.

حتى الصحف اليومية انتبهت إلى الخطر أخيرًا، وشاعت المقالات في كل مكان عن البراكين التي تثور على كوكب المريخ. أذكر أن مجلة «بانش» التي تجمع على صفحاتها بين الجد والهزل استغلت هذا الحدث خير استغلال في رسومها الكرتونية السياسية. تحركت تلك القذائف — التي لم يتخيل أحد وجودها — التي أطلقها المريخيون نحو الأرض، وكانت تندفع الآن بسرعة عدة أميال في الثانية عبر الفضاء الخالي لتقترب ساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم. أكاد لا أصدق الآن كيف استمر البشر — رغم ذلك الهلاك السريع الذي كان يحيق بهم — في متابعة شئونهم التافهة. أذكر كيف كان ماركام

مبتهجًا لحصوله على صورة فوتوغرافية جديدة للكوكب من أجل المجلة المصورة التي كان يرأس تحريرها في تلك الفترة. عادة ما لا ينتبه البشر في وقتنا هذا إلى وفرة صحف القرن التاسع عشر وجرأتها. ومن جانبي، كنت مشغولًا بتعلم ركوب الدراجة، وبمجموعة من الأبحاث التي تناقش التطورات المحتملة للأفكار الأخلاقية مع تقدم الحضارة.

ذات ليلة (ربما كانت القذيفة الأولى وقتها على بعد ١٠٠٠٠٠٠٠ ميل)، خرجت في نزهة على الأقدام مع زوجتي. كانت ليلة يزينها ضوء النجوم، وحدَّثتُها عن علامات الأبراج الفلكية، وأشرت نحو المريخ، الذي بدا نقطة ضوء لامعة تزحف نحو السَّمْت، بينما يتجه نحوه عدد كبير من التلسكوبات. كانت ليلة حارَّة. وفي طريق عودتنا إلى المنزل، مرت بنا مجموعة متنزهين من «تشيرتسي» أو «آيلزويرث» يغنُّون ويعزفون الموسيقى. كانت هناك أضواء في النوافذ العلوية للمنازل مع استعداد سكانها للخلود إلى النوم. ومن محطة السكة الحديدية من بعيد، انطلقت أصوات القطارات المتحولة بين الخطوط رنَّانة مدوِّية، لتخفت مع ابتعاد المسافة حتى تكاد تصير دقات متناغمة. أشارت زوجتي إلى بريق أضواء الإشارات الحمراء والخضراء والصفراء المعلَّقة قبالة السماء. بدا كل شيء غاية في الأمان والهدوء.

الفصل الثاني

النجم الساقط

ثم جاءت الليلة التي شهدت سقوط النجم الأول. شوهد النجم باكرًا في الصباح يندفع فوق «وينشستر» ناحية الشرق في هيئة خط من اللهب عاليًا في الجو. لا بد أن المئات شاهدوه، وظنوه نجمًا ساقطًا عاديًّا. وصفه ألبين بأنه خلَّف وراءه أثرًا ضاربًا إلى الخضرة ظل متوهجًا بضع ثوان. أما دينينج — علَّامتنا فيما يتعلق بالأحجار النيزكية — فقد ذكر أن ارتفاعه عندما ظهر للمرة الأولى بلغ نحو تسعين أو مائة ميل. بدا له أنه سقط على الأرض على بعد مائة ميل جهة الشرق.

في هذه الساعة كنت في المنزل أكتُب داخل غرفة مكتبي، ومع أن نوافذ منزلي الفرنسية تطل على «أوترشو»، ومع أن ستار النافذة كان مرفوعًا (إذ كان يروق لي في تلك الأيام النظر إلى السماء ليلًا)، فإني لم أر شيئًا من ذلك. لكن لا بد أن هذا الجسم الأكثر غرابة من كل الأشياء التي سقطت على الأرض من الفضاء الخارجي سقط أثناء جلوسي هناك، وأنني كنت سأراه لو أني رفعت بصري أثناء مروره من أمامي. ذكر بعض من شاهدوه أنه كان يُصدر صوت هسيس وهو يتحرك، غير أني لم أسمع شيئًا. من المؤكد أن الكثيرين في «بيركشاير» و«سَري» و«ميدلسيكس» شاهدوا سقوطه، وفي الأغلب ظنُّوه حجرًا نيزكيًّا آخر. من الواضح أن أحدًا لم يكترث للبحث عن الجسم الساقط تلك الليلة.

لكن في الصباح الباكر جدًّا استيقظ المسكين أوجيلفي — الذي رأى النجم الساقط واقتنع بوجود حجر نيزكي في مكان ما على أرض المرعى بين «هورسيل» و«أوترشو» و«ووكينج» — عازمًا العثور على هذا الحجر. وبالفعل عثر عليه بعد طلوع الفجر بقليل في مكان لا يبعد كثيرًا عن حُفَر الرمال. تسببت القذيفة في إحداث هُوَّة مهولة، وتناثرت الرمال والحصى بعنف في جميع الاتجاهات فوق المرج لتكوِّن روابي يمكن رؤيتها على

بعد ميل ونصف. اندلعت النيران في المرج ناحية الشرق، وتصاعد خيط رفيع من الدخان الأزرق وسط ضوء الفجر الخافت.

كاد الجسم نفسه يكون مدفونًا بالكامل في الرمال وسط الشظايا المتناثرة من شجرة تنُّوب تحطمت أشلاء عند سقوطه. كان الجزء المكشوف أشبه بأسطوانة ضخمة مغطاة بطبقة قاسية ومحيطها الخارجي أقل قساوة بفعل قشرة سميكة ذات لون بني رمادي. بلغ قطر الأسطوانة نحو ثمانية وعشرين مترًا. اقترب أوجيلفي من الجسم، وذهل من حجمه، وذهل أكثر من شكله؛ لأن أغلب الأحجار النيزكية تكاد تكون مستديرة تمامًا. لكن كان الجسم شديد السخونة من جراء رحلته في الهواء، فلم يكن بالإمكان الاقتراب منه كثيرًا. سمع أوجيلفي صوت حركة داخل الأسطوانة فأرجعها إلى الانخفاض غير المنتظم في درجة حرارة سطحها، إذ لم يخطر بباله آنذاك أنها قد تكون جوفاء.

ظل واقفًا عند حافة الحفرة التي أحدثها ذلك الشيء يحدِّق في هيئته الغريبة، ويملؤه الذهول في الأساس من شكله ولونه الغريبين، دون أن يستدل من تصميمه على أي شيء. كان الصباح الباكر ساكنًا على نحو يثير العجب، والشمس — التي أضاءت للتو أشجار الصنوبر ناحية «وايبريدج» — دافئة. لا يذكر أنه سمع صوت أي من الطيور ذلك الصباح، وبالطبع لم تكن للنسيم أي حركة، والأصوات الوحيدة المسموعة كانت الحركات الخافتة المنبعثة من داخل الأسطوانة الملتهبة. كان أوجيلفي وحيدًا فوق المرج.

فجأة لاحظ أن بعض الخبَث الرمادي — طبقة الرماد التي تغطي الحجر النيزكي — يتساقط عن الحافة الدائرية عند النهاية، ما جعله يتحرك من مكانه فجأة. كان الخبث ينهار في هيئة رقائق ويتساقط فوق الرمال. وفجأة انفصلت قطعة كبيرة، وسقطت محدثة ضوضاء عالية جعلت الذعر يدب في قلبه.

وقف هنيهة لا يعي تفسيرًا لما حدث، ومع أن الحرارة كانت مرتفعة للغاية، فقد هبط الحفرة بالقرب من الجسم كي يراه بوضوح أكبر. وحتى في ذلك الحين كان يظن أن فقدان الجسم للحرارة هو السبب في ذلك، لكن تساقط الرماد عند طرف الأسطوانة فقط جعله يشك في هذه الفكرة.

وبعدها أدرك أن الغطاء المستدير للأسطوانة يدور فوق جسمها ببطء شديد. كانت حركة بطيئة للغاية حتى إنه لم ينتبه إليها إلا عندما لاحظ أن علامة سوداء — كانت بجانبه منذ خمس دقائق — أصبحت الآن على الجانب الآخر من محيط الدائرة. وحتى في ذلك الحين لم يدرك ما يعنيه ذلك إلى أن سمع صوت صرير مكتومًا ورأى العلامة

السوداء تندفع للأمام مقدار سنتيمترين أو نحو ذلك. وهنا تفهم الأمر على الفور. كانت الأسطوانة مصنَّعة، مجوفة، وذات نهاية قابلة للفك! شيء ما داخل الأسطوانة كان يفكُّ غطاءها!

قال أوجيلفي: «يا إلهي! هناك رجل بالداخل، بل رجال بالداخل! شُويَت أجسامهم حتى الموت! وهم يحاولون الهرب!»

وعلى الفور وبقفزة ذهنية سريعة، ربط أوجيلفي بين «الشيء» وبين الوميض الذي شوهد على المريخ.

كانت فكرة وجود كائن محتجَز مؤلمة للغاية في نظره حتى إنه نسي أمر الحرارة وتقدم نحو الأسطوانة ليساعد في فتحها. لكن لحسن الحظ أن الإشعاع الخافت أوقفه قبل أن يحرق يديه فوق المعدن الذي لا يزال متوهجًا. هنا وقف مترددًا هنيهة، ثم استدار، وتسلق الحفرة سريعًا، وانطلق يعدو كالمجنون نحو «ووكينج». لا بد أن الساعة في ذلك الوقت كان تقترب من السادسة. قابل أوجيلفي سائق عربة، وحاول إخباره بما حدث، لكن القصة التي رواها والهيئة التي بدا عليها — بعد سقوط قبعته داخل الحفرة — كانتا غريبتين للغاية حتى إن الرجل اكتفى بمواصلة سيره. ولم يفلح الأمر أيضًا مع عامل الحانة الذي كان يفتح لتوه أبواب النُّزُل بجوار جسر «هورسيل». ظنه الرجل مخبولًا طليقًا، وحاول حبسه داخل الحانة، لكن محاولته باءت بالفشل. ذلك الحدث جعله يستعيد القليل من اتزانه، وعندما رأى هندرسون — الصحفي اللندني — في حديقته، نادى عليه من فوق السياج وأوضح له الأمر.

رفع صوته: «أرأيت النجم الساقط الليلة الماضية يا هندرسون؟»

قال هندرسون: «أجل.»

– «إنه هناك الآن فوق مرعى «هورسيل».»

قال هندرسون: «يا إلهي! حجر نيزكي ساقط! هذا رائع.»

– «لكنه ليس مجرد حجر نيزكي. إنها أسطوانة؛ أسطوانة مصنَّعة يا رجل! وثمة شيء ما بداخلها.»

قال: «ماذا تقول؟» كان الرجل مصابًا بالصمم في إحدى أذنيه.

أخبره أوجيلفي بكل ما رآه. ظل هندرسون دقيقة أو نحو ذلك يستوعب ما قيل له، ثم ألقى مجرفته، وانتزع سترته، وخرج إلى الطريق. أسرع الرجلان بالعودة إلى المرعى، ووجدا الأسطوانة لا تزال في مكانها. لكن الأصوات بداخلها كانت قد توقفت،

وظهرت حلقة رفيعة من معدن لامع بين غطاء الأسطوانة وهيكلها. كان الهواء، الداخل أو الخارج، عند الحافة يحدث صوت صفير خفيفًا.

أرهف كلاهما السمع، وقرعا المعدن القشري المحترق بعصا، ولمّا لم يتلقيا ردًّا، خلُصا إلى أن الرجل أو الرجال الموجودين في الداخل إما موتى أو فاقدو الوعي.

لا شك أنهما كانا عاجزين تمامًا عن فعل أي شيء. رفعا صوتيهما بعبارات المواساة وقطع الوعود، وعادا أدراجهما إلى المدينة مرة أخرى طلبًا للمساعدة. يمكنك أن تتخيلهما بما يغطيهما من رمال وما يعتريهما من ذهول وارتباك، وهما يقطعان الشارع الصغير عدوًا في ضوء الشمس الساطع في نفس الوقت الذي يفتح فيه أصحاب المتاجر الأبواب ويفتح فيه أهل المدينة نوافذ غرف النوم. انطلق هندرسون نحو محطة السكة الحديدية على الفور كي يبعث برقية بالأنباء إلى لندن. كانت المقالات التي تُنشر في الصحف قد هيأت عقول الناس لتلقي الفكرة.

بحلول الساعة الثامنة توجه عدد من الفتيان والرجال المتعطلين عن العمل إلى المرعى ليشاهدوا «الموتى القادمين من المريخ». ذلك هو الطابع الذي حملته الرواية. سمعت الأمر أول ما سمعت من بائع الصحف نحو الساعة التاسعة إلا الربع عندما خرجت لشراء صحيفة «ديلي كرونيكل». فزعت بطبيعة الحال، وعلى الفور توجهت عبر جسر «أوترشو» نحو حُفَر الرمال.

الفصل الثالث

فوق مرعى «هورسيل»

وجدت حشدًا صغيرًا من عشرين شخصًا تقريبًا يحيطون بالهوة الفسيحة القابعة بداخلها الأسطوانة. سبق أن وصفتُ هيئة ذلك الجسم الضخم المغروس في الأرض. بدا العشب والحصى حولها محروقًا كأن انفجارًا مفاجئًا قد وقع. لا شك أن اصطدام الجسم بالأرض قد أسفر عن انبعاث وهج ناري. لم أر هندرسون وأوجيلفي هناك. يخيَّل إليّ أنهما ظنَّا ألا شيء يمكن فعله في الوقت الراهن، فذهبا لتناول الإفطار في منزل هندرسون.

كان أربعة أو خمسة صبية يجلسون على حافة الحفرة وأرجلهم تتدلى داخلها ويلهون، إلى أن جعلتهم يتوقفون؛ بأن ألقيت بعض الأحجار ناحية الجسم العملاق. وبعد أن تحدثت معهم عن الأمر، انضموا لمجموعة المتفرجين.

كان من بين الحشد راكبا دراجتين هوائيتين، وبستاني أجير أستعين به في بعض الأحيان، وفتاة تحمل طفلًا رضيعًا، والجزَّار جريج وابنه الصغير، واثنان أو ثلاثة من المتسكعين، ومساعدو لاعبي الجولف الذين اعتادوا التسكع بالقرب من السكة الحديدية. كان الحديث قليلًا. عدد قليل من العامة في إنجلترا كانوا على دراية بأقل القليل عن علم الفلك في تلك الأيام. كان أغلبهم يحدقون في صمت في طرف الأسطوانة الضخم الذي يشبه الطاولة والذي كان ساكنًا كما تركه أوجيلفي وهندرسون. أظن أن التوقع الشائع برؤية كومة من الجثث المحروقة قد خاب بسبب ذلك الجسم الذي لا يحرك ساكنًا. ذهب بعض الناس وأتى آخرون وأنا هناك. نزلت إلى الحفرة، وخيِّل إليَّ أني سمعت حركة خافتة أسفل قدميّ. بالطبع كان الغطاء قد توقف عن الدوران.

لم تتبد لي غرابة هذا الشيء إلا عندما اقتربت منه. للوهلة الأولى لم يكن أكثر إثارة من عربة مقلوبة أو شجرة اقتلعتها الرياح على الطريق. بل لم يصل الأمر إلى هذا الحد حقيقة. بدا كعوامة غاز صدِئة. تطلب الأمر قدرًا من المعرفة العلمية لإدراك أن القشرة

الرمادية التي تغطي «الشيء» ليست أكسيدًا عاديًّا، وأن المعدن الأبيض المائل للصفرة الذي يومض داخل الفتحة بين الغطاء والأسطوانة إنما له درجة لون غير مألوفة. لم يكن «القادمون من الفضاء» يعنون شيئًا في نظر أغلب المتفرجين.

في ذلك الوقت بات واضحًا تمامًا في ذهني أن «الشيء» قادم من كوكب المريخ، لكني استبعدت أن تكون به أي كائنات حية. ظننت أن انفكاك الغطاء ربما يكون أمرًا تلقائيًّا. فعلى عكس أوجيلفي، ما زلت أعتقد في وجود بشر على المريخ. بدأ عقلي يفكر على نحو تخيلي في احتمالات احتواء هذا الشيء على مخطوطة، وفي مشكلات الترجمة التي ربما تترتب على ذلك، وهل سنعثر بالداخل على عملات معدنية ومجسمات ... إلخ. لكن ضخامته لم تكن لتؤكد هذه الفكرة. شعرت أني لا أطيق صبرًا حتى أراه مفتوحًا. نحو الحادية عشرة — عندما بدا لي أنه ما من جديد — عدت أدراجي إلى منزلي في «مايبري» تستبد بي تلك الفكرة، لكني واجهت صعوبة في بدء العمل على أبحاثي النظرية.

بعد الظهيرة تغيرت هيئة المرعى كثيرًا. أفزعت الطبعات الأولى من صحف المساء سكان لندن بعناوين سُطرت بالخط العريض:

رسالة من المريخ

قصة عجيبة من ووكينج

إضافة إلى ذلك، فإن برقية أوجيلفي إلى جريدة «أسترونوميكال إكستشينج» قد أثارت انتباه جميع المراصد داخل الممالك الثلاث.

كانت هناك ست رحلات أو أكثر من محطة «ووكينج» تقف في الطريق بجوار حفر الرمال، وعربة يد من «تشوبهام»، وعربة أخرى فخمة نوعًا ما، فضلًا عن مجموعة كبيرة من الدراجات. علاوة على ذلك فلا بد أن عددًا كبيرًا من الناس قد قطعوا المسافة — رغم حرارة الجو — من «ووكينج» و«تشيرتسي» سيرًا على الأقدام، فكان هناك حشد كبير للغاية من بينهم سيدتان ترتديان ثيابًا مبهرجة.

كانت الحرارة لافحة، وخلت السماء من السحب وخلا الجو من نسمات الهواء، وكانت الأرض الظليلة الوحيدة هي تلك التي تعلوها بضعة أشجار من الصنوبر متفرقة هنا وهناك. انطفأت ألسنة اللهب في المرج المحترق، لكن الأرض المستوية نحو «أوترشو» كانت مسودَّة مدى البصر، ولا تزال تنفث خيوطًا رفيعة من الدخان إلى الأعلى. أرسل بائع حلوى في طريق «تشوبهام رود» ابنه بعربة يد محملة بالتفاح الأخضر وجعة الزنجبيل.

عندما ذهبت إلى حافة الحفرة وجدت عندها مجموعة قوامها نحو ستة رجال؛ هندرسون وأوجيلفي ورجل أشقر الشعر طويل القامة عرفت فيما بعد أنه ستينت — عالم الفلك — ومعهم عدة عمال يستخدمون المجارف والمعاول. كان ستينت يوجِّه الآخرين بصوت واضح مرتفع؛ ويقف فوق الأسطوانة التي بدا واضحًا الآن أنها أكثر برودة، ووجهه شديد الحمرة يتصبب منه العرق، وبدا أن شيئًا ما أثار حفيظته.

انكشف جزء كبير من الأسطوانة، وإن كانت نهايتها السفلى ما زالت مغروسة في الأرض. وما إن رآني أوجيلفي وسط الحشد الذي يحدِّق النظر على حافة الحفرة حتى دعاني للنزول، وسألني هل أمانع في الذهاب إلى لورد هيلتون؛ صاحب الأرض.

قال إن تزايد أعداد الحشد، خاصة الفتيان منهم، يمثل عقبة خطيرة أما أعمال الحفر التي يقومون بها، وإنهم يريدون بناء سياج صغير يبعد الناس عنهم. أخبرني أن ضوضاء خافتة لا تزال تُسمع من داخل الصندوق من حين لآخر، لكن العمال أخفقوا في فك الغطاء، إذ لم يتمكنوا من إحكام قبضتهم عليه. بدا الصندوق ثقيلًا للغاية، ومن الممكن أن تكون الأصوات الخافتة التي سمعناها هي في حقيقتها جلبة عارمة في الداخل.

كنت في قمة سعادتي لأن أنفذ ما طلبه مني، وبهذا أصبحُ واحدًا من المتفرجين المتميزين في المنطقة التي صارت محطًّا للأنظار. لم أجد لورد هيلتون في منزله، لكن قيل لي إنه من المتوقع أن يعود من لندن في قطار السادسة القادم من «ووترلو»، ولأنها كانت الخامسة إلا الربع، فقد ذهبت إلى منزلي، وتناولت بعض الشاي، ثم اتجهت نحو المحطة أنتظر وصوله.

الفصل الرابع

انفتاح الأسطوانة

عندما عدت إلى المرعى، كانت الشمس قد آذنت بالغروب. كانت مجموعات متفرقة تأتي مسرعة من ناحية «ووكينج»، بينما شخص أو اثنان يعودون أدراجهم. زاد عدد الحشد حول الحفرة، ووقف نحو مائتي شخص بدوا كظلال سوداء تحت السماء باهتة الاصفرار. علت الأصوات، وبدا أن شجارًا يدور حول الحفرة. طافت بذهني تخيلات غريبة. ومع اقترابي سمعت صوت ستينت: «تراجعوا! تراجعوا!»

ركض أحد الفتيان نحوي.

قال لي وهو يمر بجواري: «إنها تتحرك، وتنفكّ. لا يعجبني ذلك. سأعود إلى البيت. سأعود.»

تقدمت نحو الحشد، وأظن أنه كان يوجد مائتا شخص أو ثلاثمائة يتدافعون ويزاحم بعضهم بعضًا، ولم تكن السيدات القليلات الواقفات أقل نشاطًا.

صاح أحدهم: «لقد سقط في الحفرة.»

قال آخرون: «تراجعوا!»

تحرك الحشد قليلًا، وشققت طريقي بينهم. بدت الإثارة على وجوه الجميع. سمعت صوت طنين غريب ينبعث من الحفرة.

قال أوجيلفي: «أبْعِد هؤلاء الحمقى، فنحن لا نعرف ماذا يوجد داخل هذا الشيء اللعين.»

شاهدت شابًّا — أظنُّه كان عاملًا في أحد متاجر «ووكينج» — يقف فوق الأسطوانة ويحاول التسلق إلى خارج الحفرة مرة أخرى، لكن الحشد دفعه للداخل.

كان طرف الأسطوانة ينفك من الداخل. ظهر مسمار لولبي لامع طوله نحو ٦٠ سنتيمترًا. اندفع أحدهم نحوي فجأة، وبشق النفس نجوت من السقوط على رأس المسمار

اللولبي. استدرت، ولا بد أن المسمار قد انفك أثناء ذلك، لأن غطاء الأسطوانة سقط فوق الحصى محدثًا رنينًا مدويًا. دفعت مرفقي نحو الشخص الذي كان يقف خلفي، وأدرت رأسي نحو «الشيء» مجددًا. بدا ذلك التجويف الدائري حالك السواد للحظة؛ وذلك من أثر مغيب الشمس في عينيّ.

أظن أن الجميع توقعوا ظهور رجل؛ ربما يختلف عنا نحن البشر على كوكب الأرض قليلًا، لكنه بشر على كل حال. أعلم أني شاركتهم في ذلك، لكني عندما نظرت رأيت على الفور شيئًا يتحرك في الظلام؛ حركات متموجة رمادية واحدة تلو الأخرى ثم ظهر قرصان مضيئان، يشبهان العينين. بعدها خرج شيء يشبه ثعبانًا رماديًّا صغيرًا — في سُمك عصا المشي — من الجزء الأوسط المتمعج، وشق طريقه متلويًا في الهواء نحوي … ثم تلاه آخر.

انتابتني رجفة مفاجئة، وسمعت صرخة مدوية من سيدة خلفي. استدرت نصف استدارة وعيناي لا تزالان مرتكزتين على الأسطوانة التي تخرج منها الآن مجسَّات أخرى، وبدأت أشق طريقي مبتعدًا عن حافة الحفرة. رأيت الفزع يحل محل الدهشة على وجوه المحيطين بي، وسمعت صرخات مكتومة في كل مكان. كان الجميع يتراجعون للخلف. رأيت عامل المتجر وهو لا يزال يشق طريقه بصعوبة على حافة الحفرة. وجدت نفسي وحيدًا، ورأيت الناس على الجانب الآخر من الحفرة يفرُّون، كان ستينت من بينهم. ألقيت نظرة أخرى على الأسطوانة، وتملكني رعب لا حد له. وقفت متسمِّرًا في مكاني أحدق النظر.

كان جسم مستدير رمادي ضخم — ربما يساوي حجمه حجم دبٍّ — يخرج من الأسطوانة ببطء وبشق النفس. وما إن برز الجسم ووقع عليه الضوء حتى تلألأ كما الجلد المبلَّل.

حدَّقت عينان سوداوان كبيرتان النظر في. كان الرأس الذي يحويهما — رأس هذا الشيء — مستديرًا ذا وجه إذا جاز التعبير. كان ثمة فم أسفل العينين، وارتجف حرف الفم عديم الشفاه، ولهث، وسال منه اللعاب. لهث الكائن كله، وانتفض في عنف. قبض طرف مجسِّي نحيل على حافة الأسطوانة، وترنَّح آخر في الهواء.

يصعب على أولئك الذين لم يروا مريخيًّا حيًّا من قبل أن يتخيلوا الرعب الغريب الذي يثيره منظره؛ فالفم المتخذ شكل V بشفته العليا المستدقة، وغياب النتوء العظمي فوق العينين، وغياب الذقن أسفل الشفة السفلى التي تشبه الوتد، وارتجاف الفم المتواصل،

ومجموعة المجسَّات التي تشبه الثعابين، وتنفس الرئتين الصاخب وسط جو غريب، وثِقَل الحركة ومشقتها الواضحان بسبب طاقة الجاذبية الأكبر على الأرض، وفوق كل هذا النظرة الغريبة التي تطل من العينين بالغتي الاتساع؛ كلها كانت في الوقت نفسه حيوية ونافذة ووحشية ومشوهة ومفزعة. كان ثمة شيء فُطري في البشرة البنية الزيتية؛ شيء في البطء الأخرق للحركات الرتيبة بغيض إلى حد لا يمكن وصفه. ومع أنه اللقاء الأول، ومع أنها النظرة الأولى، فقد تملكني الاشمئزاز والهلع من رأسي إلى أخمص قدمي.

اختفى المسخ فجأة. انقلب على حافة الأسطوانة، ثم سقط في الحفرة محدثًا صوتًا مكتومًا كأن كتلة كبيرة من الجلد سقطت. سمعته يصرخ صرخة جشَّاء غريبة، وفي الحال ظهر كائن آخر بلا وضوح في الظلمة الحالكة للكوة.

استدرت، وعدوت كالمجنون قاصدًا أول مجموعة أشجار في الطريق؛ ربما على بعد مائة متر، لكني كنت أركض في خط متعرج وكنت أتعثر لأني لم أستطع تحويل وجهي عن تلك الأشياء.

وهناك وسط بعض أشجار الصنوبر الصغيرة وبعض الشجيرات، وقفت لاهثًا أترقب حدوث تطورات أخرى. كانت الأرض حول حُفر الرمال مرقطة بأناس يقفون مثلي وقد استحوذت عليهم مشاعر الهلع الممزوج بالدهشة، يحدقون في تلك الكائنات، أو بالأحرى في كومة الحصى على حافة الحفرة التي تقبع داخلها. بعدها تجدد الشعور بالهلع عندما رأيت شيئًا أسود مستديرًا يظهر تارة ويختفي أخرى عند حافة الحفرة. كانت تلك رأس عامل المتجر الذي سقط في الحفرة، لكنها بدت جسمًا أسود صغيرًا في ضوء شمس المغرب الحارة. حينها رفع كتفه وركبته للأعلى، وبدا أنه ينزلق مرة أخرى حتى لم يعد يُرى سوى رأسه. اختفى الرجل فجأة، وأظن أني سمعت صرخة خافتة. شعرت بدافع لحظي أن أعود وأمد له يد المساعدة، لكن خوفي قضى على هذا الدافع.

كان كل شيء في ذلك الوقت مخفيًّا عن الأنظار تمامًا؛ تحجبه الحفرة العميقة وكومة الرمال التي أحدثها سقوط الأسطوانة. أي شخص كان قادمًا على الطريق من «تشوبهام» أو «ووكينج» سيعتريه الذهول من المنظر؛ جمع غفير من مائة شخص أو أكثر يتناقص عددهم باستمرار يقفون في دائرة كبيرة غير منتظمة؛ في الحفر وخلف الشجيرات وخلف البوابات وأسوجة الأشجار يتبادلون القليل من الكلمات؛ فقط صرخات مندهشة يحملق أصحابها في كومات ضئيلة من الرمال. استقرت عربة اليد المحملة بجعّة الزنجبيل مهجورة تمامًا تحت السماء المتوهجة، وفي حفر الرمال صف من العربات المهجورة وخيولها تَطْعم من الأكياس الموضوعة حول أنوفها أو تنبش الأرض بحوافرها.

الفصل الخامس

الشعاع الحراري

بعد النظرة الخاطفة التي ألقيتها على المريخيين الخارجين من الأسطوانة التي جاءوا فيها من كوكبهم إلى الأرض، أعجزني نوع من الوله عن فعل أي شيء. ظللت واقفًا في وضع عصيب في المرج أحدق في الرابية التي تحجبهم. كان الصراع بين الخوف والفضول يمزقني.

لم أجرؤ على العودة إلى الحفرة، لكني شعرت بتشوق جارف أن ألقي نظرة داخلها. لذا بدأت السير — في خط منحن كبير — أبحث عن موقع مناسب وأنظر باستمرار إلى تلال الرمال التي تخفي هؤلاء الوافدين الجدد إلى كوكبنا. في لحظة توهجت مجموعة من ثلاثة سياط سوداء رفيعة — أشبه بأذرع الأخطبوط — وسط شمس المغيب ثم سُحبَت على الفور، وبعدها ظهر قضبان رفيع يعلو قمته قرص مستدير يدور في حركة متمايلة. تُرى ماذا يحدث هناك؟

تجمع أغلب المتفرجين في مجموعة أو مجموعتين؛ حشد صغير باتجاه «ووكينج» والآخر مجموعة من الأشخاص باتجاه «تشوبهام». بدا واضحًا أنهم يشاركونني صراعي الذهني. كان عدد قليل منهم يقفون بالقرب مني. اقتربت من أحدهم — أظن أنه كان جارًا لي، مع أني لم أكن أعرف اسمه — وبادرته بالكلام. غير أن الوقت لم يكن مناسبًا لتجاذب أطراف حديث واضح.

قال الرجل: «يا لها من وحوش بغيضة! يا إلهي! يا لها من وحوش بغيضة!» وكرر ما قاله مرات ومرات.

قلت له: «ألم تر رجلًا داخل الحفرة؟» لكنه لم يُحر جوابًا. خيم علينا الصمت، ووقفنا نشاهد بعض الوقت جنبًا إلى جنب وكلانا — على ما أظن — يستمد بعض

الطمأنينة من صحبة الآخر. ثم غيرت موقعي إلى ربوة صغيرة رفعتني عن الأرض مسافة متر أو أكثر، وعندما نظرت إليه بعدها بقليل، رأيته يسير متجهًا نحو «ووكينج».

تحول الغروب غسقًا دون أن يحدث أي شيء آخر. بدا أن الحشد الواقف بعيدًا على اليسار — ناحية «ووكينج» — آخذ في الزيادة، وهنا سمعت همهمة خافتة تصدر منهم. تفرقت المجموعة الصغيرة التي كانت تقف باتجاه «تشوبهام». ولم تكن هناك أي إشارة على وجود حركة داخل الحفرة.

بثَّ ذلك الشجاعة في النفوس، وأظن أن الوافدين الجدد من «ووكينج» ساعدوا أيضًا في استعادة الثقة. على كل حال مع حلول الغسق، بدأت حركة بطيئة متقطعة فوق حفر الرمال؛ حركة بدا أنها تحشد القوى في ظل استمرار سكون الليل حول الأسطوانة. كانت هياكل غير واضحة المعالم لأجساد بشرية تتقدم في مجموعات ثنائية وثلاثية، وتتوقف، وتلقي نظرة، ثم تتقدم من جديد، وتنتشر أثناء ذلك على هيئة هلال رفيع غير منتظم الشكل يطوق الحفرة بقرنيه النحيلين. بدأت أنا الآخر أتقدم نحو الحفرة.

بعدها رأيت عددًا من سائقي العربات وآخرين يسيرون في جرأة نحو حفر الرمال، وسمعت قعقعة حوافر الخيول وصرير العجلات. رأيت فتى يدفع عربة التفاح، وعندما تقدمت من ناحية هورسيل على بعد نحو ثلاثين مترًا من الحفرة رأيت مجموعة صغيرة من الرجال، يلوِّح من يتقدمهم براية بيضاء.

علمت أنهم الوفد المنتدب للتفاوض مع الغزاة. حدثت تشاورات سريعة، ولأنه كان واضحًا أن المريخيين — مع هيئتهم المنفِّرة — كائنات ذكية، فقد تقرَّر أن نريهم — عن طريق مخاطبتهم بلغة الإشارة — أننا أذكياء مثلهم.

رفرفت الراية نحو اليمين ونحو اليسار. كانوا بعيدين عني بمسافة كبيرة، فلم أستطع تمييز أي منهم، لكني علمت بعد ذلك أن أوجيلفي وستينت وهندرسون وآخرين كانوا يحاولون التواصل مع المريخيين. تقدمت المجموعة الصغيرة ببطء نحو محيط دائرة الأشخاص التي كادت تكون مكتملة الآن، وتبعهم على مسافة مناسبة عدد من الأشخاص بدوا في صورة هياكل سوداء غير واضحة المعالم.

فجأة ظهر وميض من الضوء، وانبعثت كمية من دخان متوهج أخضر من الحفرة في صورة ثلاث هبَّات متفرقة تصاعدت واحدة بعد أخرى في الهواء الساكن.

كان هذا الدخان (أو الوهج لو شئنا تحري الدقة) براقًا للغاية، حتى إن السماء حالكة الزرقة والامتداد الضبابي للأرض البنيَّة نحو «تشيرتسي» بما فيها من أشجار

الصنوبر السوداء بدوا كأنهما أظلما فجأة أثناء ظهور تلك الهبَّات، وظلّا أشد ظلمة بعد تبددها. في الوقت نفسه سُمع بوضوح صوت هسيس خافت.

على الجانب الآخر من الحفرة وقفت المجموعة ذات الراية البيضاء على رأس الحفرة مشدوهين من تلك الظواهر، يبدون وكأنهم مجموعة هياكل سوداء صغيرة منتصبة فوق الأرض المظلمة. ومع تصاعد الدخان الأخضر، أضاءت وجوههم بلون أخضر شاحب، واختفى الضوء مرة أخرى عندما تبدد الدخان. وتدريجيًّا تحول صوت الهسيس إلى طنين، ثم صار جلبة طنانة طويلة مرتفعة. أطل هيكل أحدب من الحفرة ببطء، وبدا أنه يبعث شعاعًا من الضوء.

على الفور انبثقت ومضات لهب حقيقي — وهج براق يثب من شخص لآخر — لتطال مجموعة الرجال المتفرقين. بدا الأمر وكأن تيارًا مندفعًا غير مرئي ارتطم بهم مطلقًا وهجًا أبيض. بدا الأمر وكأن كل رجل تحول فجأة وللحظة إلى كتلة من اللهب.

بعد ذلك رأيتهم، في ضوء الوهج الذي أودى بحياتهم، وهم يترنحون ويتساقطون، بينما رفاقهم يفرون جريًا.

وقفت أحدق النظر دون أن أدرك أن هذا هو الموت يحصد أرواح الرجال رجلًا بعد رجل في ذلك الحشد الصغير البعيد. كل ما شعرت به هو أنه كان شيئًا غريبًا للغاية. وهج برَّاق يكاد لا يصدر أي صوت، ورجل يسقط بسرعة البرق ويتمدد بلا حراك، ومع مرور شعاع اللهب غير المرئي بين أشجار الصنوبر نشبت النيران فيها وتحولت كل نبتة جافة إلى كومة من اللهب في دوي مكتوم. وبعيدًا جدًّا تجاه مدينة «كنافيل»، لمحت الأشجار والسياجات النباتية والمباني الخشبية تشتعل بالنيران فجأة.

كان ذلك الموت المسْتَعِر — ذلك السيف الناري غير المرئي الذي لا مهرب منه — يتحرك في كل مكان بسرعة وثبات. شعرت باقترابه مني من خلال الشجيرات المتأججة التي كان يقع عليها، وتملكتني دهشة وذهول أعجزاني عن الحركة. سمعت فرقعة النيران في حفر الرمال، وصرخة حادة من جواد سقط هامدًا فجأة. ثم بدا الأمر وكأن إصبعًا خفية، وإن كانت حامية للغاية، قد تحركت عبر المرج بيني وبين سكان المريخ، وعلى طول خط منحنٍ خلف حفر الرمال طقطقت الأرض السوداء وانبعثت منها الأدخنة. سقط شيء محدثًا صوت ارتطام بعيدًا جهة اليسار حيث يفتح الطريق من محطة «ووكينج» على المرعى. وفي الحال توقفت أصوات الصفير والطنين، وغاص الجسم الأسود الشبيه بالقبة تدريجيًّا داخل الحفرة متواريًا عن الأنظار.

حدث كل ذلك بسرعة جعلتني أتوقف بلا حراك مذهولًا ومشدوهًا بسبب ومضات الضوء. لو أن ذلك الموت تحرك في دائرة كاملة، لكنت حتمًا في عداد الموتى وسط ما اعتراني من ذهول. لكنه تخطاني وترك الليل حولي حالكًا وغريبًا فجأة.

بدت أرض المرعى المتموجة الآن ظلماء حالكة الظلمة باستثناء الطرق المعبدة التي بدت رمادية باهتة أسفل السماء شديدة الزرقة في الساعات الأولى من الليل. كان المكان مظلمًا، وخلا من البشر فجأة. احتشدت النجوم في السماء، وفي الغرب كانت السماء لا تزال مضيئة بلون براق باهت يقارب الأزرق الضارب إلى الخضرة. انتصبت قمم أشجار الصنوبر وأسطح منازل «هورسيل» بلون داكن قبالة ضوء الشفق الغربي. كان المريخيون ومعداتهم مختفين عن الأنظار تمامًا باستثناء ذلك الصاري الرفيع الذي تتأرجح فوقه مرآتهم غير الثابتة. لا تزال الشجيرات والأشجار الفرادى هنا وهناك متوقدة ينبعث منها الدخان، والمنازل الواقعة في اتجاه محطة «ووكينج» ترسل خيوطًا مموجة من اللهب وسط السكون الذي غشَّى الجو ليلًا.

لم يتغير شيء عدا ذلك، فضلًا عن الذهول الممزوج بالفزع. أبيدت مجموعة الرجال حاملي الراية البيضاء من الوجود، ولم يحدث بعدها شيء يكسر سكون الليل.

خطر ببالي أني أقف فوق تلك الأرض المظلمة بائسًا وحيدًا معرضًا للخطر. وفجأة اعتراني شعور عميق بالخوف، وكأنه ألقي عليَّ من الخارج.

وببعض الجهد استدرت، وبدأت أعدو فوق المرج متعثرًا.

لم يكن الخوف الذي شعرت به خوفًا منطقيًّا، وإنما كان ذعرًا؛ ليس من المريخيين وحدهم، بل من الغسق والسكون المحيطين بي من كل جانب. ذلك الشعور أفقدني شجاعة الرجال إلى حد أنني عدوت وأنا أبكي في صمت مثل الأطفال. وحالما استدرت لم أجرؤ على النظر خلفي مجددًا.

أذكر أني تكونت لدي قناعة هائلة بأن أحدًا يتلاعب بي، وأنه في ذلك الوقت وبينما أنا على شفا الشعور بالأمان، ربما يقفز هذا الموت الغامض — الذي يمر بسرعة الضوء — خلفي من الحفرة المحيطة بالأسطوانة ويرديني قتيلًا.

الفصل السادس

الشعاع الحراري في طريق «تشوبهام رود»

لا يزال الأمر محيرًا كيف أن المريخيين قادرون على قتل البشر بتلك السرعة وذاك الصمت. يظن الكثيرون أنهم قادرون بصورة ما على توليد حرارة مكثفة داخل غرفة تكاد تكون غير موصلة للحرارة تمامًا. تلك الحرارة المكثفة يرسلونها في شعاع موازٍ إلى أي جسم يختارونه بواسطة مرآة مصقولة على شكل قطع مكافئ ذات تركيب غير معروف؛ مثلما ترسل مرآة القطع المكافئ في الفنار شعاعًا من الضوء. لكن لم يثبت أحد على الإطلاق تلك التفاصيل إثباتًا قاطعًا. وأيًّا كانت الطريقة المستخدمة، فمن المؤكد أن شعاع الحرارة هو جوهر المادة؛ حرارة وضوء غير مرئي. فكل ما هو قابل للاشتعال يتحول إلى وهج حالما يلمسه الشعاع؛ فالرصاص يسيل كالمياه، فضلًا عن أن هذا الشعاع يسيل الحديد، ويطقطق ويذيب الزجاج، وعندما يسقط فوق المياه تتحول إلى بخار في الحال.

في تلك الليلة تمدد نحو أربعين شخصًا أسفل ضوء النجوم بجوار الحفرة محروقين ومشوهين إلى حد يعجز القلم عن وصفه، وطوال الليل كان المرعى من «هورسيل» إلى «مايبري» مهجورًا ومضطرمًا بالنيران.

على الأرجح وصلت أخبار المذبحة كلًّا من «تشوبهام» و«ووكينج» و«أوترشو» في الوقت نفسه. ففي «ووكينج» أغلقت المتاجر أبوابها عندما وقعت المأساة، وسار عدد من الأشخاص — من أصحاب المتاجر وغيرهم — المأسورين بالروايات التي ترامت إلى آذانهم فوق جسر «هورسيل» وعلى الطريق بين السياجات النباتية التي تنتهي أخيرًا عند المرعى. لك أن تتخيل الشباب المهندم بعد عناء اليوم وهم يتخذون من تلك الحادثة الغريبة — مثلما يتخذون من أي حادثة غريبة — ذريعة كي يخرجوا في جولة يسلُّون أنفسهم بغزل مبتذل. لك أن تتخيل تلك الهمهمات على طول الطريق في الغسق …

في غضون ذلك كان عدد قليل من الناس في «ووكينج» قد عرفوا بأمر انفتاح الأسطوانة، مع أن المسكين هندرسون قد أرسل رسولًا على دراجة إلى مكتب البريد ببرقية خاصة إلى إحدى الصحف المسائية.

عندما خرج هؤلاء القوم مثنى وثُلاث إلى الخلاء رأوا حشودًا قليلة يتحدث بعضهم مع بعض حديثًا مفعمًا بالإثارة ويحدقون النظر في المرآة الدوارة فوق حفر الرمال، ولا شك أن الوافدين الجدد سرعان ما أصيبوا بعدوى الإثارة من جراء الحادثة.

نحو الساعة الثامنة والنصف — عندما أبيد الوفد المبعوث للتفاوض مع المريخيين — كان هناك حشد من نحو ثلاثمائة شخص أو أكثر في ذلك المكان، فضلًا عن أولئك الذين تركوا الطريق ليقتربوا من المريخيين أكثر. وكان هناك أيضًا ثلاثة من رجال الشرطة — أحدهم يمتطي صهوة جواده — يبذلون قصارى جهدهم بتوجيهات من ستينت لإبعاد المتفرجين والحيلولة دون اقترابهم من الأسطوانة. صدرت صيحات تثير الذعر من أولئك الأشخاص الأكثر رعونة الذين يعتبرون الحشد مكانًا للصخب والمزاح الثقيل.

كان ستينت وأوجيلفي — بعد أن توقعوا حدوث صدام — قد أرسلا برقية من «هورسيل» إلى ثكنات الجنود فور ظهور المريخيين من أجل إرسال مجموعة من الجنود بهدف حماية تلك الكائنات الغريبة من أي عنف قد يوجه ضدها. بعد ذلك عادا ليقودا تلك المجموعة ذات الحظ المشئوم. يتطابق وصف موتهم — مثلما شاهده الحشد — تطابقًا كبيرًا مع وصفي؛ هبَّات الدخان الأخضر الثلاث، وصوت الطنين الخافت، وأشعة اللهب.

لكن ذلك الحشد من الأشخاص نجوا بأعجوبة أكثر مما كان الأمر معي؛ إذ أنقذتهم ربوة من رمال المرج اعترضت الجزء السفلي من الشعاع الحراري. ولو كان ارتفاع المرآة التي تشبه القطع المكافئ أعلى ببضعة أمتار، لما قُدِّر لواحد منهم النجاة بحياته ليحكي تلك القصة. لقد شاهدوا الوهج والرجال الذين يخرون صرعى، ويدًا خفية — إذا جاز التعبير — تضرم النيران في الشجيرات وهي تسرع نحوهم عبر الغسق. بعدئذ تأرجح الشعاع فوق رءوسهم — محدثًا صفيرًا طغى على الطنين المنبعث من الحفرة — ليشعل قمم أشجار الزان التي تصطف على الطريق، ويشطر القراميد، ويهشِّم النوافذ، ويشعل النيران في أُطُرها، ويُسقط جزءًا من جملون المنزل الأقرب للناصية على هيئة حطام متهدِّم.

وسط الطنين والصفير واشتعال الأشجار المفاجئ، بدا أن الحشد المذعور ترنَّح في تردد برهة. بدأ الشرار والأغصان المشتعلة تتساقط على الطريق، وأوراق الأشجار كأنها كتل من اللهب. أمسكت النيران في القبعات والأردية، ثم سُمع صوت صراخ من المرعى. علا الصياح والصراخ، وفجأة جاء شرطي يمتطي جوادًا ويعدو وسط حالة من الارتباك وهو يشبك يديه فوق رأسه ويصيح.

صرخت إحدى النساء: «إنهم قادمون!» وعلى الفور كان الجميع يستديرون ويدفعون الواقفين خلفهم ليفسحوا لأنفسهم الطريق إلى «ووكينج» مرة أخرى. لا بد أنهم فرُّوا على غير هدى كقطيع من الأغنام. وحيثما ضاق الطريق واشتدت عتمته بين الكومات المرتفعة، تزاحم الحشد، ودار بينهم صراع مستميت. لم يفر الحشد بأسره؛ فثلاثة أشخاص على الأقل — سيدتان وطفل صغير — دُهسوا ووطأتهم الأقدام هناك، ثم تُركوا ليلقوا حتفهم وسط الذعر وعتمة الليل.

الفصل السابع

عودتي إلى المنزل

من جانبي لا أتذكر أي شيء عن هروبي سوى وطأة التخبط في الأشجار والتعثر في المرج. تجمع الهلع الخفي للمريخيين في كل مكان حولي؛ بدا ذلك السيف الحراري الوحشي كأنه يتحرك في دوامة في كل مكان، ويتلألأ في الهواء قبل أن يهبط ويسدد لي ضربة تودي بحياتي. وصلت إلى الطريق الذي يفصل بين تقاطع الطرق وبين «هورسيل»، وركضت على طول هذا الطريق نحو التقاطع.

لم أستطع مواصلة العدْو إلى النهاية؛ فقد أُنهكت قواي بسبب اهتياج مشاعري وصعوبة الفرار، فترنحت وسقطت بجانب الطريق. حدث ذلك بالقرب من الجسر الذي يقطع القناة بجوار مصنع الغاز. سقطت، وتمددت بلا حراك.

لا بد أني بقيت هناك فترة من الوقت.

اعتدلت في جلستي مرتبكًا على نحو غريب. بقيت هنيهة لا أدري تحديدًا كيف وصلت هناك. سقط عني خوفي كأنه حُلَّة كنت أرتديها. اختفت قبعتي، وانفكت ياقتي. قبل بضع دقائق كانت هناك ثلاثة أشياء حقيقية أمامي فحسب؛ عِظَم الليل والفضاء والطبيعة، ووهني ومعاناتي، ودُنُو الموت مني. الآن بدا كأن شيئًا قد تبدل، وتغيرت وجهة النظر فجأة. لم يكن ثمة تحول محسوس من حالة ذهنية إلى أخرى. عُدت على الفور إلى نفسي التي أكون عليها كل يوم؛ عُدت مواطنًا عاديًّا جديرًا بالاحترام. بدا المرعى الساكن، والرغبة الجامحة في الفرار، واللهب المنطلق وكأنه حلم راودني. وتساءلتُ هل حدثت تلك الأشياء بالفعل؟ لم أستطع تصديق ذلك.

نهضت وسرت مترنحًا أعلى المنحدر المائل للجسر. كان عقلي في حيرة تامة، وبدت عضلات جسدي وأعصابي خائرة القوى. ظهرت رأس فوق القنطرة، وظهر هيكلُ عامل يحمل سلة، وبجواره فتى صغير يركض. مر بجواري، وألقى علي تحية المساء. أردت أن

أتحدث إليه، لكني لم أفعل. رددت على تحيته بغمغمة بلا معنى، وواصلت السير فوق الجسر.

فوق قنطرة «مايبري» انطلق أحد القطارات — دخان أبيض متداخل تضيئه النيران، وسلسلة طويلة من النوافذ المضيئة — نحو الجنوب محدثًا ضوضاء عالية، ثم اختفى. تحدث عدد من الأشخاص غير واضحي الملامح عند بوابة أحد المنازل داخل صف الجملونات الجذاب الذي يُطلق عليه «أورينتال تيراس». كان كل ذلك حقيقيًّا للغاية ومألوفًا تمامًا. أما الذي تركتُه خلفي، فكان الجنون وعجب العجاب! قلت لنفسي إن أشياء كهذه يستحيل أن تكون حقيقة.

ربما أكون صاحب أمزجة استثنائية. لا أدري إلى أي مدى يمكن أن تكون تلك التجربة التي خضتها عادية. أحيانًا أعاني أغرب شعور من نوعه بالانفصال عن نفسي وعن العالم من حولي؛ أبدو كأنني أراقب كل شيء من الخارج؛ من نقطة لا يُسبر غورها؛ نقطة خارج الزمان، وخارج المكان، بعيدًا عن المأساة والفاجعة. استبد بي ذلك الشعور تلك الليلة. كان ذلك جانبًا آخر من حلمي.

غير أن البلوى كانت تكمن في التضارب التام بين هذا السكون وبين الموت المباغت الذي يتحرك سريعًا هناك على بعد أقل من ميلين. انبعث ضجيج مصدره العمل في مصنع الغاز، وكانت كل المصابيح الكهربائية مضاءة. توقفتُ عند مجموعة الأشخاص.

قلت: «أهناك أخبار من المرعى؟»

كان رجلان وامرأة عند البوابة.

قال أحد الرجلين وهو يلتفت: «ماذا؟»

قلت: «أهناك أخبار من المرعى؟»

سأل الرجلان: «ألم تأت من هناك لتوِّك؟»

قالت المرأة لدى البوابة: «يبدو الناس حمقى تمامًا في حديثهم عن المرعى. علامَ كل هذا؟»

قلت: «ألم تسمعي عن البشر القادمين من المريخ؟ الكائنات القادمة من المريخ؟»

قالت المرأة لدى البوابة: «سمعت الكثير، شكرًا لك.» وضحك ثلاثتهم.

شعرت بالحماقة والغضب. حاولت إخبارهم بما رأيت، ووجدت أني لا أستطيع. وتجددت ضحكاتهم على عباراتي المبتورة.

قلت: «لكنكم ستسمعون المزيد.» وواصلت طريقي إلى منزلي.

صُعقَت زوجتي عندما رأتني عند مدخل المنزل من شدة ما اعتراني من الكلل. ذهبت إلى حجرة الطعام، وجلست، واحتسيت بعض النبيذ، وسرعان ما استجمعت قواي إلى حد تمكنت معه من إخبارها بما رأيت. كانت قد وضعت طعام العشاء — الذي صار الآن باردًا — على المائدة من قبل، ولم يلتفت أحدنا له وأنا أخبرها بروايتي.

قلت بغية تهدئة المخاوف التي أثرتها: «ثمة أمر واحد؛ إنها أبطأ الكائنات التي رأيتها تزحف قاطبة. وقد يلزمون الحفرة ويقتلون من يقتربون منهم، لكنهم لن يستطيعوا الخروج منها … لكنهم يبثون الرعب في القلوب!»

قالت زوجتي وهي تقطب حاجبيها وتضع يدها فوقي: «كفى يا عزيزي!»

قلت: «يا له من مسكين أوجيلفي! لا يمكنني أن أفكر أنه قد يكون ممددًا هناك وقد فارق الحياة.»

على الأقل لم تعتبر زوجتي أن ما أقوله مستحيل الحدوث. عندما رأيت وجهها الذي شحب تمامًا، توقفت على الفور.

رددتْ أكثر من مرة: «قد يأتون إلى هنا.»

ألححت عليها كي تحتسي بعض النبيذ، وحاولت أن أهدئ من روعها.

قلت لها: «إنهم لا يتحركون إلا بشق الأنفس.»

شرعت أخفف عنها وعن نفسي بترديد كل ما أخبرني به أوجيلفي عن استحالة توطين المريخيين أنفسهم على كوكب الأرض. وركزت على وجه التحديد على المشقة المتعلقة بالجاذبية. فالجاذبية على سطح الأرض تعدل ثلاثة أضعاف الجاذبية على سطح المريخ. وعلى ذلك فإن المريخي على الأرض سيزن ثلاثة أضعاف وزنه على المريخ، ولكن ستظل قوته العضلية كما هي. سيكون جسده بمنزلة ثقل من الرصاص يتعين عليه جرُّه. والواقع أن هذه كانت الفكرة السائدة؛ فقد أصرت كل من صحيفتي «ذا تايمز» و«ديلي تليجراف» — على سبيل المثال — عليها في صباح اليوم التالي، وأغفلت كلتاهما — مثلما فعلت أنا — عاملين مؤثرين واضحين من شأنهما تغيير تلك الفكرة.

نحن نعرف الآن أن الغلاف الجوي لكوكب الأرض يحتوي على أكسجين أكثر بكثير أو أرجون أقل بكثير (سيان أن نقول هذا أو ذاك) عما يحتويه الغلاف الجوي على سطح المريخ. ولا شك أن التأثير المنشِّط لزيادة الأكسجين هذه على المريخيين كان لها دور كبير قطعًا في معادلة أوزان أجسادهم الزائدة. ثانيًا، كلنا أغفلنا حقيقة أن ذكاءً ميكانيكيًّا كالذي يمتلكه المريخيون قادر تمام المقدرة على الاستغناء عن الجهد العضلي عند الحاجة إلى ذلك.

لكني لم أفكر في هاتين النقطتين وقتها، ولذا كان استنتاجي خاطئًا فيما يتعلق بالاحتمالات المتاحة أمام الغزاة. مع وجود النبيذ والطعام، وثقتي أني على مائدتي، وضرورة طمأنة زوجتي، ازددت شجاعة واطمئنانًا بالتدريج حتى إنني لم أنتبه إليهما.

قلت وأنا أتحسس كأسي بأصابعي: «لقد ارتكبوا فعلة حمقاء. هم يمثلون خطرًا لأنهم فقدوا صوابهم من شدة هلعهم. ربما توقعوا ألا يجدوا كائنات حية؛ ألا يجدوا كائنات حية ذكية.»

ثم أضفت: «إذا بلغت الأمور مداها من السوء، فإن إلقاء قذيفة في الحفرة سيكون كفيلًا بالقضاء عليهم.»

لا شك أن الإثارة البالغة التي صاحبت تلك الأحداث قد تركت قدراتي الإدراكية في حالة هياج ذهني. أتذكر مائدة العشاء بوضوح شديد حتى في هذه اللحظة؛ وجه زوجتي الحبيبة قلِقًا يحدق فيَّ من تحت مظلة المصباح الوردية، وغطاء المائدة الأبيض وما عليه من أثاث فضي وزجاجي — فحتى كتَّاب الفلسفة في ذلك الوقت كانوا يتمتعون بكثير من وسائل الترف — والنبيذ القرمزي في كأسي؛ كلها مطبوعة في ذاكرتي. وفي النهاية دخنت سيجارة لأهدئ أعصابي بينما أتحسر على تهور أوجيلفي وأستنكر جُبن المريخيين المزوج بقصر البصر.

ربما فعل أحد طيور الدودو المنقرضة في عشه في جزيرة موريشيوس مثلما أفعل الآن، وتحدث عن وصول هؤلاء البحارة قساة القلوب في سفينتهم بحثًا عن حيوانات يَطعَمونها. «سوف ننقض عليهم بمناقيرنا غدًا حتى نقضي عليهم يا عزيزتي.»

كان هذا آخر عشاء متمدن أتناوله لأيام عديدة عسيرة وغريبة، لكني لم أكن أعرف ذلك.

الفصل الثامن

مساء الجمعة

كان أغرب شيء على عقلي — من بين كل الغرائب والعجائب التي حدثت تلك الجمعة — هو ذلك التناغم بين العادات الشائعة في نظامنا الاجتماعي وبين البدايات الأولى لسلسلة من الأحداث التي من شأنها أن تقلب ذلك النظام رأسًا على عقب. لو أنك مساء الجمعة أخذت فرجارًا ورسمت دائرة قطرها خمسة أميال حول حفر رمال «ووكينج»، لما وجدت أحدًا خارج تلك الدائرة قد تأثرت مشاعره أو عاداته على الإطلاق بسبب الوافدين الجدد، ما لم تكن تربطه قرابة بستينت أو براكبي الدراجات الثلاث أو الأربع أو بأهل لندن الذين يرقدون موتى في المرعى. من المؤكد أن الكثيرين قد سمعوا بأمر الأسطوانة، وتحدثوا عنها في أوقات فراغهم، لكنها لم تخلف فيهم أثرًا ولو قريبًا من الأثر الذي كان سيخلفه توجيه إنذار بالحرب إلى ألمانيا.

في لندن حُكم على البرقية التي أرسلها المسكين هندرسون تلك الليلة يصف فيها الانفتاح التدريجي للقذيفة بأنها شائعة، واتخذت جريدته المسائية — بعد أن أرسلت إليه برقية للتأكد من صحة الأخبار ولم تتلق ردًّا لأنه كان قد لقي حتفه — قرارًا بعدم طبع عدد خاص.

بل إنه في نطاق دائرة الأميال الخمسة لم تحرك الأغلبية العظمى من الناس ساكنًا. سبق أن وصفت سلوك الرجال والنساء الذين تحدثتُ معهم. في كل مكان في الحي، كان الأهالي يتناولون غداءهم وعشاءهم، والعمال يرعون الحدائق بعد مشاق اليوم، والأطفال يخلدون إلى النوم، والشباب من الجنسين في الأزقة يغازل بعضهم بعضًا، والطلبة يذاكرون دروسهم.

ربما كانت هناك غمغمة في شوارع القرية، ورواية أو موضوع رئيسي في الحانات، ورسول هنا وهناك، أو حتى شاهد عيان على الأحداث الأخيرة، لكن الجزء الأكبر من

الروتين اليومي فيما يتعلق بتناول الطعام والشراب والنوم استمر كما كان منذ سنوات عديدة وكأنه لا يوجد كوكب يحمل اسم المريخ في السماء. بل كان هذا هو الحال أيضًا في كل من «هورسيل» و«تشوبهام» و«ووكينج».

عند ملتقى خطوط «ووكينج» وحتى ساعة متأخرة من الليل، كانت بعض القطارات تتوقف ثم تنطلق، وبعضها يتحول إلى المسارات الجانبية، والركاب يترجلون وينتظرون، وكل شيء يحدث كما يحدث كل يوم. كان ثمة فتى من المدينة يبيع الصحف التي تحمل أنباء المساء. اختلط صوت دوي الشاحنات والصفير الحاد للمحركات عند نقطة الملتقى بصيحات: «بشرٌ من المريخ!» وصل المحطة نحو الساعة التاسعة رهط من الرجال المفعمين بالإثارة يحملون أنباءً غريبة، ولم يثيروا اضطرابًا أكثر مما قد يثيره نفر من المخمورين. حدق الأشخاص الذين يركبون العربات باتجاه لندن النظر في الظلام خارج نوافذ العربات، ولم يروا سوى شرارة لامعة غريبة آخذة في الزوال تتراقص من ناحية «هورسيل»، ووهجًا أحمر، وسحابة خفيفة من الدخان تتجه نحو النجوم، وظنوا أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد حريق في أحد المروج. لم يكن الاضطراب محسوسًا إلا بالقرب من أطراف المرعى. كانت ستة منازل ريفية تحترق على حدود «ووكينج». أضيئت الأنوار في جميع منازل القرى الثلاث المطلة على المرعى، وجافى النوم أجفان أهلها حتى طلوع الفجر.

تلكأت جماعة من الفضوليين هنا وهناك. كان البعض يأتي والبعض ينصرف والحشد كما هو فوق جسري «تشوبهام» و«هورسيل». علمت بعدها أن مغامرَين شقَّا طريقهما في الظلام وتقدما شيئًا فشيئًا نحو المريخيين، لكنهما لم يعودا قط؛ فمن وقت لآخر كان شعاع ضوء — يشبه شعاع الكشاف في السفن الحربية — يمشِّط الأرض، ثم يعقبه الشعاع الحراري في العمل. فيما عدا ذلك كانت تلك المنطقة الفسيحة من المرعى ساكنة مهجورة، والجثث المحترقة ممددة فوقها طوال الليل أسفل ضوء النجوم وأيضًا طوال اليوم التالي. انبعثت من الحفرة أصوات طرق سمعها الكثيرون.

ذلك وصف لما كانت عليه الأوضاع مساء الجمعة. كانت الأسطوانة مغروسة في الأرض أشبه بسهم مسموم. غير أن مفعول السم لم يكن قد ظهر بعد. حولها كانت رقعة ساكنة من المرعى بها حريق في بعض الأماكن وبضع هياكل سوداء لا تُرى بوضوح تتمدد في أوضاع ملتوية هنا وهناك. في كل مكان توجد شجيرة أو شجرة تحترق. وعلى مقربة من ذلك كانت هناك هالة من الإثارة، ووراء ذلك لم تكن هالة الإثارة هذه قد

زحفت بعد. وفي الأماكن الأخرى من العالم، استمرت الحياة كما كانت عليه منذ قديم الأزل. لم تبدأ بعد حمى الحرب التي عما قريب ستسد الأوردة والشرايين وتميت الأعصاب وتدمر الأدمغة.

طوال الليل والمريخيون يطرقون ويتحركون لا يكلُّون ولا يغلبهم النعاس؛ يعملون على الآلات التي يجهزونها، ومن آن لآخر تتصاعد هبَّة دخان أبيض مشوب بالخضرة في حركة متموجة نحو السماء المضاءة بالنجوم.

نحو الحادية عشرة جاءت كتيبة جنود عن طريق هورسيل، وانتشروا على أطراف المرعى لتشكيل طوق أمني. وبعدها وصلت كتيبة أخرى عبر تشوبهام لتنتشر على الجانب الشمالي من المرعى. كان عدد كبير من الضباط قد وصلوا إلى المرعى من ثكنات «إنكرمان» في وقت مبكر اليوم، وذُكر أن أحدهم — ويُدعى الرائد إيدين — في عداد المفقودين. وصل قائد الكتيبة إلى جسر «تشوبهام»، وكان مشغولًا باستجواب الحشد في منتصف الليل. لا شك أن السلطات العسكرية كانت تدرك خطورة الموقف. ذكرت صحف الصباح في اليوم التالي أن سرية من الخيالة، ومدفعين طراز ماكسيم، ونحو أربعمائة رجل من سلاح الفرسان انطلقوا من «ألدرشوت» نحو الساعة الحادية عشرة.

بعد انتصاف الليل ببضع ثوان، رأى الحشد المجتمع في طريق «تشيرتسي» و«ووكينج» نجمًا يسقط من السماء في غابات الصنوبر ناحية الشمال الغربي. كان نجمًا أخضر أحدث بريقًا ساكنًا كبرق الصيف. كانت تلك هي الأسطوانة الثانية.

الفصل التاسع

بداية المعركة

ما زال يوم السبت حيًّا في ذاكرتي بوصفه يوم الترقب، فضلًا عن أنه كان يوم تكاسل أيضًا؛ إذ كان الطقس حارًّا عزَّ فيه الهواء، وعلمت أن مقياس الضغط الجوي كان يتغير بصورة مستمرة. لم أنم إلا قليلًا، مع أن زوجتي تمكنت من الاستغراق في النوم، ونهضتُ مبكرًا. خرجت إلى حديقتي قبل تناول الإفطار، ووقفت أرهف السمع، لكني لم أسمع شيئًا يتحرك باتجاه المرعى سوى طائر القُبرة.

جاء بائع الحليب كالمعتاد. بلغت مسامعي قعقعة عربته، فتوجهت إلى البوابة الجانبية لأستطلع آخر الأخبار. أخبرني أنه أثناء الليل أحيط المريخيون بالجنود، وأن إطلاق النيران كان متوقعًا. بعدها سمعت صوتًا مألوفًا بعث الطمأنينة في نفسي وهو صوت قطار يعدو باتجاه «ووكينج».

قال بائع الحليب: «من المفترض ألا يُقتلوا لو أمكن تفادي قتلهم.»

رأيت جاري يعمل في حديقته، وتجاذبنا أطراف الحديث بعض الوقت، ثم دلفت إلى المنزل من أجل تناول الإفطار. كان صباحًا عاديًّا تمامًا. كان جاري يرى أن الجنود قادرون على أسر المريخيين أو القضاء عليهم ذلك اليوم.

قال: «من المؤسف أنهم عزلوا أنفسهم هكذا. سيكون مشوقًا لو عرفنا كيف يعيشون على كوكب آخر، وربما نتعلم منهم بعض الأمور.»

اقترب من السياج، ومد يده بحفنة من الفراولة، لأنه كان في عمله في الحديقة معطاءً مثلما كان متحمسًا. في الوقت نفسه أخبرني عن الحريق الذي نشب في غابات الصنوبر حول «ساحة جولف بايفليت».

قال: «يقولون إن واحدًا من تلك الأشياء الميمونة قد سقط هناك؛ إنه الثاني. لكن من المؤكد أن واحدًا يكفي. تلك البقعة ستكلف شركات التأمين مبالغ طائلة قبل أن يعود

كل شيء إلى ما كان عليه.» ضحك الرجل بنفس المرح الذي كان يتحدث به. وأضاف أن الأشجار ما زالت تحترق، وأشار صوب سحابة من الدخان قائلًا: «سوف تظل الأرض ساخنة تحت الأقدام أيامًا بسبب التربة الكثيفة للعشب ولأوراق الصنوبر.» ثم بدا عليه الحزن بسبب ما تعرض له «أوجيلفي المسكين».

بعد أن تناولت الإفطار، وبدلًا من العمل، قررت أن أذهب إلى المرعى. أسفل جسر السكة الحديدية رأيت مجموعة من الجنود — مهندسين عسكريين على ما أظن — يرتدون قبعات دائرية صغيرة، وسترات حمراء رثَّة مفكوكة الأزرار تُظهر قمصانهم الزرقاء، وسراويل داكنة، وأحذية تصل حتى ربلة الساق. أخبروني أنه غير مسموح لأحد بعبور القناة، وعندما نظرت على طول الطريق باتجاه الجسر، رأيت واحدًا من سلاح الفرسان يتولى الحراسة هناك. تحدثت مع هؤلاء الجنود بعض الوقت؛ أخبرتهم عن مشاهدتي المريخيين في الليلة السابقة. لم يكن أحد منهم قد رأى المريخيين، ولم تكن لديهم أي فكرة واضحة عنهم، لذلك انهالوا عليَّ بالأسئلة. قالوا إنهم لا يعرفون من الذي أصدر الإذن بتحرك الجنود؛ كانوا يظنون أن نزاعًا قد نشب في فرقة الخيالة. يتميز المهندس العسكري بأنه أكثر تثقيفًا من الجندي العادي. دار بينهم نقاش عن الظروف الخاصة للمعركة المحتملة بشيء من الفطنة. وصفت الشعاع الحراري لهم، وبدءوا يتجادلون فيما بينهم.

قال أحدهم: «أرى أن نزحف نحوهم متخفين وأن نهجم عليهم.»

قال آخر: «يا له من هراء! وكيف سنتخفى من هذه الحرارة؟ سوف نحترق! علينا أن نقترب منهم على قدر ما نستطيع، ثم نحفر خندقًا.»

– «تبًّا لخنادقكم! ألا تفكرون في شيء سوى الخنادق! كان ينبغي أن تكونوا أرانب أيها المهندسين.»

على الفور قال ثالث؛ رجل ضئيل الجسم داكن الشعر يبدو عليه التفكر ويدخن غليونًا: «ليست لديهم أعناق إذن؟»

كررت وصفي للمريخيين مرة أخرى.

فقال: «أخطبوطات. هكذا أطلقُ عليهم. ليس البشر هم الصيادين؛ بل الأسماك هي التي تصطاد هذه المرة!»

قال المتحدث الأول: «ليست جريمة أن نقتل حيوانات كهذه.»

قال الرجل ذو الشعر الداكن: «لم لا نضرب تلك الكائنات اللعينة بقذيفة في الحال ونقضي عليهم؟ ماذا عساهم أن يفعلوا؟»

قال المتحدث الأول: «أين قذائفكم. لا وقت لدينا. نصيحتي لكم أن تسرعوا وتقوموا بذلك على الفور.»

وهكذا جرى النقاش بينهم. تركتهم بعد فترة، وذهبت إلى محطة السكة الحديدية لأشتري ما أمكن من صحف الصباح.

لكني لن أزعج القارئ بوصف ذلك الصباح الطويل، وتلك الظهيرة الأطول. لم يتسن لي إلقاء نظرة على المرعى؛ فحتى برجا كنيستي «هورسيل» و«تشوبهام» وقعا تحت قبضة السلطات العسكرية. لم يكن الجنود الذين تحدثت معهم يعرفون أي شيء، بينما كان الضباط غامضين ومشغولين أيضًا. وجدت أهالي البلدة وقد عاودهم الأمان تمامًا في وجود الجيش، وسمعت للمرة الأولى من بائع السجائر أن ابنه واحد ممن لقوا حتفهم في المرعى. أمر الجنود الأهالي في ضواحي «هورسيل» بأن يوصدوا منازلهم ويغادروها.

عدت لتناول الغداء نحو الساعة الثانية وأنا أشعر بالتعب الشديد لأن اليوم — كما ذكرت — كان قاتمًا وحارًّا للغاية، ولكي أجدد نشاطي اغتسلت بالماء البارد بعد الظهيرة. نحو الساعة الرابعة والنصف ذهبت إلى محطة السكة الحديدية لأشتري واحدة من صحف المساء، لأن صحف الصباح اقتصرت على وصف غير دقيق على الإطلاق لمقتل ستينت وهندرسون وأوجيلفي والآخرين. لكن لم تكن هناك أي أخبار جديدة لا أعرفها. لم يُظهر المريخيون قيد أنملة منهم، إذ بدا أنهم مشغولون في الحفرة التي يقبعون فيها، وكان هناك صوت طرق وشريط من الدخان لا يكاد ينقطع. من الواضح أنهم مشغولون بالاستعداد للمعركة. «محاولات جديدة لإرسال إشارة، لكنها باءت بالفشل.» كانت تلك الصيغة المتداولة لما يُنشر في الصحف. أخبرني جندي من سلاح المهندسين أن تلك المحاولات قام بها رجل في حفرة رافعًا علمًا فوق سارية. كان التفات المريخيين لهذه المحاولات أشبه بالتفاتنا نحن لخوار إحدى الأبقار.

لا بد أن أقر بأن رؤيتي لكل هذا التسلح وكل تلك الاستعدادات أثارتني كثيرًا. سيطرت على خيالي فكرة القتال، وتخيلت أني قهرت الغزاة بطرق غريبة شتَّى؛ عاد إليَّ شيء من أحلام الصبا حول القتال والاستبسال. لم يبد القتال عادلًا في نظري آنذاك، إذ بدا أنه لا حول لهم ولا قوة في تلك الحفرة التي يسكنونها.

نحو الساعة الثالثة بدأ هدير أحد المدافع على فترات منظمة من «تشيرتسي» أو «أديلستون». علمت أن غابة الصنوبر المحترقة التي سقطت فيها الأسطوانة الثانية

تتعرض للقصف على أمل تدمير ذلك الشيء قبل أن يُفتح. مع هذا لم يصل المدفع الميداني إلى «تشوبهام» لاستخدامه ضد الجسم الأول التابع للمريخيين إلا نحو الساعة الخامسة.

نحو الساعة السادسة من ذلك المساء وبينما كنت أحتسي الشاي مع زوجتي في المنزل الصيفي نتحدث في همة عن المعركة التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى منا، سمعت انفجارًا مكتومًا صادرًا من المرعى اندلعت بعده على الفور عاصفة من النيران. في أعقاب ذلك سمعنا صوت ارتطام عنيف كان قريبًا منا للغاية حتى إن الأرض اهتزت له. عندما بدأت التحرك فوق المرج، رأيت قمم الأشجار حول كلية «أورينتال كوليدج» تشتعل بلهب أحمر دخاني، ثم انهار برج الكنيسة الصغيرة المجاورة لها. اختفت قبة المبنى، وبدا إطار سقف الكلية نفسها كأن مدفعًا وزنه مائة طن قد ضربه. تصدعت إحدى مدخناتنا كأن طلقة وُجِّهت نحوها، وتطايرت في الهواء، وتدحرجت قطعة منها على الجدار المغطى بالقرميد، وأحدثت كومة من الشظايا الحمراء المكسورة فوق حوض الزهور بجوار غرفة مكتبي.

وقفت أنا وزوجتي وقد اعترانا الذهول. ثم تذكرت أن قمة تل «مايبري» لا بد أن تكون في نطاق الشعاع الحراري الذي يستخدمه المريخيون الآن لأن الكلية اختفت من الطريق.

عندها أمسكت بذراع زوجتي ودون كياسة جعلتها تركض معي على الطريق. وصلت إلى الخادمة، وأخبرتها أني سأصعد الطابق العلوي بنفسي، وأحضر لها الصندوق الذي كانت تنُوح من أجله.

قلت: «لا يمكننا البقاء هنا.» وبينما كنت أتحدث فُتحت النيران من جديد هنيهة فوق المرعى.

قالت زوجتي في فزع: «لكن إلى أين سنذهب؟»

فكَّرتُ متحيرًا، ثم تذكرت أبناء عمومتها في «ليذرهيد».

صحت بصوت عال وسط الضوضاء المفاجئة: «ليذرهيد!»

أشاحت بوجهها نحو سفح التل. كان الناس يخرجون من منازلهم وسط حالة من الذهول.

قالت: «وكيف سنصل إلى «ليذرهيد»؟»

رأيت أسفل التل جماعة من الفرسان يمتطون جيادهم أسفل جسر السكة الحديدية؛ أسرع ثلاثة منهم عبر بوابات «أورينتال كوليدج» المفتوحة، بينما ترجل اثنان وبدآ

يركضان من منزل لآخر. بدت الشمس — التي كانت تشرق وسط الدخان المتصاعد من قمم الأشجار — حمراء قانية، وألقت بضوء متوهج غريب على كل شيء.

قلت: «توقفي، ستكونين في أمان هنا.» وانطلقتُ في الحال نحو حانة «سبوتيد دوج»، لأني كنت أعرف أن مالك الحانة يمتلك جوادًا وعربة. ركضت لأني أدركت أنه في تلك اللحظة سيتحرك كل من في هذا الجانب من التل. وجدته في حانته لا يدري أي شيء عما يجري خلف منزله. وقف رجل يتحدث معه وظهره إليّ.

قال صاحب الحانة: «أريد جنيهًا، وليس لدي أحد يقودها.»

قلت من فوق كتفي الرجل الغريب: «سوف أعطيك جنيهين.»

– «ولم هذا؟»

قلت: «وسأحضرها لك في منتصف الليل.»

قال صاحب الحانة: «يا إلهي! ولم كل هذه العجلة؟ أنا موافق. جنيهان وستعيدها مرة أخرى؟ ما الذي يحدث الآن؟»

أوضحت في عجالة أنه لا بد لي من مغادرة منزلي، وهكذا أمَّنت العربة. في ذلك الوقت لم يبد لي أن تخلي صاحب الحانة عن عربته كان من العجلة في شيء. أحضرت العربة على الفور، وقدتها على الطريق، ثم تركتها في عهدة زوجتي والخادمة، وأسرعت إلى منزلي لإحضار القليل من الأشياء القيمة مثل الحلي النفيسة وغيرها. كانت أشجار الزان أسفل المنزل تحترق بينما أقوم بذلك، وتوهجت سياجات الشجيرات على الطريق باللون الأحمر. وبينما كنت مشغولًا هكذا، أتي أحد الفرسان الذين ترجلوا عن جيادهم مسرعًا. كان ينتقل من منزل لآخر يحذر الأهالي كي يرحلوا. كان يواصل سيره عندما خرجت من الباب الأمامي أحمل أمتعتي المربوطة في أحد فرش المائدة. صحت قائلًا: «ما الأخبار؟»

استدار الرجل، وحدق في، وصاح متحدثًا عن «الزحف للخارج داخل شيء يشبه غطاء الطبق»، ثم أسرع إلى بوابة المنزل الكائن فوق قمة التل. اختفى عن ناظري بفعل سحابة مفاجئة من الدخان الأسود اندفعت في الطريق. ركضت نحو باب جاري، وقرعته بغية التأكد مما كنت أعرفه بالفعل، وهو أن زوجته قد غادرت معه إلى لندن وأنهما أغلقا المنزل. دخلت المنزل ثانية لأفي بوعدي في إحضار صندوق الخادمة، وحملته، ثم ألقيت به إلى جوارها في مؤخرة العربة، وأمسكت الزمام، ثم قفزت إلى مكان السائق بجوار زوجتي. بعدها بقليل صرنا بمنأى عن الدخان والضوضاء منطلقين بسرعة إلى أسفل المنحدر المواجه لتل «مايبري» نحو «أولد ووكينج».

أمامنا كان المنظر مشمسًا تمامًا، ورأينا حقل قمح على جانبي الطريق، وحانة «مايبري» بلافتتها المتمايلة. رأيت عربة الطبيب أمامي. عند سفح التل، أدرت رأسي لأنظر إلى جانب التل الذي كنت أبتعد عنه. كانت خيوط كثيفة من الدخان الأسود ممزوجة بخيوط من النيران الحمراء تتصاعد في الهواء الساكن ملقية بظلال سوداء على قمم الأشجار الخضراء ناحية الشرق. امتدت خيوط الدخان بعيدًا ناحيتي الشرق والغرب؛ إلى غابات الصنوبر في «بايفليت» شرقًا، وإلى «ووكينج» غربًا. كان المكان مليئًا بأناس يركضون نحونا. سمعنا أزيز المدفع الذي كان ساكنًا آنذاك؛ كان صوتًا خافتًا للغاية وإن كان مميزًا جدًّا عبر الهواء الساخن الساكن، وسمعنا أيضًا الفرقعات المتقطعة للبنادق. من الواضح أن المريخيين يضرمون النيران في كل شيء يقع في نطاق الشعاع الحراري.

ولأني لست سائقًا محترفًا، فكان لا بد لي أن أدير انتباهي على الفور إلى الجواد. عندما نظرت مرة أخرى كان التل الثاني قد حجب الدخان الأسود. ضربت الجواد بالسوط، وأرخيت له العنان حتى أصبحت «ووكينج» و«سيند» تفصلان بيننا وبين تلك الجلبة العالية. أدركت الطبيب، وتجاوزته بين «ووكينج» و«سيند».

الفصل العاشر

وسط العاصفة

تبعد «ليذرهيد» مسافة اثني عشر ميلًا عن تل «مايبري». ملأت رائحة التبن الهواء عبر المروج الخصبة فيما وراء «بيرفورد»، وكانت السياجات النباتية على كلا الجانبين جذابة بهيجة بما فيها من أزهار كثيرة. توقف إطلاق النيران الذي اندلع عندما كنا نقود العربة نحو سفح تل «مايبري» فجأة مثلما بدأ، تاركًا الليل ساكنًا وهادئًا تمامًا. وصلنا لندن نحو الساعة التاسعة دون أن يصيبنا مكروه، ونال الجواد قسطًا من الراحة مدة ساعة بينما تناولت العشاء مع أبناء عمي وأوصيتهم خيرًا بزوجتي.

كانت زوجتي صامتة على نحو غريب أثناء رحلتنا إلى «ليذرهيد»، وبدت قلقة مما ينتابها من هواجس. تحدثت إليها بغية طمأنتها قائلًا إن المريخيين لن يبرحوا الحفرة بسبب أوزانهم الثقيلة، وعلى أسوأ تقدير سوف يزحفون بعيدًا عن الحفرة بمسافة قصيرة، لكنها لم تجبني إلا بكلمات معدودة. وأظن أنه لولا وعدي الذي قطعته لمالك الحانة، لكانت أصرَّت على بقائي في «ليذرهيد» تلك الليلة. ويا ليتني كنت قد بقيت! أذكر أن وجهها كان شاحبًا تمامًا وكلانا يودع الآخر.

من جانبي كنت أشعر بانفعال شديد طوال اليوم. سار في عروقي شعور أشبه ما يكون بحماسة الحرب التي تجتاح المجتمعات المتقدمة من حين لآخر، وفي داخلي لم أكن مستاءً تمامًا من اضطراري للعودة إلى «مايبري» تلك الليلة. بل إني خشيت أن يكون ذلك السيل من الطلقات النارية التي سمعتها قد أباد الغزاة القادمين من المريخ. أفضل تعبير عن حالتي هو أنني كنت أرغب في الاشتراك في تلك الحرب.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة عندما هممت بالعودة. كان الليل حالك السواد على نحو غير متوقع؛ فخروجي من الرواق المضيء في منزل ابن عمي جعل الجو يبدو لي مظلمًا حقًّا، وكان الليل حارًّا عزَّ هواؤه تمامًا مثلما كان النهار. في السماء كانت

السحب تجري مسرعة مع أنه لم تكن هناك نسمة هواء تحرك الشجيرات من حولي. أضاء خادم أبناء عمي مصباحين. ومن حسن الحظ أني كنت أحفظ الطريق جيدًا. وقفت زوجتي في ضوء مدخل المنزل، وظلت تراقبني حتى قفزتُ إلى داخل العربة. عندها استدارت فجأة ودلفت إلى المنزل تاركة أبناء عمي يتمنون لي حظًّا موفقًا.

انقبض صدري قليلًا كأن عدْوَى خوف زوجتي قد انتقلت إليّ، لكن سرعان ما تحولت أفكاري إلى المريخيين. في ذلك الوقت كنت أجهل تمامًا المسار الذي اتخذه القتال الذي اندلع تلك الليلة. بل إني لم أكن أعرف الملابسات التي أثارت هذا القتال. وبينما كنت أمر على «أوكهام» (لأنني عدت من هذا الطريق، وليس من طريق «سيند» و«أولد ووكينج»)، رأيت في الأفق الغربي وهجًا أحمر قانيًا كان يملأ السماء ببطء كلما اقتربت. اختلطت سحب العاصفة الرعدية الوشيكة بكتل من الدخان الأسود والأحمر.

كان شارع «ريبلي» خاليًا، وباستثناء نافذة أو اثنتين مضيئتين، لم تُبْد المدينة أثرًا للحياة، لكني نجوت بشق الأنفس من حادث في زاوية الطريق إلى «بيرفورد» حيث كان مجموعة من الأشخاص يقفون وظهورهم إليّ. لم يقل أحدهم شيئًا أثناء مروري بجوارهم. لا أعرف ما لديهم من أخبار عما كان يحدث فيما وراء التل، ولا أعرف هل كان سكان المنازل الساكنة التي مررت بها في طريقي نائمين في أمان، أم أنهم هجروها وتركوها خاوية على عروشها، أم كانوا منزعجين يراقبون أهوال تلك الليلة.

من شارع «ريبلي» إلى أن وصلت «بيرفورد» كنت أمر بوادي «واي»، وكان الوهج الأحمر محجوبًا عني. لكن ما إن صعدت التل الصغير الذي يلي كنيسة «بيرفورد»، حتى ظهر الوهج مرة أخرى، واهتزت الأشجار من حولي مع أول إنذار للعاصفة التي كانت تدنو مني. ثم سمعت رنين جرس منتصف الليل من كنيسة «بيرفورد» خلفي، وبعدها ظهر خيال تل «مايبري» حيث قمم أشجاره وأسقف منازله سوداء محددة المعالم وسط الحمرة.

وبينما كنت أبصر ذلك، أضاء وهج أخضر متوقد الطريق من حولي وأظهر الأشجار البعيدة باتجاه «أديلستون». شعرت بانجذاب الزمام بقوة. ورأيت أن السحب الجارية قد اخترقها خيط من النيران الخضراء أضاءها فجأة، ثم سقط في الحقل إلى يساري. كان ذلك هو النجم الساقط الثالث!

على مقربة منه، وبلون بنفسجي واضح على النقيض، تراقص البرق الأول للعاصفة الوشيكة، وانطلق الرعد كالصاروخ في السماء. جمح الجواد وفر بأقصى سرعته.

تحركنا على طول منحدر متوسط الانحدار باتجاه سفح تل «مايبري». ما إن بدأ البرق حتى استمر في صورة ومضات متلاحقة سريعة لم أرها من قبل قط. كان صوت هزيم الرعد — الذي يدوي مرة تلو الأخرى مصحوبًا بصوت فرقعة غريب — أقرب لصوت آلة كهربائية عملاقة أكثر منه لأصداء الصوت المألوفة للانفجارات. كان الضوء المتلألئ قويًّا مربكًا، وتساقط المطر على وجهي فجأة أثناء نزولي التل.

في البداية لم أشاهد شيئًا سوى الطريق أمامي، وفجأة جذب اهتمامي شيء كان يتحرك بسرعة متجهًا نحو قاعدة المنحدر المقابل لتل «مايبري». في البداية ظننته السقف المبتل لأحد المنازل، لكن وهجًا بعد وهج أوضح أنه يتحرك حركة دائرية سريعة. كانت الرؤية صعبة … مرت دقيقة من الظلام المربك، وبعدها — وسط وميض أشبه بضوء النهار — صارت الكتل الحمراء لدار الأيتام القريبة من قمة التل، وقمم أشجار الصنوبر الخضراء، وذلك الشيء المريب كلها واضحة ومحددة وبراقة.

ذلك «الشيء» الذي رأيته! كيف لي أن أصفه؟ حامل ضخم ثلاثي القوائم أكثر ارتفاعًا من العديد من المنازل، يخطو خطوات واسعة فوق أشجار الصنوبر الصغيرة ويسحقها أثناء ذلك؛ محرك متحرك من معدن متلألئ يخطو خطوات واسعة الآن عبر المرج، وحبال واضحة من الفولاذ تتدلى منه، ويمتزج الضجيج الذي يُحدثه أثناء مروره مع هزيم الرعد. مع اندلاع إحدى الومضات، ظهر ذلك الشيء بوضوح يتمايل في اتجاه واحد وقدماه في الهواء ليختفي ثم يكاد يعاود الظهور في الحال مع الومضة التالية، وقد اقترب نحو مائة متر. أيمكنك أن تتخيل كرسيًّا ثلاثي القوائم يتمايل ويتحرك مسرعًا فوق الأرض؟ كان هذا هو الانطباع الذي وصلني من خلال تلك الومضات اللحظية. لكن بدلًا من الكرسي ثلاثي القوائم، تخيل أنه هيكل ضخم لآلة تنتصب على حامل ثلاثي القوائم.

بعدها وعلى حين غرة بدأت الأشجار في غابة الصنوبر أمامي يتباعد بعضها عن بعض كسيقان الخيزران الجاف عندما يتحرك بشر بينها؛ كانت الأشجار تنكسر وتُدفع بعيدًا، ثم ظهر ثلاثي قوائم ضخم ثانٍ مندفعًا — مثلما بدا لي — باتجاهي، وكأني كنت أعدو بسرعة كي ألتقيه! عندما رأيت ذلك الوحش الثاني، لم يعد لدي مثقال ذرة من شجاعة. لم أتوقف لألقي نظرة ثانية، وإنما سحبت رأس الجواد بقوة إلى اليمين وبسرعة مالت العربة فوق الحصان، وتحطم عمودا السرج محدثين صوتًا عاليًا، وطُرحت أنا جانبًا لأسقط بكل ثقلي في بركة مياه ضحلة.

زحفت خارج البركة على الفور، وجثمت على الأرض بينما لا تزال قدماي في الماء أسفل أجمة من الأشجار. رقد الحصان بلا حراك (إذ انكسر عنق الحيوان المسكين!) وعلى ضوء البرق رأيت الهيكل الأسود للعربة المقلوبة وظل العجلة التي ما زالت تدور ببطء. وفي لحظة أخرى خطت الآلة الضخمة خطوات واسعة بجواري، وشقت طريقها صعودًا على التل باتجاه «بيرفورد».

عندما رأيت ذلك الشيء من قريب، كان منظره غريبًا حقًّا، فلم يكن مجرد آلة معدومة الحس تتحرك. كانت آلة ذات خطوة مدوية رنانة، ومجسات لامعة طويلة مرنة (يقبض أحدها على شجرة صنوبر صغيرة) تتأرجح وتقعقع حول هيكلها الغريب. اختار ثلاثي القوائم طريقه وهو يخطو خطواته الواسعة إلى الأمام، وتحركت القلنسوة النحاسية التي تعلوه للأمام والخلف بما يوحي حتمًا بوجود رأس أسفل تلك القلنسوة. وخلف الجسم الرئيسي كانت توجد كتلة ضخمة من معدن أبيض تشبه سلة صيد سمك عملاقة، وانبعثت هبَّات من الدخان الأخضر من مفاصل الأطراف مع مرور ذلك الوحش بجواري. وفي لحظة اختفى.

كان هذا كل ما رأيته حينئذ؛ وجميعه لم يكن واضحًا بسبب ضوء البرق الذي كان يومض على نحو متقطع تتبعه الظلال السوداء القاتمة.

أثناء مرور ثلاثي القوائم، أصدر صوتًا جذلًا عاليًا غطَّى على صوت الرعد «ألوو! ألوو!» وفي دقيقة أخرى كان مع رفيقه على بعد نصف ميل ينحني فوق شيء ما في الحقل. كنت على يقين أن ذلك الشيء في الحقل كان الأسطوانة الثالثة من الأسطوانات العشر التي أطلقوها علينا من المريخ.

جلست برهة في مياه المطر وفي الظلام أشاهد — على الضوء المتقطع — تلك الكائنات المعدنية المخيفة وهي تتحرك من بعيد فوق قمم سياج الأشجار. تساقط مطر خفيف، ومع تساقطه وانقطاعه، زاد غموض ملامحهم ثم اتضحت مرة أخرى. وبين الحين والحين كان البرق يتوقف فيبتلعهم ظلام الليل.

أغرقتني مياه الأمطار من فوقي ومياه البركة من تحتي. مر بعض الوقت قبل أن تمكنني دهشتي البالغة من أن أبذل جهدًا في الانتقال إلى مكان أكثر جفافًا أو التفكير في الخطر الوشيك الذي يحيق بي.

على مسافة ليست بعيدة عني رأيت كوخًا خشبيًّا صغيرًا من حجرة واحدة تحيط به رقعة مزروعة بثمار البطاطس. استطعت النهوض أخيرًا، وفررت من المكان جاثمًا

على الأرض مستغلًّا أي شيء أختفي خلفه. قرعت الباب، لكن لم يكن صوت طرقاتي ليَسمَعه أهل المكان (إن كان به أحد)، وبعد فترة توقفت، ونجحت — بمساعدة خندق طوال الجزء الأكبر من الطريق — في التقدم تجاه «مايبري» شيئًا فشيئًا من دون أن تلاحظني تلك الآلات المتوحشة في غابة الصنوبر.

تقدمت للأمام مختفيًا خلف الأشجار نحو منزلي، وكنت وقتها مبتلًّا أرتجف. سرت بين الأشجار محاولًا الوصول إلى الرصيف. كان الجو حالك الظلمة في الغابة، إذ صار البرق يحدث على فترات متباعدة، وأصبح المطر الذي كان ينهمر بغزارة يتساقط صفوفًا عبر الفجوات بين أوراق الأشجار الكثيفة.

لو أني أدركت جيدًا ما تعنيه كل تلك الأشياء التي رأيتها، لكنت استدرت على الفور عبر «بايفليت» إلى شارع «تشوبهام»، وعدت للحاق بزوجتي في «ليذرهيد». لكن غرابة الأشياء من حولي تلك الليلة وحالتي الجسدية المزرية منعاني، إذ كنت مصابًا بالكدمات ومتعبًا ومبتلًّا من رأسي حتى أخمص قدمي وكأن العاصفة أصمَّتني وأعمتني.

خُيِّل إلي أنه من الصواب أن أتقدم نحو منزلي، وكان ذلك محركًا لي. ترنحت وسط الأشجار، وسقطت في حفرة وأصيبت ركبتي بكدمة إثر اصطدامها بلوح خشبي، وأخيرًا خضت في ماء الممر الضيق القادم من «كوليدج آرمز». أقول خضت لأن مياه العاصفة كانت تدفع الرمال نحو أسفل التل في سيل موحل. وهناك في الظلام اصطدم بي رجل مما جعلني أترنح إلى الوراء.

صرخ الرجل صرخة مفزعة، وتحرك بسرعة جانبًا، ثم اندفع إلى الأمام قبل أن أستعيد توازني بما يكفي لأن أتحدث إليه. كان أثر العاصفة قويًّا جدًّا في ذلك المكان، حتى إني بذلت جهدًا مضنيًا كي أشق طريقي صعودًا إلى التل. سرت بجوار السور على اليسار، وتقدمت في طريقي بمحاذاة السياجات.

بالقرب من القمة تعثرت في شيء ناعم، وعلى ضوء إحدى ومضات البرق رأيت بين قدميَّ كومة من الجوخ الأسود وزوجًا من الأحذية. وقبل أن أميز بوضوح كيف يرقد الرجل، انقضت ومضة الضوء. وقفت بجواره منتظرًا الومضة الثانية. وعندما حدثت، رأيت رجلًا قوي البنيان يرتدي ملابس زهيدة وإن لم تكن رثَّة؛ رأسه محنٍ أسفل جسده، ويرقد منكمشًا على نفسه بجوار السور وكأنه قد قُذِف نحوه بعنف.

عندما تغلبت على الاشمئزاز الذي عادة ما يصيب المرء عندما يلمس جثة للمرة الأولى، توقفت وقلبته لأتحقق من نبضه. كان ميتًا، ومن الواضح أن عنقه كان مكسورًا. نهضت واقفًا. كان الرجل هو مالك حانة «سبوتيد دوج» الذي أخذت عربته.

خطوت فوقه بحذر، وواصلت السير صعودًا إلى التل. مررت بقسم الشرطة ومبنى «كوليدج آرمز» متجهًا إلى منزلي. لم يكن ثمة شيء مشتعل على جانب التل بالرغم من أن وهجًا أحمر ودخانًا أحمر متموجًا كانا لا يزالان ينبعثان من المرعى وسط الأمطار الغزيرة. كانت المنازل من حولي — على مدى رؤيتي على نور الومضات — بحالة سليمة بوجه عام. وبجوار «كوليدج آرمز» كانت هناك كومة سوداء تقبع في الطريق.

على طول الطريق باتجاه جسر «مايبري»، سمعت أصواتًا ووقع أقدام، لكن لم تكن لدي الشجاعة لأن أصيح أو أذهب إليها. فتحت باب المنزل، ودخلت، ثم أغلقته وأوصدته بالمزلاج، وسرت مترنحًا إلى قاعدة الدَّرَج، ثم جلست. كان خيالي مشغولًا عن آخره بتلك الوحوش المعدنية التي كانت تذرع المكان ذرعًا، وبتلك الجثة المهشمة بجوار السور.

جثمت على الأرض عند قاعدة الدَّرَج وظهري إلى الحائط أرتجف ارتجافًا.

الفصل الحادي عشر

في النافذة

سبق أن ذكرت أن نوبات انفعالي عادةً تستنزف نفسها. بعد فترة اكتشفت أني أشعر بالبرد وأني مبتلٌّ وحولي تجمعات صغيرة من المياه فوق بساط الدَّرَج. وقفت من دون تفكير تقريبًا، ودخلت غرفة الطعام، وتناولت بعض الجعة، ثم تحركت لأبدِّل ملابسي.

عندما انتهيت من ذلك، صعدت الطابق العلوي إلى غرفة مكتبي، لكني لا أعرف لماذا أقدمت على ذلك. تطل نافذة مكتبي على الأشجار والسكة الحديدية باتجاه مرعى «هورسيل». كنت قد تركت هذه النافذة مفتوحة عندما كنا نسرع بالرحيل. كان الرواق مظلمًا، وبدا جانب الغرفة — على النقيض من الصورة التي يحدُّها إطار النافذة — حالك الظلمة. توقفتُ فجأة عند الباب.

توقفتْ العاصفة الرعدية. اختفت أبراج «أورينتال كوليدج» وأشجار الصنوبر من حولها، وعلى مسافة بعيدة جدًّا، رأيت المرعى حول حفر الرمال مضاءً بوهج أحمر متقد. وفي هذا الضوء تحركت هياكل سوداء ضخمة غريبة الشكل في انشغال جيئة وذهابًا.

بدت المدينة بأسرها في ذلك الاتجاه مشتعلة ... جانب فسيح من التل مشتعل بألسنة لهب صغيرة تهتز وتتلوى مع هبات رياح العاصفة التي كانت في طريقها للزوال، وتلقي بانعكاس أحمر على السحب الصغيرة في السماء. وبين الحين والحين تمر سحابة من الدخان المنبعث من إحدى الحرائق القريبة أمام النافذة فتحجب هياكل المريخيين. لم أتمكن من رؤية ما يفعلون أو أتحقق من هيئاتهم بوضوح أو من الأشياء السوداء التي كانوا مشغولين بالعمل عليها. أيضًا لم أستطع رؤية النيران القريبة مع أن انعكاساتها تراقصت على جدار غرفة المكتب وسقفها. امتلأ الهواء برائحة حريق راتنجية حادة.

أغلقت الباب دون أن أُحدث صوتًا، وتسللت صوب النافذة. ومع اقترابي، امتد نطاق الرؤية حتى وصل إلى المنازل المحيطة بمحطة «ووكينج» من جانب، وإلى غابات

الصنوبر المسودَّة والمحترقة بجوار «بايفليت» من الجانب الآخر. كان ثمة ضوء أسفل التل فوق السكة الحديدية بالقرب من القنطرة، والعديد من المنازل على طول طريق «مايبري» والشوارع القريبة من المحطة كانت حطامًا متوهجًا. أثار الضوء على شريط السكة الحديدية حيرتي في البداية؛ إذ كانت هناك كومة سوداء ووهج واضح، وإلى يمينها صف مستطيلات صفراء. ثم أدركت أنه قطار لحق به الدمار حيث تحطمت مقدمة القطار ونشبت فيها النيران، في حين لا تزال العربات الخلفية على القضبان.

بين تلك المراكز الثلاثة الرئيسية للضوء — المنازل والقطار والمقاطعة المحترقة باتجاه «تشوبهام» — امتدت بقع غير منتظمة من المدينة المظلمة تتخللها هنا وهناك مناطق يضيئها وهج خافت وينبعث منها الدخان. كان ذلك أغرب مشهد وقعت عليه عيناي؛ ذلك الامتداد المظلم المشتعل بالنيران. ذكرني هذا — أكثر من أي شيء آخر — بمصانع الخزف ليلًا. في البداية لم أستطع تمييز أي شخص على الإطلاق، مع أني حدقت النظر جيدًا لعلِّي أرى أحدًا. فيما بعد رأيت على ضوء محطة «ووكينج» عددًا من هياكل سوداء تركض واحدًا بعد آخر على طول القضبان.

ها هو ذا العالم الصغير الذي عشت فيه سنوات في أمان؛ لقد تحوَّل إلى فوضى محمومة. لا أعرف حتى الآن ماذا حدث في الساعات السبع الأخيرة، ولم أكن أعرف أيضًا — مع أني كنت قد بدأت أخمن — العلاقة بين هؤلاء العمالقة الآليين وبين الأجسام المتثاقلة التي رأيتها تخرج من الأسطوانة. ووسط شعور غريب بالاهتمام الموضوعي أدرت كرسي المكتب إلى النافذة وجلست أحدق النظر في البلدة المظلمة وتحديدًا في الأشياء السوداء الثلاثة العملاقة التي كانت تذرع المكان جيئة وذهابًا على ضوء الوهج المحيط بحفر الرمال.

بدوا مشغولين على نحو يبعث على العجب. بدأت أتساءل ماذا يمكن أن يكونوا. أهم آلات ذكية؟ شعرت أن ذاك ضرب من ضروب المستحيل. هل يوجد مريخي داخل كل آلة يديرها ويوجهها ويستخدمها مثلما يوجد مخ الإنسان داخل جسمه متحكمًا فيه؟ بدأت أعقد مقارنة بين تلك الأشياء وبين آلات البشر، وللمرة الأولى في حياتي تساءلت كيف يبدو هيكل مدرع أو محرك بخاري في نظر حيوان ذكي أدنى مرتبة من البشر.

جعلت العاصفةُ السماءَ صافية، وفوق الدخان المنبعث من الأرض المحترقة كانت النقطة الباهتة الصغيرة التي تمثل كوكب المريخ تتحرك ناحية الغرب، وهنا دخل أحد الجنود إلى حديقتي. سمعت صريرًا خافتًا عند السياج، وعندما تحررت من الخمول الذي

أصابني نظرت للأسفل ورأيته يتسلق السياج. ما إن رأيت إنسانًا غيري، حتى اختفى فتوري، وأطللت من النافذة متحمسًا.

قلتُ بصوت هامس: «يا صاح!»

وقف وساقاه منفرجتان على السور وقد تملكته الريبة. ثم تقدم، وعبر الحديقة حتى وصل إلى زاوية المنزل. انحنى ثم خطا في هدوء.

قال بصوت هامس هو الآخر وهو يقف أسفل النافذة وينظر إلى أعلى: «من هناك؟»

سألته: «إلى أين أنت ذاهب؟»

– «لا أدري.»

– «أتحاول الاختباء؟»

– «أجل.»

قلت: «تعالَ إلى منزلي.»

نزلت إلى الطابق السفلي، وفتحت الباب، وأدخلته، ثم أغلقت الباب ثانية. لم أستطع رؤية وجهه. لم يكن يرتدي قبعة، وكان معطفه مفكوك الأزرار.

قال وأنا أرافقه للداخل: «يا إلهي!»

سألته: «ما الذي حدث؟»

– «بل اسأل عن الذي لم يحدث؟» لاحظت وسط الظلام أنه أومأ إيماءة يأس. «لقد أبادونا؛ أبادونا تمامًا.» وكرر قوله مرات ومرات.

تبعني — على نحو كاد يكون تلقائيًّا — إلى غرفة الطعام.

قلت وأنا أصب شرابًا قوي الأثر: «أتريد بعض الجعة؟»

تناول الشراب، ثم جلس فجأة أمام الطاولة، ووضع رأسه على ذراعيه، وبدأ يبكي وينتحب وقد أطلق لمشاعره العنان كأنه طفل صغير، في حين وقفت أنا — وسط نسيان غريب لحالة اليأس التي كنت أشعر بها منذ قليل — بجواره متحيرًا.

مر وقت طويل قبل أن يتمالك أعصابه بما يتيح له الإجابة عن تساؤلاتي، ثم أجابني في ارتباك ووهن. الرجل هو سائق في سلاح المدفعية، ولم ينضم للقتال إلا في الساعة السابعة. في ذلك الوقت كان إطلاق النيران قائمًا في المرعى، وقيل إن المجموعة الأولى من المريخيين كانت تتقدم ببطء نحو أسطوانتهم الثانية محتمين بدرع معدني.

بعدها ترنح ذلك الدرع فوق حامل ثلاثي القوائم، وتحول إلى أول آلة قتال أراها. كان المدفع الذي يقوده ذلك الجندي جاهزًا للعمل بالقرب من «هورسيل» بهدف حماية

حفر الرمال، وكان وصوله سببًا في التعجيل بالقتال. أثناء تحرك جنود المدفعية إلى الخلف، خطا جواده فوق أحد فخاخ الأرانب وسقط طارحًا إياه فوق منخفَض. في اللحظة ذاتها انفجر المدفع، وانفجرت الذخيرة، وأحاطت به النيران من كل جانب، وأخيرًا وجد نفسه ممددًا أسفل كومة من جثث الرجال والجياد المحترقة.

قال: «رقدت بلا حراك. كنت مذعورًا إلى حدٍّ شُلَّ معه تفكيري، وفوقي الجزء الأمامي لأحد الخيول. لقد هُزمنا. ويا لتلك الرائحة ... يا إلهي! أشبه برائحة اللحم المحترق! تعرضت لإصابة في ظهري إثر سقوط الجواد، واضطررت للبقاء ممددًا حتى شعرت بتحسن. كنا نشكل موكبًا عسكريًّا قبل دقيقة؛ ثم حدث التعثر، والانفجار!»

أضاف: «وهُزمنا!»

اختفى أسفل الحصان الميت وقتًا طويلًا يسترق النظر في أرجاء المرعى. حاول الفرسان الهجوم على الحفرة، عن طريق بعض المناوشات، لكن قُضي عليهم تمامًا. بعدها وقف الوحش وبدأ يسير على مهل جيئة وذهابًا في المكان بين الفارين القلائل وقلنسوته الشبيهة بالرأس تتحرك تمامًا كرأس إنسان يرتدي قلنسوة. حمل شيء أشبه بالذراع صندوقًا معدنيًّا متشابك الأجزاء تنطلق من حوله ومضات خضراء، ومن القُمع انبعث الشعاع الحراري.

في غضون بضع دقائق — على قدر ما استطاع الجندي أن يرى — لم يبق شيء على قيد الحياة فوق أرض المرعى، واشتعلت النيران في كل الشجيرات والأشجار التي لم تكن قد تفحمت من قبل. كان الفرسان على الطريق بعد المنعطف، لذا لم ير أحدًا منهم. سمع المريخيين يقعقعون بعض الوقت قبل أن تهدأ أصواتهم. ترك العملاق محطة «ووكينج» والمنازل المحيطة إلى النهاية، ثم استُخدم الشعاع الحراري، وتحولت المدينة بأسرها إلى كومة من الأنقاض الملتهبة. بعدها أطفأ ذلك الشيء الشعاع الحراري، وأدار ظهره للمدفعي، ثم بدأ يتهادى نحو غابة الصنوبر التي تحترق والتي تأوي الأسطوانة الثانية. وفي تلك الأثناء كوَّن عملاق آخر من داخل الحفرة نفسه.

لحق الوحش الثاني بالأول، وعندها بدأ المدفعي يتحرك بحذر شديد فوق رماد المرج متجهًا إلى «هورسيل». استطاع البقاء على قيد الحياة داخل الحفرة بجانب الطريق، وهكذا فرَّ إلى «ووكينج». حينئذ أصبحت روايته سريعة متلاحقة. لم يكن عبور المكان سهلًا. بدا أن هناك بضعة أشخاص أحياء هناك؛ كانوا مذعورين في الأغلب وكان الكثيرون محروقين. حاد عن طريقه بسبب النيران، واختبأ بين أكوام كادت تكون محترقة لأحد

الجدران المحطمة أثناء عودة أحد العمالقة المريخيين. شاهد المدفعي هذا العملاق وهو يتتبع رجلًا، ويمسكه بأحد مجساته الفولاذية، ويضرب رأسه في جذع إحدى أشجار الصنوبر. وأخيرًا وبعد حلول الظلام، فر المدفعي بسرعة، واجتاز جسر السكة الحديدية.

ومنذ ذلك الحين وهو يسير منزعجًا نحو «مايبري» على أمل الخلاص من الخطر بالتوجه نحو لندن. كان الناس يختبئون في الخنادق والقباء، وفر معظم الناجين مسرعين نحو «ووكينج» و«سيند». كان الظمأ قد بلغ منه كل مبلغ إلى أن وجد أنبوب مياه مكسورًا قرب قنطرة السكة الحديدية والمياه تتدفق خارجه كينبوع على الطريق.

تلك هي القصة كما عرفتها منه شيئًا فشيئًا. صار أكثر هدوءًا وهو يحكي لي ويحاول أن يجعلني أرى الأشياء التي رآها. كان قد أخبرني في بداية روايته أنه لم يتناول شيئًا منذ أن انتصف النهار. وجدت بعضًا من لحم الضأن والخبز في المطبخ، فأحضرتهما إلى الحجرة. لم نشعل المصباح خشية لفت انتباه المريخيين، وبين الحين والحين كانت أيادينا تتلامس فوق الخبز أو اللحم. أثناء حديثه، انقشع الظلام عن الأشياء من حولنا، وأصبحت الشجيرات المسحوقة وأشجار الزهور المكسورة في الخارج أكثر وضوحًا. بدا أن بعض الناس أو الحيوانات قد عبروا المرج بسرعة. بدأت أرى وجهه؛ مسودًّا وشاحبًا مثل وجهي لا شك.

عندما انتهينا من تناول الطعام صعدنا في هدوء إلى الطابق العلوي حيث غرفة مكتبي، ونظرت ثانية من النافذة المفتوحة. في ليلة واحدة أصبح الوادي رمادًا. كانت النيران قد خبت حينئذ. وحيثما كانت النيران مشتعلة من قبل، كان خيط من الدخان يتصاعد الآن، لكن الحطام الذي لا يحصى للمنازل المحطمة والمدمرة والأشجار المنسوفة والمسودَّة التي كان يخفيها الليل ظهرت الآن نحيلة مخيفة في ضوء الفجر القاسي. لكن هنا أو هناك كان يظهر شيء واتاه الحظ في النجاة من هذا الدمار؛ كإشارة سكة حديدية بيضاء أو طرف صوبة زراعية. لم يحدث من قبل في تاريخ الحروب أن كان الدمار شاملًا وعامًّا هكذا. وقف ثلاثة عمالقة معدنيين يلمعون في الضوء المتزايد القادم من الشرق بجوار الحفرة؛ تدور قلنسواتهم وكأنما يتفقدون الخراب الذي تسببوا فيه.

بدا لي أن اتساع الحفرة قد زاد عما كان عليه، وبين الحين والآخر كانت هبَّات من بخار شديد الخضرة تتصاعد منها نحو ضوء الفجر الآخذ في السطوع؛ تتصاعد وتدور وتنكسر ثم تختفي.

وعلى مسافة أبعد كانت أعمدة النيران تحيط بتشوبهام، وقد صارت أعمدة من الدخان الأحمر مع أول خيوط النهار.

الفصل الثاني عشر

ما رأيت من دمار في «وايبريدج» و«شيبرتون»

مع طلوع الفجر ابتعدنا عن النافذة التي كنا نشاهد المريخيين منها، ونزلنا إلى الطابق السفلي في هدوء شديد.

وافقني المدفعي أن المنزل ليس بالمكان الآمن. قال إنه يعتزم الذهاب باتجاه لندن، ومِن هناك يعاود الانضمام إلى سريته؛ التي تحمل الرقم (١٢) والتابعة لمدفعية الخيالة. كانت خطتي تقوم على العودة إلى «ليذرهيد»، ولكَمْ أثَّرت فيّ قوة المريخيين حتى إنني قررت اصطحاب زوجتي إلى «نيوهيفن»، وأن أغادر البلدة معها على الفور؛ لأني كنت قد أدركت بجلاء أن الريف حول لندن سيكون حتمًا مسرحًا لصراع وبيل قبل أن يتحقق القضاء على كائنات كهذه.

غير أن الأسطوانة الثالثة — والعمالقة الذين يقومون على حراستها — كانت تقبع في الطريق بيننا وبين «ليذرهيد». لو كنت بمفردي، أظن أني كنت سأجازف وأتوجه نحو البلدة، لكن المدفعي أثناني عن ذلك قائلًا: «لن تفعل معروفًا بزوجتك عندما تتركها أرملة.» وفي النهاية وافقت على الذهاب معه متخذين من الغابة غطاءً ومتجهين نحو الشمال حتى شارع «كوبهام» وهناك يفترق أحدنا عن الآخر. ومن هناك كنت سأسلك طريقًا منعطفًا طويلًا حول مدينة «إبسوم» كي أصل إلى «ليذرهيد».

كنت سأبدأ من فوري، لكن رفيقي كان في الخدمة العسكرية، وأفادني بما لديه من خبرة. جعلني أفتش المنزل بحثًا عن قارورة ملأها بالويكسي، وملأنا كل جيب متاح لدينا بعبوات من البسكويت وشرائح من اللحم. ثم تسللنا خارج المنزل، وعدونا بأقصى سرعة على طول الطريق الوعر الذي جئت عبره الليلة الماضية. بدت المنازل مهجورة، وفي الطريق رأينا ثلاث جثث محترقة قريبة بعضها من بعض بفعل الشعاع الحراري،

ورأينا أشياء سقطت من الناس هنا وهناك، كساعة أو خُف أو ملعقة فضية، وأشياء أخرى تضارعها في انخفاض القيمة. وفي الزاوية التي تؤدي إلى مكتب البريد، وقفت عربة جر صغيرة ممتلئة بصناديق وقطع أثاث وكانت بلا حصان ومائلة على إحدى عجلاتها المكسورة. كان أحد صناديق النقود مكسورًا في عجالة، وملقى أسفل الأنقاض.

وفيما عدا قاعة الاجتماعات التابعة لدار الأيتام — التي كانت لا تزال مضطرمة بالنيران — لم تتضرر المنازل هنا كثيرًا. مسَّ الشعاع الحراري قمم المداخن مسًّا عابرًا، ثم تجاوزها. لكن — باستثنائنا — لم يكن يبدو أن هناك كائنًا حيًّا فوق تل «مايبري». أظن أن غالبية السكان قد فروا عن طريق «أولد ووكينج» — ذلك الطريق الذي سلكته عندما قدت العربة نحو «ليذرهيد» — أو أنهم كانوا مختبئين.

نزلنا الممر — بجوار جثة الرجل أسود الثياب التي كانت مبللة حينئذ من أثر المطر الذي تساقط الليلة السابقة — وشققنا الطريق وسط الغابة عند سفح التل. قطعنا الطريق باتجاه السكة الحديدية دون أن نقابل أي شخص. لم تكن الأشجار على طول الطريق إلا حطامًا تالفًا مغطى بالسخام؛ هوت معظم الأشجار بوجه عام، لكن بعضها كان لا يزال قائمًا بجذوعه الرمادية القاتمة وأوراقه البنية الداكنة بدلًا من الخضراء.

على جانبنا لم تفعل النيران شيئًا أكثر من حرق الأشجار القريبة؛ إذ عجزت عن الانتشار في المكان. كان الحطَّابون يعملون يوم السبت في إحدى البقاع؛ فكانت الأشجار — المقطوعة والمشذَّبة حديثًا — موجودة في المكان وأكوام النشارة بجوار المنشار الكهربائي والمحرك الخاص به. وفي مكان قريب جدًّا كان ثمة كوخ مؤقت، وإن كان مهجورًا. لم يكن هناك أثر لنسمات الرياح ذلك الصباح، وخيم السكون على كل شيء خلافًا للعادة. حتى الطيور كانت ساكتة، وبينما كنا نجدُّ في السير تحدثت أنا والمدفعي بصوت خفيض، وبين الحين والحين كنا نتلفت خلفنا. وتوقفنا مرة أو مرتين نرهف السمع.

بعد حين اقتربنا من الطريق، وبينما كنا نفعل ذلك، سمعنا قعقعة حوافر، ورأينا من بين جذوع الأشجار الفرسان يمتطون الخيول بأناة نحو «ووكينج». ألقينا عليهم التحية، وتوقفوا بينما أسرعنا نحوهم. كانوا ملازمًا وعسكريين من فرقة الخيالة الثامنة، وكان معهم حامل يشبه جهاز قياس الزوايا أخبرني المدفعي أنه هليوجراف.

قال الملازم: «أنتما أول رجلين أراهما في هذا الطريق هذا الصباح. ما الأمر؟»

طغى الحماس على صوته ووجهه، بينما حدق الرجلان اللذان كانا يقفان خلفه وقد اعتراهما الفضول. وثب المدفعي من فوق منحدر في الطريق، وألقى التحية.

– «دُمِّر المدفع الليلة السابقة يا سيدي. كنت مختفيًا أحاول اللحاق بالسرية يا سيدي. أظن أنك سترى المريخيين على بعد نحو نصف ميل على هذا الطريق.»

سأل الملازم: «وكيف تبدو هيئتهم؟»

– «عمالقة يرتدون دروعًا معدنية يا سيدي، يبلغ طولهم نحو ثلاثين مترًا. لديهم ثلاثة أرجل وجسد يشبه الألومنيوم ورأس ضخم للغاية تغطيه قلنسوة يا سيدي.»

قال الملازم: «اغرب عن وجهي! ما هذا الهراء!»

– «سوف ترى يا سيدي. إنهم يحملون صندوقًا يطلق النار ويُردي من يصيبه قتيلًا يا سيدي.»

– «ماذا تعني ... مدفع؟»

أجاب المدفعي: «لا يا سيدي.» وشرع في تقديم وصف حي للشعاع الحراري. وفي منتصف حديثه قاطعه الملازم ونظر إليّ. كنت لا أزال واقفًا على المنحدر بجانب الطريق.

قلت: «ما يقوله صحيح تمامًا.»

قال الملازم: «حسنًا، أفترض أن من مهام عملي أن أرى ذلك أيضًا.» التفت إلى المدفعي وقال: «اسمع! نحن مكلفون هنا بإجلاء السكان عن منازلهم. من الأفضل أن تذهب، وتكشف عن هويتك للعميد مارفين، ثم تخبره بكل ما لديك. ستجده في «وايبريدج». هل تعرف الطريق؟»

قلت: «أنا أعرف.» ثم أدار جواده جهة الجنوب ثانية.

وقال: «قلتَ إنهم على بعد نصف ميل؟»

أجبتُ وأنا أشير إلى قمم الأشجار جهة الجنوب: «على أقصى تقدير.» شكرني، ثم امتطى جواده، ولم نرهم بعدها.

على مسافة أبعد قابلنا في الطريق مجموعة تضم ثلاث سيدات وطفلين مشغولين جميعًا بإخلاء كوخ أحد العمال. كانوا يمسكون بعربة صغيرة ذات عجلتين، ويملئونها بصُرَر متسخة وأثاث بالٍ. كانوا جميعًا منهمكين للغاية حتى إن أحدهم لم يتحدث إلينا أثناء مرورنا بهم.

بالقرب من محطة «بايفليت» خرجنا من بين أشجار الصنوبر ووجدنا البلدة آمنة مطمئنة في ضوء شمس الصباح. كنا بعيدين عن نطاق الشعاع الحراري، ولولا السكون الذي خيَّم على بعض المنازل المهجورة، والحركة المصاحبة لتعبئة الأمتعة في البعض الآخر، ومجموعة الجنود الذين يقفون على الجسر فوق السكة الحديدية ويحدقون في الطريق إلى «ووكينج»، لما اختلف ذلك اليوم عن غيره من أيام الآحاد.

كان العديد من عربات النقل والجر تتحرك محدثة صوت صرير على الطريق المؤدية إلى «أدلستون»، وعلى حين غرة رأينا من بوابة أحد الحقول — عبر امتداد مرج مستوٍ — ستة مدافع؛ قذيفة الواحد منها تزن نحو ستة كيلوجرامات تقف على مسافات متساوية متجهة نحو «ووكينج». وقف المدفعيون بجوار المدافع في وضع ترقب، وكانت عربات الذخيرة على مسافة متناسقة. كاد الرجال يقفون وكأنهم يخضعون للتفتيش.

قلت: «هذا جيد! ستصيب إحدى طلقاتهم الهدف على أي حال.»

تمهَّل المدفعي عند البوابة.

وقال: «عليَّ المواصلة.»

على مسافة أبعد نحو «وايبريدج» — فوق الجسر مباشرة — كان يقف عدد من الرجال مرتدين سترات عسكرية يبنون متراسًا، وخلفهم المزيد من المدافع.

قال المدفعي: «الأمر أشبه باستخدام الأقواس والسهام في مواجهة البرق؛ ذلك أنهم لم يروا الشعاع الحراري بعد.»

وقف الضباط الذين لم يكونوا مشغولين تمامًا، وأخذوا يحدقون من فوق قمم الأشجار جهة الجنوب، بينما يتوقف القائمون على أعمال الحفر بين الحين والحين ليحدقوا النظر في الاتجاه نفسه.

كانت «بايفليت» تعج بالاضطراب؛ الأهالي يحزمون أمتعتهم، ومجموعة من نحو عشرين من الفرسان — بعضهم مترجل والآخرون على صهوة جيادهم — يُجْلونهم عن المكان. جرى تحميل ثلاث أو أربع عربات حكومية سوداء — عليها شارات تتوسط دوائر بيضاء — وحافلة قديمة إلى جانب عربات أخرى في شارع البلدة. وكان هناك عشرات من الأشخاص معظمهم يرتدي أفضل ملابسه. واجه الجنود صعوبة بالغة في إقناعهم بخطورة الوضع الذي هم فيه. رأينا رفيقًا مسنًّا واهنًا معه صندوق كبير وعدد من أواني الزهور بها زهر الأوركيد يتجادل بلهجة غاضبة مع العريف الذي كان سيتركهم خلفه. توقفتُ، وأمسكت بذراعه.

قلت له وأنا أشير إلى قمم أشجار الصنوبر التي تحجب المريخيين: «أتعرف ماذا يوجد هناك؟»

قال وهو يلتفت: «ماذا؟ كنت أقول إنها أشياء قيِّمة.»

صِحت فيه: «الموت! الموت قادم! الموت!» وتركته يستوعب الأمر إن كان بوسعه ذلك، ثم أسرعت خلف المدفعي. وعند ناصية الشارع نظرت خلفي. تركه الجندي، وكان لا يزال واقفًا بجوار صندوقه، وأواني الأوركيد فوقه، وهو يحملق شاردًا في الأشجار.

لم يكن بوسع أحد في «وايبريدج» أن يخبرنا بمكان المقارّ التي سننتقل إليها؛ فالمكان بأسره شهد حالة من الاضطراب لم أرها من قبل في أي مدينة. انتشرت العربات في كل مكان؛ كان ذلك أغرب مزيج من الخيول ووسائل النقل. كان سكان المكان الجديرون بالاحترام — الرجال في السترات المخصصة لممارسة الجولف والتنزه في الزوارق، زوجاتهم متأنقات الملبس — ينقلون أمتعتهم، وبعض المتسكعين على ضفة النهر يقدمون يد العون في همَّة، والأطفال منفعلين بل كانوا بوجه عام مسرورين كثيرًا بذلك الاختلاف المذهل فيما اعتادوا عليه من روتين أيام الآحاد. في خضم هذا كله كان القسُّ المبجل يعقد بكل بسالة قداسًا في وقت مبكر، وكان صوت الجرس يعلو على أصوات الصخب السائدة.

جلست أنا والمدفعي على درَج سبيل مياه، وتناولنا وجبة معقولة مما أحضرناه معنا. كانت مجموعات من الجنود — ليسوا من الفرسان وإنما من حملة القذائف في ملابسهم البيضاء — يحذرون السكان كي يتحركوا الآن أو يلوذوا بأقبية منازلهم حالما يبدأ إطلاق القذائف. وأثناء عبورنا جسر السكة الحديدية رأينا أن حشدًا متزايدًا من الناس قد اجتمع داخل المحطة وحولها، وأن الرصيف المزدحم صار مكدسًا بالصناديق والأمتعة. توقفت حركة النقل العادية من أجل السماح بمرور القوات والمدافع إلى «تشيرتسي»، وسمعت أن قتالًا وحشيًّا قد وقع من أجل الحصول على أماكن في القطارات الخاصة التي بدأت العمل في ساعة متأخرة.

بقينا في «وايبريدج» حتى منتصف النهار، وفي تلك الساعة وجدنا أنفسنا في مكان بالقرب من هويس «شيبرتون» حيث يلتقي نهرا «واي» و«التيمز». قضينا بعض الوقت في مساعدة سيدتين مسنتين تنقلان أمتعتهما في عربة صغيرة. كان لنهر «واي» فتحة ثلاثية، وعند هذه النقطة كانت القوارب تُستأجر، وكانت هناك معديَّة عبر النهر. على جانب «شيبرتون» نُزُل ذو مرج أخضر، ومن ورائه ظهر برج كنيسة «شيبرتون» الذي حلت محله قمة مستدقة.

هنا وجدنا حشدًا من النازحين يسيطر عليهم الانفعال والضجيج. حتى الآن لم يكن الذعر قد دب بين الفارِّين، لكن عدد الأشخاص كان أكبر من أن تستوعبه القوارب الموجودة. جاء الناس يلهثون من ثِقل ما كانوا يحملونه؛ حتى إن زوجين كانا يحملان بابًا صغيرًا بينهما وعليه تراكمت أدواتهما المنزلية. أخبرنا رجل أنه ينوي محاولة الفرار عن طريق محطة «شيبرتون».

ملأ الصياح المكان، بل إن أحد الرجال كان يطلق النِّكات. يبدو أن الفكرة التي تكونت في أذهان الناس هنا أن المريخيين ليسوا سوى بشر مخيفين — قد يهاجمون

المدينة ويسلبونها — سيُقضى عليهم قطعًا في النهاية. بين الحين والحين كان الناس يحدقون قلقين عبر نهر «واي» في المروج باتجاه «تشيرتسي»، لكن كل شيء هناك كان ساكنًا.

عبر نهر «التيمز» وباستثناء الأماكن التي ترسو فيها السفن، كان كل شيء هادئًا على العكس تمامًا من الجانب المطل على مدينة «سَري». مضى الأشخاص الذين نزلوا من السفن بخطوات متثاقلة على الطريق. كانت المعديّة الكبيرة قد قامت برحلة للتو. وقف ثلاثة أو أربعة جنود فوق مرج النُّزُل يحدقون بإمعان في النازحين ويضحكون منهم دون أن يقدموا يد العون لهم. كان النُّزُل مغلقًا، لأنها كانت ساعات الحظر.

صاح مراكبي: «ما الأمر؟»، وصاح رجل بالقرب مني في كلب ينبح: «اخرس أيها الأحمق!» ثم انطلق الصوت مجددًا، ولكن هذه المرة من ناحية «تشيرتسي»؛ كان صوتًا مكتومًا ... صوت مدفع.

كانت تلك بداية القتال. وعلى الفور انضمت وحدات مستترة من سلاح المدفعية على الجانب الآخر من النهر على يميننا — مستترة بسبب الأشجار — وأخذت تطلق وابلًا من القذائف واحدة تلو الأخرى. صرخت إحدى السيدات. وقف الجميع مشدوهين من الاندلاع المفاجئ للمعركة التي كانت قريبة منا وإن كنا لا نرى منها شيئًا. لم نستطع رؤية أي شيء سوى المروج المستوية، والأبقار التي ترعى دون اكتراث لما يحدث حولها، وأشجار الصفصاف الفضية مقطوعة الأغصان الهامدة في ضوء الشمس الحارة.

قالت سيدة بجواري بنبرة يشوبها الارتياب: «الجنود سيوقفونهم.» تصاعدت غيمة من الضباب فوق قمم الأشجار.

فجأة رأينا موجة من الدخان فوق النهر على مسافة بعيدة؛ هبَّة من الدخان تأرجحت في الهواء ثم بقيت وقتًا، وفي الحال اهتزت الأرض تحت أقدامنا، ودوَّى انفجار هائل في الهواء ليحطم نافذتين أو ثلاث في المنازل القريبة ويتركنا في حالة من الذهول.

صاح رجل يرتدي قميصًا صوفيًّا أزرق اللون: «ها هم! هناك! هل ترونهم؟ هناك!»

وبسرعة ظهر أربعة مريخيين ذوي دروع مصفحة — واحدًا بعد واحد — على مسافة بعيدة من فوق الأشجار الصغيرة عبر المروج المستوية التي تمتد باتجاه «تشيرتسي»، وأخذوا يسيرون بخطوات واسعة سريعة نحو النهر. ظهروا في البداية في هيئة أجسام تغطيها قلنسوات وتسير في حركة دوارة بسرعة تشبه سرعة الطيور المحلِّقة.

بعدها تقدم مريخي خامس نحونا متخذًا طريقًا متعرجًا. لمعت أجسامهم المصفحة في الشمس وهم يندفعون إلى الأمام بسرعة فوق المدافع، وكلما اقتربوا زادت ضخامتهم.

رفع أحدهم في أقصى اليسار — أبعد واحد فيهم — صندوقًا كبيرًا عاليًا في الهواء، وصوَّب «الشعاع الحراري» الغريب والمخيف الذي سبق أن رأيته يوم الجمعة باتجاه «تشيرتسي»، وضرب المدينة.

عند رؤية تلك الكائنات الغريبة السريعة المخيفة، بدا لي لحظة أن الحشد القريب من حافة المياه قد أصيب بالذعر. لم أسمع صراخًا أو صياحًا، بل ساد الصمت. بعدها علا صوت غمغمة جشاء وحركة أقدام مصحوبة بتناثر المياه هنا وهناك. اختل توازن رجل — من فرط ذعره لم يستطع ترك الحقيبة التي كان يحملها على كتفه — وجعلني أترنح إثر ضربة تلقيتها من أحد جوانب حقيبته. دفعتني امرأة بيدها، وأسرعت متجاوزة إياي. استدرت مع اندفاع الناس، لكني لم أكن خائفًا إلى الحد الذي يمنعني من التفكير. كنت أفكر في الشعاع الحراري المرعب. النزول تحت المياه! ذاك هو الحل!

صحت دون أن يلتفت أحد إلي: «لننزل أسفل المياه!»

استدرت في الاتجاه الآخر، واندفعت نحو المريخي الذي كان يقترب منا، وهرولت على الشاطئ المفروش بالحصى ومنه إلى المياه على الفور. حذا آخرون حذوي. وثب عدد كبير من الأشخاص من مركبهم بينما كنت أمر مسرعًا بجوارهم. كانت الحجارة أسفل قدمي موحلة زلقة، وكان النهر ضحلًا للغاية حتى إني ركضت مسافة سبعة أمتار والمياه تصل بالكاد حتى خاصرتي. ومع ظهور المريخي في الهواء على بعد أقل من مائتي متر فقط، دفعت نفسي إلى الأمام أسفل سطح المياه. كانت قطرات الماء المتناثرة مع تقافز الناس من القوارب إلى النهر تشبه قصفات الرعد في أذني. كان الناس ينزلون بسرعة على جانبي النهر. لكن آلة المريخي لم تلتفت حينها لهؤلاء الذين يركضون في هذا الاتجاه أكثر من التفات أحد البشر لما يحصل من اضطراب في بيت نمل ضربه بقدمه. عندما رفعت رأسي فوق المياه — بعد شعوري بالاختناق — كانت قلنسوة المريخي موجهة نحو وحدات المدفعية التي لا تزال تطلق قذائفها عبر النهر، ومع تقدمه تدلى شيء لا بد وأنه كان مولِّد الشعاع الحراري.

في لحظة أخرى كان المريخي عند الضفة، وخاض نصف المسافة في الماء في خطوة واحدة. انثنت ركبتا قدميه الأماميتين عند الضفة الأخرى، وفي لحظة أخرى رفع نفسه منتصبًا بالقرب من قرية «شيبرتون». وعلى الفور انطلقت المدافع الستة — التي لم يكن لأحد على الضفة اليمنى علم بها والتي كانت مختفية بعيدًا عن أطراف تلك القرية — في آن واحد. ارتجف قلبي إثر ذلك الارتجاج المفاجئ القريب حيث لم يكن ثمة فاصل

بين الطلقتين الأخيرة والأولى. كان العملاق قد رفع الصندوق المولد للشعاع الحراري في الوقت الذي انفجرت فيه القذيفة الأولى فوق قلنسوته بنحو ستة أمتار.

صرخت صرخة ذهول. لم أر شيئًا من العمالقة المريخيين الأربعة الآخرين، ولم أفكر فيهم، لأن انتباهي كان مرتكزًا على الحادث الأقرب. في الوقت نفسه انفجرت قذيفتان أخريان في الهواء قرب الجسد في الوقت الذي التوت فيه القلنسوة لتستقبل القذيفة الرابعة دون أن يتمكن المريخي من تفاديها.

انفجرت القذيفة في وجه ذاك الشيء. نتأت القلنسوة، وتوهجت، ثم تحركت في حركة دائرية لتتجزأ إلى عدة قطع ممزقة من اللحم الأحمر والمعدن اللامع.

صحت بنبرة بين الصراخ والتهليل: «إصابة ناجحة!»

سمعت صيحات ترد عليّ من المحيطين بي في المياه. وكدت أقفز خارج المياه من فرط الابتهاج اللحظي.

ترنح العملاق مقطوع الرأس كما لو كان مخمورًا، لكنه لم يسقط أرضًا. استعاد توازنه بأعجوبة، وترنح مسرعًا فوق «شيبرتون» دون أن ينتبه لخطواته، والآلة التي تطلق الشعاع الحراري مرفوعة بلا حراك. ذُبح الكائن الحي — المريخي داخل القلنسوة — وتناثرت أشلاؤه في كل مكان، ولم يعد ذلك الشيء سوى جهاز معقد من المعدن يدور نحو هلاكه. تحرك بلا توجيه في خط مستقيم. اصطدم العملاق ببرج كنيسة «شيبرتون» فانهار البرج كأن آلة كبش قد دكَّته، ثم انحرف العملاق جانبًا، وتعثر، وانهار بقوة هائلة في النهر مختفيًا عن ناظري.

ضرب الهواء انفجار عنيف، واندفع سيل من المياه والبخار والطين والمعدن المتهشم عاليًا في السماء. عندما اصطدمت آلة الشعاع الحراري بالماء، انطلق منه بخار على الفور. وفي لحظة اندفعت موجة هائلة — أشبه بموجات المد العالية وإن كانت بالغة السخونة — حول المنعطف عكس اتجاه التيار. رأيت الناس يبذلون جهدًا من أجل الوصول إلى الشاطئ، ووصلتني أصوات صراخهم وصياحهم التي علت على الهياج والجلبة اللذين أسفر عنهما انهيار المريخي.

لم أكترث للحرارة هنيهة، ونسيت حاجتي الواضحة للحفاظ على نفسي. تحركت وسط المياه المتلاطمة، ودفعت جانبًا أحد الرجال في زي أسود في طريقي إلى أن استطعت رؤية المنعطف. تأرجحت ستة قوارب مهجورة بلا وجهة محددة وسط تلاطم الأمواج. ظهر المريخي المنهار في اتجاه التيار ممددًا وسط النهر، وأغلبه مغمور في المياه.

تدفقت سحب كثيفة من البخار من هذا الحطام، ومن خلال خيوط البخار التي تتحرك في دوامات سريعة، استطعت أن أرى — على نحو متقطع غير واضح — الأطراف العملاقة التي تتحرك بعنف وسط المياه وتقذف في أثناء ذلك قطرات ووابلًا من الطين والزبَد في الهواء. تأرجحت المجسَّات، وضربت المياه كأنها أذرع حية، ولولا العشوائية البائسة التي اتسمت بها تلك الحركات، لقلت إن كائنًا جريحًا كان يصارع من أجل البقاء وسط الأمواج. تدفقت كميات مهولة من سائل بني مائل للحمرة خارج الآلة على هيئة نفثات صاخبة.

تحول انتباهي عن ذلك المشهد المضطرب بفعل صرخة مدوية أشبه بما نطلق عليه صافرة الإنذار في مدننا الصناعية. نادى عليَّ رجل — تصل المياه حتى ركبتيه بالقرب من الطريق المحاذي لضفة النهر — بصوت خافت، وأشار. عندما نظرت إلى الخلف، رأيت المريخيين الآخرين يتقدمون بخطى واسعة على طول ضفة النهر من ناحية «تشيرتسي». انطلقت مدافع «شيبرتون» هذه المرة دون جدوى.

عندما رأيت ذلك، غطست أسفل سطح المياه في الحال، وتحركت بصعوبة بالغة — وأنا أكتم أنفاسي حتى أصبحت الحركة عذابًا — للأمام أسفل السطح قدر ما استطعت. كانت المياه هائجة من حولي، وكانت تزداد سخونة بسرعة.

عندما رفعت رأسي هنيهة لآخذ نفسًا وأبعد الشعر والمياه عن عيني، كان البخار يتصاعد على هيئة ضباب أبيض يتحرك في دوامة وقد أخفى المريخيين تمامًا في البداية. كاد الضجيج يصم الآذان. بعدها رأيتهم بلا وضوح في صورة أجسام رمادية ضخمة، بل إنها زادت تضخمًا بفعل الضباب. تجاوزوني، بينما خطا اثنان منهم فوق حطام رفيقهما مضطرب الحركة المكسو بالزبَد.

وقف الثالث والرابع بجواره في المياه؛ أحدهما على بعد نحو مائتي متر مني، والآخر باتجاه «لاليهام». لاحت مولدات الأشعة الحرارية عاليًا، وضربت الأشعة الصافرة هذا الاتجاه وذاك.

امتلأ الهواء بمزيج متضارب ومدوٍّ من الضوضاء؛ أصوات قعقعة المريخيين، وتحطم المنازل المنهارة، وهدير الأشجار والسياجات والسقائف التي تنشب فيها النيران، فضلًا عن أصوات فرقعة النيران. انطلق دخان أسود كثيف ليمتزج بالبخار المتصاعد من النهر، وحيثما تحرك الشعاع الحراري هنا وهناك فوق «وايبريدج»، ظهر أثره على هيئة ومضات بيضاء اللون متوهجة تتحول على الفور إلى ألسنة لهب دخانية متقدة. لا تزال

المنازل الأقرب سليمة — في انتظار مصيرها — مكسوة بالسواد شاحبة وسط البخار، بينما تتحرك ألسنة اللهب هنا وهناك خلفها.

وقفت نحو دقيقة هناك — والمياه التي كادت تغلي تصل حتى صدري — مصعوقًا مما أنا فيه، لا حيلة لي في الفرار. ووسط الدخان أمكنني رؤية الأشخاص الذين كانوا معي في النهر يندفعون خارج المياه ووسط الخيزران مثلما تهرع الضفادع الصغيرة وسط الأعشاب عندما يتقدم نحوها بشر، أو يركضون هنا وهناك في تخبط تام على الطريق المحاذي لضفة النهر.

فجأة تحركت ومضات الشعاع الحراري البيضاء مسرعة نحوي. انهارت المنازل عندما أصابها الشعاع الحراري، وانبعثت منها ألسنة اللهب، وتحولت الأشجار نيرانًا مصحوبة بجلبة مدوية. ومض الشعاع على امتداد الطريق المحاذي لضفة النهر ساحقًا الأشخاص الذين يركضون هنا وهناك، ووصل إلى حافة المياه على بعد أقل من خمسة عشر مترًا من المكان الذي كنت أقف فيه. انطلق الشعاع عبر النهر نحو «شيبرتون»، وارتفعت المياه في أعقابه قممًا تغلي يتوجها البخار. استدرت نحو الشاطئ.

في لحظة اندفعت الموجة الهائلة — التي كادت تصل نقطة الغليان — نحوي. صرخت بصوت عال، واحترقت، وأُصبت بعمى جزئي، وذقت الألم. سرت مترنحًا وسط المياه المتلاطمة الصافرة نحو الشاطئ. لو أن قدمي تعثرت لكُتبَت نهايتي حينها. سقطت على الأرض عاجزًا وأنا أرى المريخيين بوضوح فوق الممر الضيق المفروش بالحصى الممتد حتى زاوية التقاء نهري «واي» و«التيمز». كنت على يقين من أني سألقى حتفي.

تحضرني ذكرى ضبابية لقدم أحد المريخيين وهي تهبط على مسافة عدة أمتار من رأسي، ناثرة الحصى في كل حدب وصوب، ثم ارتفاعها مجددًا، ثم مرور فترة طويلة من الترقب، ثم المريخيين الأربعة وهم يحملون حطام رفيقهم بينهم تارة واضحي المعالم وأخرى مختفين وسط سحابة من الدخان يتقهقرون وقتًا بدا لي بلا نهاية عبر الفضاء الفسيح لكل من النهر والمرج. بعدها أدركت شيئًا فشيئًا أني نجوت بأعجوبة.

الفصل الثالث عشر

لقائي بالكاهن

بعد تلقي هذا الدرس المفاجئ حول قوة الأسلحة التي يستخدمها سكان كوكب الأرض، تراجع المريخيون إلى موقعهم الأصلي فوق مرعى «هورسيل»، وبسبب استعجالهم، وصعوبة تحركهم وهم يحملون حطام رفيقهم المهشم، لا شك أنهم لم ينتبهوا لأشياء كثيرة، ومنها ضحية شاردة بلا أهمية مثلي. ولو أنهم تركوا رفيقهم، وتقدموا على الفور، لما فصل بينهم وبين لندن في ذلك الوقت سوى بطاريات المدافع، ولوصلوا العاصمة لا ريب قبل أن تنتشر أخبار اقترابهم، ولكان وصولهم مفاجئًا ومفزعًا ومدمرًا كالزلزال الذي أتى على مدينة لشبونة قبل قرن مضى.

لكنهم لم يكونوا في عجالة من أمرهم. تتابعت الأسطوانات أسطوانة بعد أخرى في رحلتها من المريخ إلى الأرض؛ فكان التعزيز يصل كل أربع وعشرين ساعة. وفي غضون ذلك تحركت السلطات العسكرية والبحرية — التي صارت على وعي تام حينها بالقوة الهائلة التي يتمتع بها خصومهم — على قدم وساق. كل دقيقة كان مدفع جديد يتخذ موقعه، حتى إنه بحلول الغسق أصحبت كل أيكة أو صف من المنازل الريفية يخفي وراءه الفوهة السوداء المتحفزة لأحد المدافع. وعبر المنطقة المحترقة والمهجورة — البالغة في مجموعها نحو عشرين ميلًا مربعًا — التي تطوِّق المكان الذي خيَّم فيه المريخيون على مرعى «هورسيل»، وعبر القرى المحترقة والمدمرة وسط الأشجار الخضراء، وعبر البقايا السوداء التي يتصاعد منها الدخان والتي كانت غابة صنوبر قبل يوم واحد، تسلل المستطلعون ومعهم أجهزة الهليوجراف التي ستحذر المدفعيين على الفور من اقتراب المريخيين. لكن المريخيين الآن باتوا يدركون سيطرتنا على سلاح المدفعية وخطورة الاقتراب من البشر، ولم يجازف إنسان بالاقتراب في حدود ميل من أي أسطوانة، إلا وكلَّفه ذلك حياته.

بدا أن هؤلاء العمالقة قد قضوا الجزء الأول من فترة الظهيرة في التحرك جيئة وذهابًا ينقلون جميع الأشياء من الأسطوانتين الثانية والثالثة — الثانية في «أدلستون» والثالثة في «بيرفورد» — إلى حفرتهم الرئيسية في مرعى «هورسيل». فوق المرج المغطى بالسواد والمباني المدمرة التي امتدت في كل مكان، وقف أحد هؤلاء العمالقة كالحارس، بينما ترك البقية آلاتهم المقاتلة الضخمة ونزلوا الحفرة. ظلوا يعملون على قدم وساق حتى وقت متأخر من الليل، فكانت أعمدة الدخان الأخضر الكثيف المنبعثة من الحفرة تُرى من التلال التي تحيط «ميرّو»، بل قيل إنها كانت تُرى من «بانستيد» ومنخفضات «إبسوم».

وبينما كان المريخيون خلفي يعدون للهجمة التالية، ومن أمامي اجتمع البشر من أجل المعركة، شققت طريقي بجهد وعناء لا حد لهما وسط نيران «وايبريدج» المحترقة ودخانها نحو لندن.

رأيت قاربًا مهجورًا — صغيرًا وبعيدًا للغاية — ينجرف في اتجاه مجرى النهر. تخلصت من معظم ملابسي المبللة، وذهبت خلفه حتى لحقت به، وهكذا فررت من الدمار. لم يكن بالقارب مجدافان، فقررت الاعتماد على يدي المسفوعتين قدر استطاعتي نحو «هاليفورد» و«والتون»، واستغرقت وقتًا طويلًا للغاية، ولعلك تتفهم أني كنت أنظر خلفي دائمًا. لجأت إلى النهر، لأني ظننت أن المياه تمنحني أفضل فرص الهروب حال عودة هؤلاء العمالقة.

تحركت المياه الساخنة من أثر سقوط المريخي في اتجاه مجرى النهر معي، وقطعت قرابة ميل دون أن أرى أيًّا من الضفتين. لكنني في إحدى المرات رأيت صفًّا من هياكل سوداء تقطع المروج مسرعة من ناحية «وايبريدج». بدت «هاليفورد» مهجورة، في حين كانت النيران تشتعل في العديد من المنازل المواجهة للنهر. كان من الغريب أن أرى المكان هادئًا ومهجورًا هكذا أسفل السماء الزرقاء الساخنة حيث الدخان وخيوط اللهب الرفيعة تتصاعد وسط حرارة الظهيرة. لم أر من قبل قط منازل تحترق دون أن يصاحب ذلك تجمهر حشد كبير حولها. وعلى بعد مسافة صغيرة كان الخيزران الجاف على الضفة يتَّقد ويتصاعد منه الدخان، وصف من الحرائق المتجهة نحو البلدة يتحرك بثبات عبر ما كان في السابق حقلًا من التبن الجاف.

ظللت في المياه وقتًا طويلًا أتحرك ببطء وأنا أشعر بألم وإرهاق شديدين جراء العنف الذي تعرضت له، فضلًا عن الحرارة المرتفعة للمياه. ثم قهرتني مخاوفي ثانية، واستأنفت

تجديفي. سفعت الشمس ظهري العاري. وأخيرًا، عندما بدا لي الجسر في «والتون» عند المنعطف، تغلب انفعالي وإعيائي على مخاوفي، ونزلت على ضفة «ميدلسيكس»، وتمددت بين العشب الطويل وقد تملكني الإعياء المفرط. أظن أنها كانت الرابعة أو الخامسة. نهضت على الفور، وسرت نحو نصف ميل دون أن ألتقي أحدًا، ثم تمددت ثانية تحت ظل سياج من الشجيرات. أتذكر أني كنت أتحدث إلى نفسي في شرود أثناء ذلك الجهد الأخير. كنت ظمآنًا للغاية، وشعرت بندم شديد أني لم أشرب مياهًا أكثر. غريبٌ أني شعرت بالغضب من زوجتي؛ ليس بوسعي تفسير ذلك، لكن رغبتي الواهنة في الوصول إلى «ليذرهيد» أصابتني بقلق لا حد له.

لا أتذكر بوضوح وصول الكاهن؛ إذ كان النعاس قد غلبني على الأرجح. تنبهت إليه جالسًا وأكمام قميصه ملطخة بالسخام ووجهه الحليق مرفوع للأعلى يحدق في وميض خافت يتراقص في السماء. كانت السماء نمراء كما يُطلق عليها ... تملؤها صفوف وصفوف من السحب الباهتة المصبوغة بلون غروب منتصف الصيف.

اعتدلت في جلستي، ومع حفيف حركتي، نظر إليّ مسرعًا.

سألته على الفور: «ألديك ماء؟»

هز رأسه نفيًا.

قال: «منذ ساعة مضت وأنت تسأل عن الماء.»

خيَّم علينا الصمت هنيهة، كل منا يتفحص الآخر. يمكنني القول إنه وجدني غريبًا للغاية، عاريًا إلا من بنطالي وجوربيّ المشبعين بالماء، مسفوعًا، ووجهي وكتفاي يغطيهم السواد من أثر الدخان. كان وجهه واهنًا، وذقنه منحسرًا، وشعره المجعد — الذي كاد يكون أشقر — منسدلًا على جبينه، وعيناه واسعتين بلون أزرق فاتح يحدق النظر دون أن يرتسم على وجهه تعبير معين. تحدث من فوره وهو ينظر نظرة زائغة بعيدًا عني.

قال: «ماذا يعني ذلك؟ ماذا تعني تلك الأشياء؟»

حدقت في وجهه، ولم أحر جوابًا.

مد يدًا بيضاء نحيلة، وتحدث بنبرة تكاد تقترب من الشكاية: «لِمَ سُمح لتلك الأشياء؟ أي إثم اقترفنا؟ كنا قد انتهينا من صلاة الصبح، وكنت أسير في الطرقات لأصفي ذهني استعدادًا للظهيرة، وبعدها ... نيران، وزلزال، وموت! كأننا أصبحنا في مدينتي «سدوم» و«عمورة»! كل أعمالنا دُمرت؛ كل العمل ... مَن هؤلاء المريخيون؟»

أجبته وأنا أتنحنح: «من نحن؟»

قبض على ركبتيه، والتفت ينظر إلي مرة أخرى. ظل يحدق فيّ صامتًا نحو نصف دقيقة.

قال: «كنت أسير في الطريق لأصفي ذهني، وفجأة رأيت النيران والزلزال والموت!»

عاود الصمت، وذقنه تكاد تغوص بين ركبتيه.

ثم بدأ يلوح بيده.

«كل العمل ... جميع مدارس الآحاد ... ماذا اقترفنا ... ماذا اقترفت «وايبريدج»؟ ذهب كل شيء سدى ... هلك كل شيء. الكنيسة! أعدنا بناءها منذ ثلاث سنوات فقط. لحق بها الدمار! أبيدت من الوجود! لم كل هذا؟»

توقف مرة أخرى، ثم بدأ حديثه ثانية كأن مسًّا من الجنون أصابه.

صاح: «أخذ دخان حريقها يعلو ويعلو!»

توهجت عيناه، وأشار بإصبع هزيلة نحو «وايبريدج».

في ذلك الوقت كنت قد بدأت أكوِّن عنه رأيًا. لقد دفعت به المأساة المروعة التي شهدها — إذ كان واضحًا أنه نازح من «وايبريدج» — نحو حافة الجنون.

قلت بلهجة جادة: «هل نحن بعيدون عن «صنبري»؟»

سألني: «ماذا سنفعل؟ أهذه الكائنات منتشرة في كل مكان؟ هل مُنحت الأرض لهم؟»

– «هل نحن بعيدون عن «صنبري»؟»

– «لم أتولَّ منصبي رسميًّا سوى هذا الصباح ...»

قلت بهدوء: «الأوضاع تغيرت. لا بد أن تحافظ على رباطة جأشك. ما زال الأمل قائمًا.»

– «أمل!»

– «أجل. الكثير من الأمل ... برغم كل هذا الدمار!»

بدأت أوضح وجهة نظري بشأن موقفنا. استمع إلي في البداية، لكن مع مواصلتي للحديث، اختفى الاهتمام الذي ظهر في عينيه، وحلت محله نظرة التحديق السابقة، وتحولت نظرته عني.

قال مقاطعًا إياي: «لا بد أنها بداية النهاية. النهاية! يوم الرب العظيم! عندما يدعو البشرُ الجبالَ والصخور لتسقط عليهم وتخفيهم ... تخفيهم عن وجهه الجالس فوق العرش!»

بدأت أتفهم الموقف. أمسكت عن استخدام صوت العقل المجهد، ووقفت بصعوبة، ثم وضعت يدي على كتفه.

قلت: «تشجَّع يا رجل! أنت مذعور! ما جدوى الدين إذا تداعى عند النكبات؟ فكِّر فيما ألحقته الزلازل والفيضانات والحروب والبراكين من قبل ببني البشر! أتظن أن الرب قد استثنى «وايبريدج» من ذلك؟ الرب ليس وكيل تأمين.»

ظل صامتًا هنيهة.

سأل فجأة: «لكن كيف يمكننا الهرب؟ إنهم لا يُقهرون، وهم عديمو الرحمة.»

أجبته: «هم ليسوا هذا، وربما لا يكونون ذاك. كلما زاد بأسهم زادت حاجتنا للتعقل والحذر. أحدهم قُتل هناك قبل أقل من ثلاث ساعات.»

قال وهو يحدق فيَّ: «قُتل! كيف يمكن قتل مبعوثي الرب؟»

واصلت حديثي: «رأيت ذلك.» وأضفت: «صادف أننا تورطنا في الجزء الأصعب. هذا هو كل شيء.»

سألني فجأة: «ما هذا الوميض في السماء؟»

أخبرته أنه الهليوجراف يرسل إشارة ... تلك علامة على همة البشر ومساعدتهم في السماء.

قلت: «نحن في بؤرة الأحداث. ذلك الوميض في السماء ينذر باقتراب العاصفة. وهنالك، أظنهم المريخيين، وباتجاه لندن — حيث ترتفع التلال حول «ريتشموند» و«كينجستون» وتوفر الأشجار غطاءً — تقام المتاريس وتُنصب المدافع. عمَّا قريب سيأتي المريخيون من هذا الاتجاه مرة ثانية.»

وبينما كنت أتحدث وقف الكاهن، وأوقفني بإشارة منه.

قال: «استمع!»

ومن وراء التلال المنخفضة على الجانب الآخر من المياه جاء صدى الصوت غير الواضح للمدافع ولصراخ غريب بعيد، ثم خيم السكون على كل شيء. مرت خنفساء تئز فوق سياج الشجيرات وتجاوزتنا. وعلى ارتفاع ناحية الغرب، تدلى هلال القمر باهتًا وشاحبًا فوق الدخان المتصاعد من «وايبريدج» و«شيبرتون» وسخونة المغيب الذي لا يزال ساطعًا.

قلت: «من الأفضل لنا أن نسلك ذلك الطريق، نحو الشمال.»

الفصل الرابع عشر

في لندن

كان شقيقي الأصغر في لندن عندما نزل المريخيون في «ووكينج». كان طالب طبٍّ يستعد لامتحان وشيك، ولم يسمع شيئًا عن وصول المريخيين حتى صباح السبت. تضمنت صحف الصباح يوم السبت — إلى جانب مقالات خاصة مطولة عن كوكب المريخ وعن الحياة على سطح الكواكب وغيرها — برقية مختصرة مصاغة بعبارات غامضة، وربما كان إيجازها أكثر ما يلفت النظر فيها.

ذكر الخبر أن المريخيين — الذين أزعجهم اقتراب أحد الحشود — قتلوا عددًا من الأشخاص بمدفع سريع الطلقات. اختتمت البرقية بالكلمات: «على الرغم مما يبدو من هول المريخيين، فإنهم لم يبرحوا الحفرة التي سقطوا فيها، والواقع أنهم يبدون عاجزين عن ذلك. يرجع هذا على الأرجح إلى القوة النسبية لطاقة الجاذبية الأرضية.» وعن هذه الكلمات الأخيرة، استفاض كاتب المقال الرئيسي بلهجة مطمْئِنة.

لا شك أن جميع الطلاب في صف علم الأحياء — الذي ذهب إليه شقيقي ذلك اليوم — كانوا مهتمين للغاية، لكن لم تكن هناك أي أمارات على وجود إثارة غير عادية في الشوارع. ذكرت صحف المساء القليل من الأخبار تحت عناوين كتبت بخطوط عريضة. لم يكن هناك ما يقولونه باستثناء تحركات القوات حول المرعى، واحتراق غابات الصنوبر بين «ووكينج» و«وايبريدج»، وذلك حتى الساعة الثامنة. بعدها أعلنت صحيفة «سانت جيمسيس جازيت» حقيقة انقطاع الاتصالات التلغرافية. اعتُقد أن سبب ذلك هو سقوط أشجار صنوبر محترقة فوق شبكة الخطوط. لم يكن هناك المزيد من الأخبار عن القتال تلك الليلة؛ ليلة ذهابي إلى «ليذرهيد» وعودتي منها.

لم يشعر شقيقي بالقلق علينا، لأنه علم من الوصف الوارد في الصحف أن الأسطوانة سقطت على بعد ميلين من منزلي. كان قد عقد العزم على أن يزورني تلك الليلة حتى

يتمكن — على حد قوله — من رؤية تلك «الأشياء» قبل موتها. أرسل لي برقية — لم تصلني قط — نحو الساعة الرابعة، وقضى تلك الأمسية في إحدى قاعات الموسيقى.

ضربت عاصفة رعدية لندن أيضًا مساء السبت، ووصل شقيقي إلى «ووترلو» مستقلًّا إحدى سيارات الأجرة. وعلى الرصيف الذي يتحرك منه قطار المساء عادة، علم — بعد فترة من الانتظار — أن حادثًا حال دون وصول القطارات إلى «ووكينج» تلك الليلة. لم يتبين طبيعة ذلك الحادث؛ الواقع أن سلطات السكة الحديدية لم تكن على علم واضح بالأمر في ذلك الوقت. لم يكن هناك سوى أقل القليل من الاضطراب داخل المحطة؛ ذلك أن المسئولين — الذين لم يدركوا أن شيئًا آخر بخلاف العطل بين نقطة اتصال «بايفليت» و«ووكينج» قد حدث — كانوا يشغلون القطارات التي غالبًا ما تمر عبر «ووكينج» من طريق «فيرجينيا ووتر» أو «جيلدفورد». كانوا مشغولين بعمل الترتيبات اللازمة لتغيير مسار رحلات «ساوثامتون» و«بورتسميث سانداي ليج». ترصّد أحد مراسلي الصحف المسائية لشقيقي — الذي ظنه مدير حركة القطارات لما يحمله من شبه بسيط معه — وحاول إجراء حوار معه. قليلون من الأشخاص — باستثناء مسئولي السكة الحديدية — ربطوا تعطل حركة القطارات بالمريخيين.

قرأت — في وصف آخر للأحداث — أنه في صباح الأحد «اهتاجت لندن بأثرها من الأخبار الواردة من ووكينج». والحق أنه لم يكن هناك ما يبرر تلك العبارة المفرطة في المبالغة. الكثيرون من سكان لندن لم يسمعوا بأمر المريخيين حتى وقع ما وقع من ذعر صباح الاثنين. ومن سمعوا استغرقوا بعض الوقت ليستوعبوا كل تلك البرقيات التي صيغت في عجالة في صحف الأحد. غالبية السكان في لندن لا يقرءون صحف الأحد.

فضلًا عن ذلك فإن عادة الطمأنينة الشخصية متأصلة لدى سكان لندن، والأخبار المروعة في الصحف أمر عادي للغاية، حتى إنهم يقرءونها دون رجفة: «نحو الساعة السابعة الليلة الماضية خرج المريخيون من الأسطوانة، وتحركوا مستترين بدروع معدنية حيث أتوا على محطة «ووكينج» ومعها المنازل المجاورة، وذبحوا كتيبة كاملة من سلاح الفرسان. لم ترد أي تفاصيل بعد. لم يجد المدفعان طراز ماكسيم أي نفع في مواجهة دروعهم، فضلًا عن أنهم عطلوا المدافع الميدانية. كان الفرسان يعدون بجيادهم داخل «تشيرتسي». يبدو أن المريخيين يتحركون ببطء نحو «تشيرتسي» أو «وينزر». سادت حالة من القلق الشديد غرب «سَري»، بينما تقام المتاريس لتعوق تقدمهم نحو لندن.» هذا ما أوردته صحيفة «صانداي صن»؛ بينما شبه مقال بارع مفصل أُعد في عجالة

لافتة للنظر في صحيفة «ريفيري» الحادث بمعرض حيوانات برية أُطلق سراحها داخل إحدى القرى.

لم يعرف أحد في لندن يقينًا طبيعة المريخيين المدرعين، وكانت لا تزال هناك فكرة ثابتة عن أن تلك الوحوش لا بد أن تكون متثاقلة الحركة؛ فتعبيرات مثل «تزحف» و«تتسلل بمشقة» كادت ترد في جميع التقارير السابقة. لم تُكتب أي من البرقيات من قِبل شاهد عيان على تقدمهم. أصدرت صحف الأحد طبعات منفصلة كلما وردت أخبار جديدة، بل وأحيانًا في ظل غياب تلك الأخبار. لكن لم يكن هناك ما يقال للناس حتى وقت متأخر من فترة ما بعد الظهيرة عندما أدلت السلطات بما لديها من أنباء لوكالات الأخبار. ذُكر أن الناس في «والتون» و«وايبريدج» وجميع الضواحي يتدفقون على الطرق المؤدية إلى لندن؛ كان هذا كل شيء.

ذهب شقيقي إلى الكنيسة في مستشفى «فاوندلينج» في الصباح وهو لا يزال على غير علم بما حدث الليلة السابقة. وهناك سمع تلميحات عن الغزو، وصلوات خاصة كي يحل السلام. وأثناء خروجه اشترى نسخة من صحيفة «ريفيري». تملكه الفزع من الأخبار، وذهب مجددًا إلى محطة «ووترلو» ليتحقق من عودة الاتصالات. يبدو أن الحافلات والعربات والدراجات والأعداد الهائلة من الأشخاص الذين يسيرون في الشوارع مرتدين أفضل ملابسهم لم يتأثروا بالأخبار الغريبة التي ينشرها بائعو الصحف. كان الناس متشوقين؛ أو إن كانوا خائفين، فخوفهم لم يكن إلا على السكان المحليين. في المحطة سمع للمرة الأولى أن خطوط «وينزر» و«تشيرتسي» تعطلت. أخبره الحمَّالون أن العديد من البرقيات المهمة استُقبلت في الصباح من محطتي «بايفليت» و«تشيرتسي»، لكنها توقفت فجأة. لم يستطع شقيقي أن يحصل منهم إلا على أقل التفاصيل الدقيقة.

كانت أقصى معلوماتهم: «ثمة قتال وقع حول «وايبريدج».»

سادت حركة القطارات حالة من الاضطراب الشديد الآن. كان عدد كبير من الأشخاص الذين ينتظرون وصول أصدقاء من أماكن على شبكة «ساوث-ويسترن» يقفون حول المحطة. جاء رجل مسن أشيب وأخذ يكيل سبابًا لاذعًا لشركة «ساوث-ويسترن» في وجه شقيقي. قال: «لا بد أن ينفضح أمرهم.»

وصلت بضعة قطارات من «ريتشموند» و«بيوتني» و«كينجستون» تحمل أشخاصًا خرجوا لقضاء يوم من التنزه في الزوارق ووجدوا الأهوسة مغلقة وحالة من الذعر تسود الأجواء. تحدث رجل يرتدي سترة رياضية تجمع بين اللونين الأزرق والأبيض إلى شقيقي، وكان يحمل الكثير من الأخبار الغريبة.

قال له: «هناك جموع غفيرة تصل إلى «كينجستون» في عربات ومعها صناديق محملة بأشياء قيمة وغيرها. إنهم يفدون من «مولسي»، و«وايبريدج»، و«والتون» قائلين إنهم سمعوا أصوات مدافع في «تشيرتسي»، وصوت إطلاق كثيف للنيران، وإن الجنود أمروهم بالفرار في الحال لأن المريخيين قادمون. سمعنا إطلاق مدافع في محطة «هامتون كورت»، لكننا خلناه رعدًا. ماذا يعني كل هذا؟ المريخيون لا يستطيعون الخروج من حفرتهم؛ أليس كذلك؟»

لم يستطع شقيقي أن يجيبه.

بعدئذ وجد أن الشعور المبهم بالذعر قد امتد إلى روَّاد قطارات الأنفاق، وأن من خرجوا للتنزه يوم الأحد بدءوا يعودون من كل متنزهات «ساوث-ويسترن» — «بارنز»، و«ويمبلدون»، و«ريتشموند بارك»، و«كيو»، وغيرها — في ساعات مبكرة على غير العادة، لكن الأخبار التي كانوا يحملونها لم تزد على كونها شائعات مبهمة. بدا الانفعال على كل شخص موجود بمحطة السكك الحديدية.

نحو الساعة الخامسة بلغ هياج الحشد المجتمع في المحطة كل مبلغ مع فتح خط الاتصال — الذي يكاد يكون مغلقًا دائمًا — بين محطتي «ساوث-إيسترن» و«ساوث-ويسترن»، ومرور شاحنات النقل المحملة بالمدافع الكبيرة والشاحنات المكدسة بالجنود. كانت تلك هي المدافع التي أُحضرت من «ووليتش» و«كاثام» لتغطية «كينجستون». كان ثمة تبادل للمزحات: «سيلتهمونكم!» و«نحن مروِّضو الوحوش!» وغيرها. وبعد فترة وجيزة وصلت فرقة من الشرطة إلى المحطة، وبدءوا يخلون الأرصفة من العامة، وخرج شقيقي إلى الشارع مجددًا.

كانت أجراس الكنيسة تقرع من أجل صلاة المساء، وظهرت فرقة من فتيات «جيش الخلاص» تغنِّي في طريق «ووترلو رود». وفوق الجسر كان عدد من المتسكعين يشاهدون زَبَدًا بنيًّا غريبًا ينجرف مع التيار على هيئة رقع منفصلة. كانت الشمس تغرب لتوها، وارتفع «برج الساعة» و«مبنى البرلمان» في واحدة من أكثر السماوات التي يمكن تخيلها صفاءً؛ سماء ذهبية مخططة بأشرطة عرضية من السحب الأرجوانية الضاربة للحمرة. كان هناك حديث عن جثة عائمة. أخبر رجل — ذكر أنه جندي احتياطي — شقيقي أنه شاهد الهليوجراف يومض ناحية الغرب.

في شارع «ويلينجتون» قابل شقيقي اثنين شديدي البنيان في وجوههما غلظة اندفعا لتوِّهما من شارع «فليت» ومعهما جرائد طُبعت للتوِّ وإعلانات لافتة للنظر.

صاح أحدهم للآخر في شارع «ويلينجتون»: «كارثة مروعة! قتال في «وايبريدج»! وصف تفصيلي! هزيمة المريخيين! لندن في خطر!» اضطر شقيقي لدفع ثلاثة بنسات من أجل الحصول على نسخة من تلك الجريدة.

عندها فقط أدرك شيئًا عن قوة تلك الوحوش وهولها. علم أنهم ليسوا مجرد قلَّة من كائنات صغيرة الجسم بطيئة الحركة، وإنما عقول تتحكم في أجسام آلية ضخمة، وأن بوسعها التحرك على جناح السرعة وتسديد ضربات لها من القوة ما تعجز أعتى المدافع عن التصدي لها.

جاء في وصف المريخيين أنهم «آلات ضخمة تشبه العناكب، يبلغ طولها نحو ثلاثين مترًا، تضاهي سرعتها سرعة القطار السريع، ولديها القدرة على إطلاق شعاع ذي حرارة هائلة». اتخذت سريات المدفعية — مدافع ميدانية على وجه الخصوص — المحجوبة عن الأنظار مواقعها في البلدة حول مرعى «هورسيل»، وتحديدًا بين ضاحية «ووكينج» ولندن. شوهدت خمس آلات تتحرك باتجاه نهر «التيمز»، وأسفرت المصادفة السعيدة عن تدمير إحداها. وفي الحالات الأخرى أخطأت القذائف الهدف، وأبيدت سريات المدفعية على الفور بفعل الأشعة الحرارية. قيل إن هناك خسائر فادحة بين الجنود، لكن نبرة البرقية كانت مدعاة للتفاؤل.

دُحضَ المريخيون؛ فهم ليسوا منيعي القوة. تقهقروا مجددًا إلى المثلث الذي تقبع فيه أسطواناتهم حول «ووكينج». كان مرسلو الإشارات بما لديهم من أجهزة الهليوجراف يتقدمون نحوهم من جميع الجوانب. كانت المدافع تُنقل سريعًا من «وينزر» و«بورتسميث» و«ألدرشوت» و«ووليتش»؛ بل من الشمال أيضًا، ومن بينها مدافع مزدوجة السبطانة زنة خمسة وتسعين طنًا قادمة من «ووليتش». وإجمالًا، اتخذت مائة وستة عشر مدفعًا في المجمل مكانها لتغطي لندن. لم تشهد إنجلترا من قبل مثل هذا الحشد الهائل أو السريع للمعدات العسكرية.

انعقدت الآمال على أن أي أسطوانة جديدة تسقط سوف يُقضى عليها في الحال بواسطة مواد شديدة الانفجار كانت تُصنَّع وتوزَّع على جناح السرعة. ورد في الأنباء أن الوضع بلا شك هو الأكثر غرابة وخطورة، لكن استُحِث السكان على التصدي للذعر وتفاديه. المريخيون قطعًا كائنات غريبة ومفزعة إلى أقصى حد، لكن لا يمكن أن يزيد عددهم على أقصى تقدير عن عشرين كائنًا في مواجهتنا نحن الملايين.

كانت السلطات على حق حين افترضت — من حجم الأسطوانات — أنه لا يمكن أن يكون هناك أكثر من خمسة منهم داخل كل أسطوانة؛ أي خمسة عشر إجمالًا. وقد أُبيد

واحد منهم على الأقل، وربما أكثر. تلقَّى العامة تحذيرًا بضرورة الابتعاد عن الخطر، واتُّخذت تدابير مشدَّدة لحماية الناس في الضواحي الغربية الجنوبية التي يحيق بها الخطر. وهكذا ومع تكرار التأكيد على أن لندن آمنة وعلى قدرة السلطات على التعامل مع الوضع، كانت نهاية تلك الأنباء.

كُتبت الأنباء بالخط العريض على ورق طُبع لتوه حتى إنه كان لا يزال رطبًا، ولم يكن ثمة متسع من الوقت لإضافة كلمة أو تعليق. قال شقيقي إنه لمن الغريب أن ترى كيف انتُزعت المحتويات العادية للصحف بهذه الشراسة ليحل محلها ذلك البيان.

على طول شارع «ويلينجتون» كان الناس يقلِّبون الأوراق الزهرية في حركة مضطربة، ويقرءون ما بها، وفجأة أصبح شارع «ستراند» صاخبًا بأصوات جمع غفير من الباعة المتجولين يتعقبون هؤلاء النازحين الأوائل. جاء الناس يتدافعون في الحافلات لتأمين نسخهم من الصحف. مؤكد أن تلك الأنباء أثارت الناس أيما إثارة، أيًّا ما كان شعورهم السابق بعدم الاكتراث. ذكر شقيقي أن مصراعي متجر خرائط في شارع «ستراند» قد نُزعت، وأن رجلًا كان يرتدي ملابس أيام الآحاد — ويرتدي حتى القفَّازين ذوي اللون الأصفر الزاهي — شوهد داخل النافذة يثبِّت في عجالة الخرائط الخاصة بمدينة «سَري» على الزجاج.

واصل شقيقي تقدمه في شارع «ستراند» ومنه إلى ميدان «ترافالجار» والجريدة في يده، وشاهد بعض النازحين من غرب «سَري». كان هناك رجل برفقة زوجته وولدين وبعض قطع الأثاث في عربة جر كالتي يستخدمها بائعو الخُضَر. كان يسوق العربة من اتجاه جسر «وستمنستر»، وخلفه بمسافة قصيرة عربة قش بها خمسة أو ستة أفراد يبدو الوقار عليهم، ومعهم بعض الصناديق والصُّرر. كانت وجوههم هزيلة، ومظهرهم العام يناقض بوضوح مظهر راكبي الحافلات الذين يرتدون أفضل الملابس في يوم عطلتهم. أطل الأفراد متأنقو الملابس عليهم من داخل سيارات الأجرة. توقفوا في الميدان وكأنهم لا يعرفون أي طريق يسلكون، وأخيرًا انعطفوا شرقًا عبر شارع «ستراند». خلف هؤلاء جاء رجل يرتدي ملابس العمل مستقلًّا دراجة قديمة الطراز ذات عجلات ثلاث إحداها صغيرة الحجم في المقدمة. كان رثَّ المظهر شاحب الوجه.

استدار شقيقي متجهًا نحو محطة «فيكتوريا»، والتقى عددًا من هؤلاء الأشخاص. خُيِّل إليه أنه قد يراني. لاحظ وجود عدد كبير من رجال الشرطة ينظمون حركة المرور. كان بعض اللاجئين يتبادلون الأخبار مع ركاب الحافلات، وأكد أحدهم أنه شاهد

المريخيين؛ «مراجل تنتصب فوق ركائز طويلة، وتخطو خطوات واسعة كالبشر.» كان الشعور بالإثارة والحماسة يسيطر على أغلبهم من جراء التجربة الغريبة التي مروا بها.

بعيدًا عن محطة «فيكتوريا» انتعشت حركة البيع في الحانات مع وصول هؤلاء الوافدين. وعند كل ناصية شارع، كانت مجموعات من الأفراد يقرءون الصحف ويتحدثون بنبرة مشوبة بالإثارة أو يحدقون في هؤلاء الزوَّار غريبي الهيئة. بدا أن عددهم يزداد مع حلول الليل حتى إن الطرق في النهاية — على حد قول شقيقي — صارت مثل الشارع الرئيسي لمدينة «إبسوم» في يوم سباقات الخيول. تحدث شقيقي مع العديد من هؤلاء اللاجئين وحصل على أجوبة غير مُرضية من أغلبهم.

لم يكن بوسع أحدهم أن يخبره شيئًا عن «ووكينج» عدا رجل واحد أكد له أن «ووكينج» قد دُمِّرت بالكامل الليلة السابقة.

قال: «أتيتُ من «بايفليت». جاء رجل يركب دراجة في الصباح الباكر، وكان ينتقل من منزل إلى آخر يحثنا على مغادرة المكان. بعدها جاء الجنود. خرجنا لإلقاء نظرة، ورأينا سحبًا من الدخان ناحية الجنوب ... لا شيء غير الدخان؛ لم نر بشرًا يسلك هذا الطريق. بعدها سمعنا صوت المدافع في «تشيرتسي»، وتوافد الناس من «وايبريدج». لذا أوصدت منزلي، وجئت إلى هنا.»

في ذلك الوقت ساد الشوارع شعور قوي بأن السلطات تستحق اللوم بسبب عجزها عن القضاء على الغزاة دون إحداث كل هذا الهرج والمرج.

نحو الساعة الثامنة سُمع بوضوح صوت إطلاق نيران كثيف في كل مكان جنوب لندن. لم يستطع شقيقي سماعه بسبب الزحام المروري في الطرق الرئيسية، لكنه عندما سلك الشوارع الخلفية الهادئة المؤدية إلى النهر استطاع أن يميز الصوت بوضوح شديد.

سار من «وستمنستر» إلى مسكنه قرب منتزه «ريجنتس بارك» نحو الساعة الثانية. كان قلقه عليَّ قد بلغ به كل مبلغ، وتملكه الانزعاج بسبب فداحة الورطة. وجد عقله مشغولًا — كما كان الحال معي يوم السبت — بالعمليات العسكرية. فكَّر في كل تلك المدافع المترقبة الساكنة، وفي الريف الذي ارتحل أهله فجأة، وحاول أن يتخيل صورة «المراجل التي تنتصب فوق ركائز طويلة» والبالغ طولها ثلاثين مترًا.

كانت هناك مجموعات من اللاجئين يمرون من شارع «أوكسفورد»، وكثيرون في طريق «ماريليبون رود»، لكن الأخبار كانت تنتشر ببطء شديد حتى إن شارعي «ريجنت» و«بورتلاند بليس» كانا مكتظين بمن اعتادوا التنزُّه مساء الأحد وإن كانوا يتحدثون في

مجموعات، وبالقرب من منتزه «ريجنتس بارك» كان هناك عدد كبير من القرَناء يخيم عليهم الصمت وهم «يتنزهون» معًا أسفل مصابيح الغاز المنتشرة على نحو ما كان يحدث هنا دائمًا. كان الليل دافئًا ساكنًا، وقابضًا للصدر بعض الشيء؛ استمر صوت المدافع بلا توقف، وبعد منتصف الليل بدا أن هناك برقًا ورقيًّا ناحية الجنوب.

قرأ شقيقي الصحيفة، وأعاد قراءتها ثانية وقلقه من أن يكون قد أصابني مكروه يسيطر عليه. تملَّكه الضجر، وبعد تناول العشاء خرج مرة أخرى يهيم في الشوارع بلا هدف. عاد إلى مسكنه، وحاول عبثًا أن يصب تركيزه على أوراق الاختبار الذي كان بصدده. ذهب إلى الفراش بعد منتصف الليل بقليل، وأفاق من أحلام مزعجة كانت تراوده في الساعات المبكرة من يوم الاثنين على صوت طرق على الأبواب، وأقدام تجري في الشوارع، وقرع طبول بعيد، وقرع أجراس. تراقصت انعكاسات ضوء حمراء فوق السقف. ظل شقيقي ممددًا برهة وهو يتساءل هل طلع النهار أم أن العالم قد جن جنونه، ثم وثب من الفراش، وهرع نحو النافذة.

كانت غرفته تقع في عليّة المنزل، وعندما دفع برأسه خارج النافذة، كانت هناك في كل مكان في الشارع عشرات الأصوات لنوافذ تُفتح، وأطلَّت منها رءوس يرتدي أصحابها ثياب النوم التي خلت من حُسن الهندام. كان الناس يصيحون بما لديهم من استفسارات. صاح أحد رجال الشرطة وهو يطرق على الباب: «إنهم قادمون! المريخيون قادمون!» ثم انتقل مسرعًا إلى الباب التالي.

جاء صوت قرع الطبول ونفخ الأبواق من ثكنات شارع «ألباني»، واجتهدت كل الكنائس الواقعة على مدى السمع من أجل إيقاظ السكان عن طريق دق أجراس الإنذار في عنف وعشوائية. سُمعت أصوات أبواب تُفتح، وتحولت نوافذ المنازل المقابلة نافذة بعد أخرى من العتمة إلى الإنارة الصفراء.

ومن نهاية الشارع جاءت عربة مغلقة مسرعة، وفجأة أصدرت صوت ضجيج في الزاوية ارتفع حتى بلغ ذروته أسفل النافذة، ثم اختفى شيئًا فشيئًا مع ابتعادها. وخلفها مباشرة جاءت سيارتا أجرة كانتا في طليعة موكب طويل من السيارات المسرعة في طريقها إلى محطة «تشوك فارم» في الأغلب — حيث كان يجري تحميل قطارات «نورث-وسترن» المميَّزة — بدلًا من نزول المنحدر إلى «يوستن».

ظل شقيقي يحدق طويلًا من النافذة في دهشة بالغة يشاهد رجال الشرطة وهم يطرقون الأبواب بابًا بعد باب وينقلون رسالتهم المبهمة. ثم انفتح الباب خلفه، ودخل

أحد النزلاء مرتديًا قميصًا وبنطالًا وخفًّا، وحمالتا بنطاله سائبتان حول خصره، وشعره مشعث من أثر النوم.

سأل الرجل: «ماذا يحدث؟ حريق؟ علام هذا الضجيج؟!»

أطل الاثنان برأسيهما من النافذة، وحاولا جاهدين سماع ما كان يصيح به رجال الشرطة. كان الناس يأتون من الشوارع الجانبية، ويقفون في مجموعات يتحدثون عند مفارق الطريق.

قال النزيل المرافق لشقيقي: «علام كل هذا؟»

أجابه شقيقي بعبارات تفتقر إلى الوضوح، وبدأ يرتدي ملابسه وهو يهرع مع كل قطعة يرتديها إلى النافذة كي لا يفوته شيء من ذلك المشهد الذي يزداد إثارة. وحينئذ جاء رجال يبيعون الصحف في موعد مبكر عن موعدها المعتاد وهم يصيحون في الشارع: «لندن على شفا الاختناق! اقتحام أسوار «كينجستون» و«ريتشموند»! مذابح مروِّعة في وادي «التيمز»!»

في كل مكان من حوله — في الغرف الواقعة في الطوابق الدنيا، وفي المنازل على جانبي الطريق وفي الجانب الآخر منه، وفي الخلف وفي العديد من الشوارع الأخرى في ذلك الجزء من «ماريليبون» و«وستبورن بارك» و«سان بانكريس»، وغربًا وشمالًا في «كيلبيرن» و«سان جونز وود» و«هامستيد»، وشرقًا في «شورديتش» و«هايبري» و«هاجرستون» و«هوكستون»، بل في كل مكان في لندن من «إيلينج» وحتى «إيست هام» — كان الأهالي يفركون أعينهم، ويفتحون النوافذ ليحدقوا في الطرقات ويطرحوا أسئلة بلا هدف، ثم يرتدون ثيابهم في عجالة مع هبوب أول نسمات عاصفة «الخوف» عبر الشوارع. كانت تلك باكورة الذعر الكبير. استيقظ أهل لندن — الذين خلدوا إلى فرشهم مساء الأحد خُمُلًا غير عابئين بشيء — في الساعات الأولى من صباح الاثنين على إحساس قوي بالخطر.

لم يكن بوسع شقيقي متابعة ما يحدث من النافذة، ولذا نزل إلى الشارع بينما تزداد الشمس سطوعًا بين حواجز شرفات المنازل مع طلوع النهار. تزايدت أعداد الفارِّين على أقدامهم وفي السيارات كل دقيقة. سمع الناس يصرخون: «دخان أسود!» ثم سمعهم مجددًا: «دخان أسود!» كانت الإصابة بعدوى ذلك الخوف الجماعي أمرًا محتومًا. وبينما كان يخالج شقيقي شعور بالتردد على عتبة الباب، رأى بائع صحف آخر يقترب، فاشترى نسخة في الحال. كان الرجل يلوذ بالفرار مع البقية، ويبيع الصحيفة الواحدة مقابل شلن … يا له من خلط غريب بين الشعور بالذعر والرغبة في تحقيق الربح!

وفي تلك الصحيفة قرأ شقيقي تلك البرقية الكارثية الصادرة عن رئيس الأركان:

«بوسع المريخيين أن يُطلقوا سحبًا هائلة من بخار أسود سام باستخدام الصواريخ. لقد أبادوا سريَّات المدفعية، وأتوا على «ريتشموند» و«كينجستون» و«ويمبلدون»، وهم الآن يتقدمون شيئًا فشيئًا نحو لندن يبيدون كل شيء في طريقهم. إيقافهم أمر مستحيل. لا منجى من «الدخان الأسود» إلا بالفرار العاجل.»

كان هذا كل شيء، لكنه كان كافيًا. كان سكان المدينة الكبرى البالغ عددهم ستة ملايين نسمة يتحركون في اهتياج ويركضون مسرعين؛ حينها كان الجميع يتجه شمالًا.

تعالت الأصوات: «دخان أسود!» «حريق!»

أصدرت أجراس الكنيسة المجاورة جلبة حادَّة، وتحطمت عربة جر كانت تتحرك حركة عشوائية — وسط سيل من الصرخات واللعنات — عندما اصطدمت بحوض المياه في الجانب الآخر من الشارع. أضاءت الأنوار الصفراء الخافتة داخل المنازل وانطفأت، وبعض سيارات الأجرة المارة لم تطفئ أنوارها. وفي السماء كان الفجر يزداد سطوعًا في صفاء وثبات وهدوء.

سمع شقيقي وقع أقدام تركض جيئة وذهابًا داخل الغرَف، وصعودًا ونزولًا على الدَّرَج خلفه. خرجت مالكة المكان إلى الباب ترتدي مبذلًا غير مربوط بإحكام وشالًا؛ تبعها زوجها وهو يصيح بأعلى صوته.

حالما بدأ شقيقي يدرك خطورة الوضع، عاد مسرعًا إلى غرفته، ووضع كل ما لديه من مال — نحو عشرة جنيهات — في جيوبه، وخرج مرة أخرى إلى الشوارع.

الفصل الخامس عشر

ما حدث في «سَري»

في الوقت الذي جلس فيه الكاهن يتحدث معي بهذا الجنون أسفل سياج الشجيرات في المرج القريب من «هاليفورد»، وفي الوقت الذي كان فيه شقيقي يراقب طوفان اللاجئين فوق جسر «وستمنستر»، واصل المريخيون الهجوم. وبحسب ما ورد من روايات متضاربة، فإن أغلبهم ظلوا مشغولين بالترتيبات التي كانت تجري داخل حفرة «هورسيل» حتى التاسعة مساء تلك الليلة؛ عاكفين على إجراء عملية تسببت في انطلاق كميات هائلة من الدخان الأخضر.

لكن المؤكد أن ثلاثة منهم خرجوا نحو الساعة الثامنة، وتقدموا في بطء وحذر، وشقوا طريقهم عبر «بايفليت» و«بيرفورد» نحو «ريبلي» و«وايبريدج»، وهكذا أصبحوا على مرأى من سريات المدفعية المترقبة قبالة الشمس الدالكة. لم يتقدم هؤلاء المريخيون معًا في آن واحد، بل اتخذوا صفًّا بحيث يبعد أحدهم عن أقرب رفاقه ربما مسافة ميل ونصف الميل. كانوا يتواصلون بعضهم مع بعض بواسطة عواء متفاوت في حدته يشبه صافرات الإنذار.

كان هذا العواء وإطلاق نيران المدافع في «ريبلي» و«سان جورجيز هيل» هو ما سمعناه في «أبر هاليفورد». أطلق رجال المدفعية في «ريبلي» — وهم متطوعون عديمو الخبرة في سلاح المدفعية لم يسبق لهم الخدمة في موقع كهذا — وابلًا عنيفًا سابقًا لأوانه ولا طائل تحته من القذائف، وأسرعوا فوق ظهور الجياد وعلى الأقدام داخل القرية التي لحق بها الدمار، بينما سار المريخي الهُوَيْنى — دون استخدام شعاعه الحراري — فوق مدافعهم وخطا بحذر شديد بينها، ومر من أمامها، وهكذا أصبح فجأة في مواجهة المدافع في منتزه «بينسهيل بارك»، فقضى عليها جميعًا.

لكن الرجال في «سان جورجيز هيل» كانوا يحظون بقيادة أفضل أو ربما يتمتعون بقدر أكبر من الجَلَد. ولمَّا كانوا يتخذون من غابة الصنوبر غطاءً لهم، بدا أن المريخي القريب منهم لم يتوقع ظهورهم على الإطلاق. نصبوا مدافعهم في تروٍّ وكأنهم ينظمون عرضًا عسكريًّا، وأطلقوا النيران في نطاق بلغ نحو ألف متر.

ومضت القذائف في كل مكان حول المريخي، وشوهد وهو يتقدم بضع خطوات، ثم يترنح، ويسقط أرضًا. هلَّل الجميع في صوت واحد، وأعادوا تعبئة المدافع بسرعة محمومة. أصدر المريخي المطروح أرضًا عويلًا طويلًا، وعلى الفور — وتلبية لندائه — ظهر عملاق لامع ثانٍ عند الأشجار ناحية الجنوب. بدا أن إحدى أرجل الكائن ثلاثي القوائم قد تهشمت بفعل إحدى القذائف. انطلق وابل القذائف الثاني بالكامل بعيدًا عن المريخي الملقى أرضًا، وفي الوقت ذاته أحضر رفيقاه شعاعيهما الحراريين ليتكفلا بأمر سرية المدفعية. انفجرت الذخيرة، واشتعلت النيران في أشجار الصنوبر في كل مكان حول المدافع، ولاذ بالفرار رجل أو اثنان فقط من الرجال الذين كانوا يركضون بالفعل فوق قمة التل.

بعدها بدا أن الثلاثة تشاوروا فيما بينهم، وتوقفوا، وذكر الكشافة الذين كانوا يراقبونهم أنهم ظلوا بلا حراك تمامًا مدة نصف ساعة تالية. زحف المريخي المطروح أرضًا بعناء خارج قلنسوته؛ كان هيكلًا بنيًّا صغيرًا يوحي في غرابة من تلك المسافة وكأنه بقعة صغيرة من الآفات التي تصيب النباتات، وبدا بوضوح أنه مشغول بترميم دعامته. انتهى من عمله نحو الساعة التاسعة، إذ حينها شوهدت قلنسوته فوق الأشجار مرة ثانية.

بعد التاسعة ببضع دقائق تلك الليلة، انضم إلى هؤلاء الحرَّاس الثلاثة أربعة مريخيين آخرين كل منهم يحمل أنبوبًا أسود اللون سميكًا. أُعطيَت أنابيب مشابهة لكل من الحراس الثلاثة، وانطلق السبعة يوزعون أنفسهم على مسافات متساوية على طول خط منحن بين «سان جورجيز هيل» و«وايبريدج» وبين بلدة «سيند» جنوب غرب «ريبلي».

ما إن بدءوا يتحركون حتى انطلقت عدة صواريخ من التلال أمامهم، ووجهت إنذارًا إلى سريات المدفعية المترقبة حول «ديتون» و«إيشر». في الوقت نفسه عبر أربع من آلات القتال التابعة للمريخيين — مزودة بأنابيب مشابهة — النهر، وظهرت اثنتان منهم — على هيئة هيكلين سوداوين تحت السماء الغربية — أمام ناظري أنا والكاهن بينما

كنا نركض متعبين ومتألمين على طول الطريق المتجه شمالًا من هاليفورد. بدا لنا أنهم كانوا يتحركون فوق سحابة؛ ذلك أن ضبابًا أبيض كسا الحقول وارتفع حتى بلغ ثلث طولهم.

عند رؤية هذا المشهد بكى الكاهن بكاءً مكتومًا، وبدأ يعدو؛ لكنني أدركت أنه لا جدوى من العدْو من أمام أحد المريخيين، فانحرفتُ جانبًا، وزحفت وسط نباتات القُرَّاص والعلّيق المندَّاة في القناة الواسعة بجانب الطريق. نظر الكاهن خلفه، ورآني، فاستدار ليلحق بي.

توقف الاثنان — الأقرب إلينا كان واقفًا في مواجهة «صنبري»، وبدا الأبعد هيكلًا رماديًّا غير واضح المعالم باتجاه نجم الليل — ناظرين بعيدًا باتجاه «ستينز».

توقف عواء المريخيين المتقطع، واتخذوا أماكنهم في شكل هلال كبير حول أسطواناتهم وقد خيم عليهم الصمت المطبق. كان هلالًا تبلغ المسافة بين طرفيه اثني عشر ميلًا. لم يحدث منذ اختراع البارود أن كانت بداية إحدى المعارك هادئة هكذا. كان وقع المشهد واحدًا سواء علينا أو على أي مُشاهد حول «ريبلي» ... بدا أن المريخيين يحوزون الليل داكن الظلمة وحدهم؛ ليل لا يضيئه سوى القمر الضامر، والنجوم، وغسق النهار، والوهج قاني الحمرة القادم من «سان جورجيز هيل» وغابات «بينسهيل».

لكن في كل الجهات المقابلة لذلك الهلال — في «ستينز» و«هاونسلو» و«ديتون» و«إيشر» و«أوكهام» وخلف التلال والغابات جنوب النهر، وعبر المروج الخضراء شمال النهر، وفي أي مكان توفِّر فيه مجموعة من الأشجار أو من منازل القرى غطاءً كافيًا — كانت المدافع تنتظر. انطلقت صواريخ الإشارة، وأمطرت بشررها جوف الليل ثم تلاشت، بينما بلغت سريات المدفعية المنتظرة أقصى درجات الترقب. لم يتبق إلا أن يتقدم المريخيون نحو خط إطلاق النيران، وعلى الفور سيشتبك هؤلاء البشر الذين يظهرون في صورة هياكل سوداء لا تحرك ساكنًا وتلك المدافع التي تبرق على نحو ينذر بالخطر في الساعات الأولى من الليل في قتال عاصف.

لا شك أن الشغل الشاغل لعدد كبير جدًّا من أصحاب العقول اليقظة — مثلما كان الحال معي — هو اللغز الخاص بمدى فهم المريخيين لنا. هل استوعبوا أننا بأعدادنا التي تبلغ الملايين كنا منظمين منضبطين ونعمل معًا؟ أم أنهم نظروا إلى الإطلاق السريع للنيران، والإطلاق المفاجئ للقذائف، وحصارنا الدائم لمخيَّمهم مثلما ننظر نحن إلى الهجوم الجماعي المحتدم القادم من خلية نحل تعرضت للإزعاج؟ هل راودهم الحلم

بأنهم سيتمكنون من إبادتنا؟ تصارعت مئات من هذه الأسئلة في عقلي وأنا أشاهد ذلك الشبح الضخم المنوط بمهمة الحراسة. وكان للتفكير في كل القوى الخفية والمجهولة في الطريق إلى لندن حضور ضبابي في عقلي. هل نصبوا فخاخًا؟ هل مصانع البارود في «هاونسلو» جاهزة لأن تكون شرَكًا لتلك الكائنات؟ هل يتمتع سكان لندن بالشجاعة والبأس اللذين يمكِّنانهم من التصدي لهؤلاء الغزاة؟

بعد فترة بدت كالدهر كنا خلالها جاثمين أرضًا نطل من بين سياج الشجيرات، سمعنا صوتًا من بعيد يشبه هدير المدافع. ثم سمعنا صوتًا ثانيًا على مسافة أقرب، ثم تلاه صوت آخر. بعدها رفع المريخي القريب منا الأنبوب الذي كان يحمله عاليًا، وأطلق ما كان فيه، فكان له دوي انفجار هائل هز الأرض من تحتنا. أجابه المريخي الذي كان يقف باتجاه «ستينز». لم يكن هناك وميض ولا دخان؛ فقط ذلك الانفجار المدوي.

تملكتني الإثارة كثيرًا من تلك المدافع الثقيلة التي تنطلق كل دقيقة حتى إني نسيت أمني الشخصي ويديَّ المسفوعتين فاعتليت سياج الشجيرات وحدَّقت النظر في اتجاه «صنبري». وفي تلك الأثناء انطلق صوت دوي ثان، واندفعت قذيفة كبيرة في السماء نحو «هاونسلو». توقعت على الأقل أن أرى دخانًا أو نارًا، أو أي أثر لتلك القذيفة، لكنني لم أر شيئًا سوى السماء قاتمة الزرقة ونجم وحيد وضباب أبيض يغطي مسافة شاسعة. ولم يكن هناك اصطدام ولا انفجار آخر ردًّا على الدويّ الأول. استؤنف الصمت، وامتدت دقيقة الصمت حتى صارت ثلاث دقائق.

قال الكاهن وهو يقف بجواري: «ماذا حدث؟»

أجبته: «ليست لدي فكرة.»

مرَّ وطواط بجانبنا سريعًا، ثم اختفى. انطلق صوت صراخ بعيد، ثم توقف. نظرت مرة أخرى إلى المريخي، ورأيته حينئذ يتحرك جهة الشرق على طول ضفة النهر في حركة متدحرجة سريعة.

مع كل دقيقة تمر كنت أتوقع انفجار مدفع خفي يقضي عليه، لكن شيئًا لم يبدد سكون الليل. أخذ المريخي يتضاءل كلما ابتعد، وبعدها اختفى وسط الضباب والليل الذي كان يرخي سدوله. وبدافع مشترك، تسلقنا السياج إلى نقطة أعلى. وفي اتجاه «صنبري» رأينا شيئًا معتمًا — كأن تلًّا مخروطيًّا ظهر في المكان فجأة — حال دون رؤيتنا للبلدة الأبعد، وبعدها على مسافة أبعد على طول النهر فوق «والتون»، رأينا قمة أخرى شبيهة. أخذت تلك الأشكال التي تشبه التلال في التضاؤل والاتساع كلما دققنا النظر فيها.

دفعني شعور مفاجئ إلى النظر باتجاه الشمال، وهناك لاحظت ظهور تلٍّ ثالث من تلك التلال السوداء المعتمة.

فجأة خيم السكون التام على كل شيء. وبعيدًا نحو الجنوب شق السكون صياح المريخيين بعضهم لبعض، ثم اهتز المكان مجددًا جراء الهدير البعيد الصادر عن مدافعهم، بينما لم يكن لمدافع البشر أي رد.

في ذلك الوقت لم نكن لنفطن إلى تلك الأشياء، لكنني أدركت لاحقًا معنى تلك التلال التي تنذر بالسوء والتي اجتمعت في ضوء الغسق. أطلق كل مريخي — ممن يتخذون مكانهم ضمن الهلال الكبير الذي وصفتُه من قبل — باستخدام الأنبوب الشبيه بالمدفع الذي يحمله قذيفة شظايا كبيرة فوق ما يصادفه في طريقه من تل أو أيكة أشجار أو مجموعة منازل أو أي شيء قد يكون غطاءً للمدافع. بعضهم أطلق قذيفة واحدة من تلك القذائف، والبعض الآخر أطلق اثنتين كما حدث مع المريخي الذي شاهدناه، وقيل إن المريخي الواقف في «ريبلي» أطلق ما لا يقل عن خمس قذائف تلك المرة. تنسحق تلك القذائف عندما تصطدم بالأرض — لكن من دون أن تنفجر — وعلى الفور تُطلق كمية هائلة من بخار ثقيل قاتم السواد يدور في مسار لولبي ويتدفق إلى أعلى مكونًا سحابة ركامية سوداء ضخمة؛ تلٌّ غازي ينخفض وينتشر شيئًا فشيئًا فوق البلدة المحيطة. كانت ملامسة ذلك البخار واستنشاق خيوطه الحارة يجلبان الموت لكل من يتنفسه.

كان بخارًا كثيفًا — بل أشد كثافة من أكثر الأدخنة كثافة — حتى إنه بعد الدفقة المائجة الأولى وانتشار أثرها، تنخفض مجددًا في الهواء وتنهمر على الأرض في صورة سائلة أكثر منها غازية لتترك التلال وتتدفق في الوديان والقنوات بل الممرات المائية مثلما يحدث مع غاز ثاني أكسيد الكربون المتدفق من الشقوق البركانية. وعندما يلتقي بالمياه يحدث تفاعل كيمائي من نوع ما، ويغطِّى سطح المياه على الفور بزَبَد ذَروري يغوص رويدًا رويدًا ليفسح المكان أمام المزيد. لم يكن ذلك الزَّبَد قابلًا للذوبان بأي حال، وإنه لأمر غريب — بعد رؤية الأثر الفوري الذي يُحدثه الغاز — أن يكون باستطاعة المرء أن يتناول الماء المصفَّى منه دون أن يلحق به أذى. لا ينتشر البخار مثلما يفعل الغاز الفعلي، بل يتجمع بعضه مع بعض على هيئة غِيام تتدفق على مهل عبر المنحدر الأرضي وتنجرف ببطء مع اتجاه الريح، ثم تتحد ببطء شديد مع ضباب الهواء ورطوبته لتتنزل إلى الأرض في صورة غبار. وفيما عدا وجود عنصر مجهول الهوية يعطي أربعة خطوط في اللون الأزرق للطَّيْف، فإننا لا نزال نجهل تمامًا طبيعة تلك المادة.

ما إن انتهى التمَوُّر المائج المصاحب لعملية الانتشار حتى التصق الدخان الأسود بالأرض — حتى قبل ترسُّبه — ومن ثم لم تكن هناك فرصة للنجاة من سمومه إلا على مسافة نحو خمسة عشر مترًا في الهواء؛ على أسطح المنازل وفي الطوابق العليا للمباني المرتفعة والأشجار الشاهقة مثلما ثبت تلك الليلة في شارع «كوبهام» وفي «ديتون».

روى الرجل الذي نجا في المكان الأول قصة مدهشة عن غرابة التدفق اللولبي للدخان وكيف أنه نظر إلى أسفل من برج الكنيسة ورأى منازل القرية تبرز كما الأشباح من الفراغ المعتم. ظل الرجل هناك يومًا ونصف اليوم يعاني الإنهاك والجوع ولفحة الشمس، وكانت الأرض أسفل السماء الزرقاء وأمام التلال البعيدة امتدادًا أسود مخمليًّا تتخلله سقوف المنازل الحمراء والأشجار الخضراء، تليهما الشجيرات والبوابات والحظائر والبنايات الملحقة، والأسوار متشحة بالسواد ترتفع هنا وهناك في ضوء الشمس.

هكذا كان الوضع في شارع «كوبهام» حيث بقي البخار الأسود حتى غاص في الأرض من تلقاء نفسه. وكان من عادة المريخيين إخلاء الهواء من ذلك البخار الأسود — عندما يؤدي الغرض المخصص له — بأن يشقوا طريقهم وسطه ويسلِّطون عليه دفقًا من البخار.

كانوا يفعلون ذلك باستخدام غِيام البخار القريبة منَّا مثلما رأينا في ضوء النجوم من نافذة منزل مهجور في بلدة «أبر هاليفورد» حيث عدنا. ومن هناك استطعنا رؤية الكشَّافات فوق «ريتشموند هيل» و«كينجستون هيل» تتحرك هنا وهناك، ونحو الساعة الحادية عشرة اهتزت النوافذ، وسمعنا هدير مدافع الحصار الضخمة التي كانت قد نُصبت هناك. استمر إطلاق تلك المدافع دونما توقف مدة ربع ساعة ترسل طلقات عشوائية نحو المريخيين المتوارين عن الأنظار في «هامتون» و«ديتون»، وبعدها تلاشت الأشعة الخافتة للضوء الكهربائي، وحل محلها وهج أحمر برَّاق.

عندها سقطت الأسطوانة الرابعة — نيزك أخضر متوهج — في منتزه «بوشي بارك» كما علمتُ لاحقًا. وقبل أن تنطلق المدافع المتمركزة في «ريتشموند» و«كينجستون»، كان هناك قصف مدفعي متقطع بعيد في الجنوب الغربي أظنه بسبب إطلاق المدافع عشوائيًّا قبل أن يسحق البخار الأسود رجال المدفعية.

هكذا وبأسلوب منظم؛ مثلما يفعل البشر عند استخدام الدخان في التخلص من أعشاش الزنابير، نشر المريخيون ذلك البخار الخانق الغريب فوق المدن باتجاه لندن. تباعد طرفا الهلال أحدهما عن الآخر شيئًا فشيئًا حتى كوَّنا في النهاية خطًّا من «هانويل»

إلى «كووم» و«مولدن». وطوال الليل واصلت أنابيبهم المدمرة تقدمها. لم يحدث مرة واحدة — بعد الإطاحة بذلك المريخي في «سان جورجيز هيل» — أن ترك المريخيون فرصة أمام رجال المدفعية للتغلب عليهم. فحيثما كانت هناك احتمالية لوجود مدافع محجوبة عن الأنظار، كانوا يطلقون قذيفة شظايا جديدة من البخار الأسود، وحيثما تكون المدافع مكشوفة على مرأى من الجميع، كان الشعاع الحراري يتكفل بإبادتها.

بحلول منتصف الليل ألقت الأشجار المتقدة على طول منحدرات «ريتشموند بارك» والوهج المنبعث من «كينجستون هيل» ضوءهما على شبكة من الدخان الأسود كانت تغطي وادي «التيمز» بالكامل وتمتد على مرمى البصر. ووسط هذا شق مريخيان طريقهما في تؤدة، ووجَّها أنابيب البخار الصافرة هنا وهناك.

أحجم المريخيون عن استخدام الشعاع الحراري تلك الليلة؛ إما لأنه لم يكن لديهم سوى مخزون محدود من المواد المستخدمة في إنتاجه، أو لأنه لم تكن لديهم الرغبة في تدمير المدينة، بل أرادوا الاكتفاء بإخماد ما لاقوه من مقاومة وإرهاب من تسببوا فيها. والحق أنهم نجحوا في تحقيق الهدف الأخير؛ فقد شهد مساء يوم الأحد نهاية المقاومة المنظمة ضد تحركاتهم. بعدها لن يقف بشر في وجههم؛ فلم يكن هناك أي أمل في المجازفة. حتى طواقم قوارب الطوربيدات والمدمرات التي أحضرت المدافع سريعة الطلقات إلى نهر «التيمز» رفضت التوقف، وشقَّت عصا الطاعة، ثم غاصت في المياه مجددًا. العملية العدائية الوحيدة التي تجرأ البشر على تنفيذها بعد تلك الليلة كانت زرع الألغام ونصب الشِّراك، وحتى في ذلك كانوا يتحركون وسط حالة من الهياج.

لك أن تتخيل مصير بطاريات المدفعية التي اتخذت مواقعها في ترقب مشحون بالتوتر باتجاه «إيشر» في ضوء الشفق. لم تُكتب لأحد النجاة. لك أن تتصور حالة الترقب المنظمة، والضباط الحذرين المتيقظين، وجنود المدفعية المستعدين، والذخيرة المجمَّعة في مكان قريب، وجنود مدافع العربات بخيولهم وعرباتهم، ومجموعات المتفرجين المدنيين الواقفين على قدر المسافة المسموحة لهم، وسكون الليل، وسيارات الإسعاف والمستشفيات الميدانية بما فيها ممن أصيبوا بحروق أو جروح في «وايبريدج»، وبعدها الطنين المكتوم للطلقات التي يطلقها المريخيون، والقذائف الشعواء التي تدور فوق الأشجار والمنازل وتنسحق وسط الحقول المجاورة.

لك أن تتخيل أيضًا التحول المفاجئ للانتباه، والتموجات سريعة الانتشار لذلك السواد الذي يتقدم دون توان وهي تحلق نحو السماء فتحيل ضوء الشفق إلى ظلام

دامس، وخِصمًا غريبًا ومروعًا من البخار يطأ ضحاياه، وصورًا ضبابية لأناس وخيول تركض وتصرخ وتسقط أرضًا، وصرخات فزع، ومدافع هُجرت فجأة، وبشرًا يختنقون ويتلوون من الألم أرضًا، وانتشارًا سريعًا لمخروط الدخان الداكن. وبعدها حلَّ الليل والفناء ... لا شيء سوى كتلة ساكنة من بخار منيع يخفي ما حصده من أرواح.

قبل طلوع الفجر كان البخار الأسود يتدفق عبر شوارع «ريتشموند»، بينما المنظومة الحكومية المفككة — في محاولة أخيرة — تستحث سكان لندن على ضرورة الفرار.

الفصل السادس عشر

النزوح من لندن

بوسعك هكذا أن تتفهم موجة الخوف الهادرة التي اجتاحت أكبر مدن العالم مع طلوع فجر يوم الاثنين؛ إذ تحوَّل تيار النازحين سريعًا إلى سيل جارف — وسط حالة من الاضطراب الشديد في كل الجهات المحيطة بمحطات السكة الحديدية — يتكدسون في صراع مرعب من أجل الانتقال عن طريق نهر «التيمز» ويهرولون عبر كل وسيلة انتقال متاحة نحو الشمال والشرق. وفي الساعة العاشرة، كان جهاز الشرطة — بل وهيئة السكة الحديدية مع انتصاف النهار — يفقدون تلاحمهم وتنظيمهم وكفاءتهم، والضعف والفتور يدبّ بين صفوفهم، حتى إنهم هرعوا أخيرًا مع الحشود النازحة.

كانت جميع خطوط السكة الحديدية شمال نهر «التيمز»، وسكان الجنوب الشرقي في شارع «كانون» قد تلقوا تحذيرًا في منتصف ليل الأحد، واكتظت القطارات بالركاب. كان الناس يتقاتلون بوحشية من أجل تأمين مكان للوقوف داخل العربات حتى في الساعة الثانية. وفي الثالثة كانوا يُداسون ويُسحقون في شارع «بيشوبسجيت» على بعد بضع مئات من الأمتار من محطة شارع «ليفربول»؛ كانت الأعيرة النارية تُطلَق والطعنات تُسدَّد، ورجال الشرطة الذين أُرسلوا لتوجيه حركة المرور — والذين تملَّكهم الإنهاك والحنق — يضربون أعناق الناس الذين استُدعوا هم للخدمة من أجل حمايتهم.

ومع تقدم النهار ورفض سائقي القطارات والمسئولين عن تغذيتها بالفحم العودة إلى لندن، دفعت وطأة الفرار الناس في حشود متزايدة العدد بعيدًا عن المحطات وعلى طول الطرق المؤدية شمالًا. في منتصف النهار شوهد أحد المريخيين في «بارنز»، وتحركت سحابة من البخار الأسود كانت تنخفض رويدًا رويدًا على طول وادي «التيمز» وعبر ضاحية «لامبيث» لتحول حركته البطيئة دون الفرار من فوق الجسور. مرت غيمة أخرى

فوق منطقة «إيلينج»، وأحاطت بمجموعة صغيرة من الناجين فوق «كاسيل هيل»؛ كانوا أحياء لكنهم عاجزون عن الفرار.

بعد صراع عقيم من أجل ركوب قطار متجه نحو الشمال الغربي من محطة «تشوك فارم» — حيث شقت القاطرات التي أفرغت حمولتها في محطة البضائع طريقها بصعوبة وسط الحشود المتصايحة، وكافحت مجموعة من الرجال الشجعان من أجل منع الحشود من سحق السائق قبالة محرك القطار — خرج شقيقي إلى طريق «تشوك فارم» وتفادى في حركة سريعة سربًا مسرعًا من العربات، وحالفه الحظ في أن يكون في طليعة المشاركين في نهب أحد متاجر الدراجات. انثقب الإطار الأمامي للدراجة أثناء جرها عبر النافذة، لكنه مع هذا غادر المكان على عجل دون مزيد من الإصابات خلا جرح في معصمه. لم يكن بالإمكان اجتياز السفح المنحدر لتل «هافرستوك هيل» بسبب ذلك العدد الكبير من الخيول المطروحة أرضًا، وهو ما حدا بشقيقي أن يسلك طريق «بيلسايز».

وهكذا فر شقيقي من هياج الهلع، ودار حول طريق «إدجوير رود» حتى وصل إلى «إدجوير» نحو السابعة متعبًا ودون أن يتناول طعامًا، لكنه كان متقدمًا عن الحشد بكثير. مر عليه عدد من راكبي الدراجات وبعض راكبي الخيول وسيارتان. على بعد ميل من «إدجوير» انكسر إطار العجلة، ولم تعد الدراجة صالحة للركوب. تركها على جانب الطريق، وأخذ يسير بخطوات متثاقلة داخل البلدة. كانت هناك متاجر نصف مفتوحة في الشارع الرئيسي، واحتشد الناس فوق الرصيف وفي مداخل البنايات ونوافذها مذهولين يحدقون النظر في موكب اللاجئين الغريب الذي كان في بدايته. نجح شقيقي في الحصول على بعض الطعام من إحدى الحانات.

ظل شقيقي بعض الوقت في «إدجوير» لا يعرف خطوته التالية. زاد عدد النازحين، وبدت لدى الكثيرين منهم — مثل شقيقي — رغبة في التسكع في المكان. لم ترد أي أخبار جديدة عن الغزاة المريخيين.

في ذلك الوقت كان الطريق مزدحمًا، لكنه لم يكن بعد مكتظًّا. كان معظم اللاجئين في تلك الساعة يركبون دراجات، ولكن سرعان ما ظهرت سيارات وعربات تجرها الخيول تشق الطريق مسرعة وقد تجمع الغبار في سحب كثيفة على طول الطريق إلى «سانت ألبانز».

ربما تكون فكرة ضبابية تتعلق بالذهاب إلى «تشلمسفورد» — حيث يعيش بعض أصدقاء شقيقي — هي التي دفعته لأن يسلك زقاقًا هادئًا يتجه ناحية الشرق. عندها

قابل درَجًا مخصصًا لعبور أحد السياجات، فعبره، وتتبع ممرًّا للمشاة يتجه نحو الشمال الشرقي. مر بجانب العديد من بيوت المزارع وبعض الأماكن التي لم يكن يعرف أسماءها. رأى بضعة لاجئين إلى أن التقى مصادفة — في ممر عشبي يتجه نحو «هاي بارنيت» — بسيدتين أصبحتا فيما بعد رفيقتيه في الطريق. التقى بهما في الوقت المناسب تمامًا لإنقاذهما.

سمع صراخهما، وعندما ركض نحو مفترق الطريق رأى رجلين يبذلان قصارى جهديهما من أجل سحبهما خارج العربة التي كانتا تقودانها، بينما ثالث يمسك في صعوبة رأس الحصان المذعور الذي كان يجر العربة. كانت إحدى السيدتين — قصيرة القامة ترتدي ملابس بيضاء اللون — تصرخ، بينما جرحت الأخرى — هيفاء القامة سمراء البشرة — الرجل الذي كان يمسك بذراعها باستخدام سوط كانت تحمله في يدها الثانية.

على الفور استوعب شقيقي الموقف، فصاح، وهرع نحو مكان القتال. توقف أحد الرجال، واستدار نحوه، ولما أدرك شقيقي من تعبيرات وجهه العدائية أنه لا مفر من القتال، ولما كان ملاكمًا متمرسًا، فقد توجه نحوه في الحال وطرحه أرضًا بجانب عجلة العربة.

لم تكن هناك فرصة للتحلي بشهامة الملاكمين، فركله شقيقي ركلة أعجزته عن الحركة، ثم أمسك بتلابيب الرجل الذي كان يجذب ذراع السيدة الهيفاء. سمع قعقعة الحوافر، وتلقى ضربة بالسوط على وجهه، وسدد له غريم ثالث ضربة بين عينيه، بينما أفلت الرجلُ الذي كان يمسك به شقيقي نفسه وفر عبر الزقاق في الاتجاه الذي جاء منه.

وفي شيء من الذهول، وجد نفسه في مواجهة الرجل الذي كان يمسك برأس الحصان، وأدرك أن العربة ترتد منه إلى الوراء عبر الزقاق، تترنح من جانب إلى آخر والسيدتان بداخلها تنظران إلى الخلف. حاول الرجل الذي يتقدمه — وكان فظًّا ضخم الجثة — أن يشتبك معه، لكنه أوقفه بضربة في وجهه. ولما أدرك الرجل أنه أصبح وحيدًا، تفادى المواجهة، وأطلق ساقيه للريح عبر الزقاق خلف العربة، يتبعه ضخم الجثة بمسافة قصيرة، والفارّ — الذي استدار حينها — خلفهما على مسافة بعيدة.

فجأة تعثر شقيقي وسقط أرضًا، بينما تقدم مطارده القريب منه دون تردد. هب واقفًا ليجد نفسه مرة أخرى في مواجهة خصمين. ربما كانت فرصته في النجاة ضئيلة لولا أن المرأة الهيفاء أوقفت العربة ببسالة، وعادت لتمد يد العون له. يبدو أنها

كانت تحمل مسدسًا طوال كل هذا الوقت، لكنه كان أسفل المقعد عندما تعرضت هي ومرافقتها للهجوم. أطلقت النار على بعد ستة أمتار، وتمكنت بشق النفس ألا تصيب شقيقي. فرَّ اللص الأقل شجاعة، وتبعه رفيقه وهو يلعن جبنه. توقفا في الزقاق على مرأى من شقيقي حيث كان الرجل الثالث يرقد بلا حراك.

قالت هيفاء القوام: «خذ هذا!» وأعطت المسدس لشقيقي.

قال شقيقي وهو يمسح الدم عن شفته المشقوقة: «عودي إلى العربة.»

استدارت دون أن تنبس بكلمة — إذ كان كلاهما يلهثان — وعادا إلى حيث كانت السيدة ذات الملابس البيضاء تبذل جهدًا كبيرًا كي تسيطر على الحصان المذعور.

من الواضح أن اللصوص نالوا كفايتهم؛ فعندما نظر شقيقي ثانية رآهم يتقهقرون.

قال شقيقي: «سأجلس هنا إذا سمحتِ لي.» وصعد إلى المقعد الأمامي الخالي. نظرت المرأة خلفها في قلق.

قالت: «أعطني الزمام.» وضربت جانب الحصان بالسوط. وبعد دقيقة اجتازوا منعطفًا في الطريق جعل الرجال الثلاثة يختفون عن نظر شقيقي.

وهكذا وعلى نحو مفاجئ تمامًا وجد شقيقي نفسه — بأنفاسه المتقطعة وفمه المجروح وفكه المرضوض ومفاصل أصابعه الملطخة دمًا — يقود العربة في طريق غير معروف مع هاتين السيدتين.

علم بعدها أنهما زوجة جرّاح يعيش في «ستانمور» وشقيقته الصغرى، وأنه قد قدِم في الساعات الأخيرة من الليل من علاج حالة خطيرة في ضاحية «بينَر»، وأنه سمع في إحدى محطات القطار في طريقه عن تقدم المريخيين. أسرع الرجل إلى البيت، وأيقظ السيدتين — إذ كانت الخادمة قد تركتهم قبل يومين — وحزم بعض الأغراض، ووضع مسدسه أسفل المقعد — من حسن حظ شقيقي — وأمرهما بأن تقودا العربة إلى «إدجوير» وكان ينوي استقلال القطار من هناك. تخلَّف عنهما بغية إخبار الجيران. قال إنه سيلحق بهما نحو الرابعة والنصف صباحًا، والآن أصبحت الساعة التاسعة ولم ترياه بعد. لم تستطيعا التوقف في «إدجوير» بسبب التكدس المروري المتزايد في المكان، ولذا سلكتا هذا الزقاق الجانبي.

تلك هي القصة التي روتها السيدتان على مسامع شقيقي عندما توقفوا مجددًا بالقرب من منطقة «نيو بارنيت». وعدهما بالبقاء معهما على الأقل حتى تحددا خطوتهما التالية، أو حتى يظهر الرجل المفقود، وادَّعى أنه بارع في استخدام المسدس — الذي لم يكن مألوفًا له — بغرض طمأنتهما.

أعدّوا ما يشبه المخيم بجانب الطريق، وبدا الرضا على الحصان داخل سياج الشجيرات. أخبرهما شقيقي عن فراره من لندن، وكل ما يعرفه عن هؤلاء المريخيين وعن أسلحتهم. ارتفعت الشمس في السماء، وبعد فترة توقفوا عن الكلام، وحل محله حالة من الترقب المشوب بالقلق. مر العديد من عابري السبيل، وجمع شقيقي ما استطاع من أخبار. كان كل ردٍّ منقوص يحصل عليه يعمق لديه الشعور بفداحة الكارثة التي نزلت ببني البشر، ويعمق قناعته بضرورة مواصلة رحلة الفرار هذه في الحال، وهو ما أشار به عليهما.

قالت هيفاء القوام: «لدينا مال.» ثم انتابها شعور بالتردد.

التقت عيناها بعيني شقيقي، وحينها تخلَّت عن ترددها.

قال شقيقي: «وأنا أيضًا.»

أوضحت أن لديهما ثلاثين جنيهًا ذهبية وورقة نقدية فئة خمسة جنيهات، وقالت إن باستطاعتهم استقلال قطار من «سانت ألبانز» أو «نيو بارنيت». ظن شقيقي أنه لا جدوى من ذلك بعدما رأى من استماتة أهل لندن على الاحتشاد في القطارات، واقترح عليهما عبور مقاطعة «إسكس» باتجاه مدينة «هاريتش»، ثم الفرار من البلدة بأسرها.

لم تكن السيدة إلفنستون — ذات الملابس البيضاء — لتستمع إلى أي تعليل، وظلت تصر على انتظار «جورج»، لكن شقيقة زوجها كانت هادئة ورابطة الجأش إلى حد يدعو للدهشة، وأخيرًا وافقتا على اقتراح شقيقي. ولأنهم عقدوا العزم على أن يسلكوا طريق «جريت نورث رود»، فقد تقدموا نحو «بارنيت» وشقيقي يقود الجواد ليحافظ عليه قدر المستطاع. مع ارتفاع الشمس في كبد السماء اشتد قيظ النهار كثيرًا، وازداد لهب الرمال الكثيفة الضاربة إلى البياض وبريقها، حتى إنهم اضطروا إلى التمهل كثيرًا في سيرهم. كانت سياجات الشجيرات رمادية اللون من أثر الغبار. ومع تقدمهم نحو «بارنيت» كان صوت دمدمة صاخبة يزداد وضوحًا.

بدءوا يلتقون أناسًا أكثر؛ في الأغلب كانوا يحدقون فيهم يغمغمون بأسئلة مبهمة يتملكهم الإنهاك والكلل وفي هيئاتهم رثاثة. مر بجوارهم رجل يسير على قدميه مرتديًا ثياب النوم وعيناه تنظران إلى الأرض. سمعوا صوته، وعندما التفتوا إليه، رأوا إحدى يديه متشبثة بشعره والأخرى تضرب أشياء غير مرئية. عندما انتهت نوبة غضبه، واصل طريقه دون أن ينظر وراءه ثانية.

بينما كان شقيقي والسيدتان يتقدمون نحو مفترق الطرق المؤدي إلى جنوب «بارنيت» شاهدوا امرأة تقترب من الطريق عبر بعض الحقول على يسارهم وهي تحمل

طفلًا ويرافقها آخران، ثم مر رجل يرتدي ملابس سوداء متسخة يحمل عصا غليظة في يد وحقيبة سفر صغيرة في اليد الأخرى. وبعدها وعند منعطف الزقاق — من بين المنازل التي تحميه عند نقطة التقائه بالطريق الرئيسي — ظهرت عربة صغيرة يجرها حصان أسود يتصبب عرقًا ويقودها شاب شاحب الوجه يرتدي قبعة مستديرة رمادية اللون من أثر الغبار. كانت هناك ثلاث فتيات — يعملن في مصانع «إيست إند» — وطفلان صغيران مكدَّسين داخل العربة.

سأل السائق بوجهه الشاحب وعينيه اللتين تشعان خوفًا: «هل يقودنا هذا الطريق إلى «إدجوير»؟» وعندما أخبره شقيقي أنه بوسعه الوصول إلى هناك إذا انعطف يسارًا، ضرب الرجل بسوطه في الحال دون أن يوجه كلمة شكر لشقيقي.

لاحظ شقيقي ضبابًا أو دخانًا رماديًّا باهتًا يرتفع من بين المنازل أمامهم يحجب الواجهة البيضاء لصف من المنازل على الجانب الآخر من الطريق. وفجأة صرخت السيدة إلفنستون عندما رأت عددًا من ألسنة اللهب الأحمر الدخاني يتحرك بسرعة فوق المنازل أمامهم قبالة السماء الزرقاء الساخنة. تبددت الضوضاء الصاخبة إلى مزيج متداخل لأصوات عديدة ما بين قعقعة العجلات وصرير العربات وضربات حوافر الخيول. انعطف الزقاق بحدة فجأة على بعد أقل من خمسين مترًا من المفترق.

صاحت السيدة إلفنستون: «يا إلهي! ما هذا الذي تقودنا نحوه؟»

توقف شقيقي.

كان الطريق الرئيسي يشهد سيلًا فائرًا من الناس؛ إعصارًا من البشر يهرعون نحو الشمال وكل واحد يحاول التقدم على الآخر. غيمة كبيرة من الغبار — بيضاء براقة في وهج الشمس — جعلت كل شيء حتى ارتفاع نحو عشرة أمتار رماديًّا غير واضح المعالم، وكانت تتجدد على الدوام بفعل الأقدام المسرعة للحشد الهائل من الخيول والرجال والنساء الذين يسيرون على الأقدام وبفعل عجلات المركبات التي تتحرك في كل اتجاه.

سمع شقيقي أصواتًا تصيح: «الطريق! أفسحوا الطريق!»

كان الأمر أشبه بمن يتحرك وسط دخان إحدى الحرائق وذلك بغية الاقتراب من نقطة التقاء الزقاق بالطريق؛ صاح الحشد بصوت يشبه معمعة النار، وكان الغبار ملتهبًا حارًّا. كان منزل ريفي على الطريق يحترق ويبعث كتلًا متكورة من الدخان الأسود يُضاف إلى اضطراب المشهد.

مر رجلان بجوارهم، تلتهما امرأة رثة الهيئة تحمل صرَّة صغيرة وتذرف الدموع. دار حولهم كلب صيد تائه لسانه يتدلى من فمه والفزع والبؤس يملآنه، ثم فرَّ عندما هدده شقيقي.

على مرمى البصر في الطريق المؤدي إلى لندن وبين المنازل إلى اليمين كان سيل هائج من أناس يركضون وفي هيئتهم رثاثة، تحيط بهم المنازل الريفية على كلا الجانبين. أصبحت الرءوس السوداء والهياكل المحتشدة أكثر وضوحًا مع اندفاعها نحو مفترق الطريق حيث ركضوا مارين بهم واختلطوا مرة ثانية مع الحشد المتقهقر الذي اختفى أخيرًا وسط سحابة من الغبار.

تعالت الأصوات: «تقدَّموا! تقدَّموا! أفسحوا الطريق! أفسحوا الطريق!»

كانت يد كل واحد في الحشد تضغط على ظهر آخر. وقف شقيقي عند رأس الحصان. ومع ضغط الحشد بما لا يمكن معه المقاومة، تقدم رويدًا رويدًا على طول الزقاق.

كانت «إدجوير» مسرحًا للفوضى، و«تشوك فارم» مشهدًا من الاضطراب الصاخب، لكن حشدًا بأكمله من السكان كان يتحرك. من الصعب تخيل صورة ذلك الحشد. لم يكن ثمة صفة تميزه. تدفق الجمع مرورًا بالمفترق، وتراجعوا بظهورهم إلى المجموعة التي كانت في الزقاق. وعلى الأطراف ظهر أولئك الذين كانوا يسيرون على الأقدام تهددهم عجلات العربات، ويتعثرون في القنوات، ويتخبط بعضهم في بعض.

تكدست العربات بعضها بالقرب من بعض، لا تترك مسافة كافية من أجل تلك السيارات الأكثر سرعة والأقل صبرًا، التي كانت تنطلق للأمام بين الحين والحين متى رأت الفرصة سانحة لذلك؛ لتتسبب في تفريق الحشد نحو سياجات المنازل الريفية وبواباتها.

تكررت الصيحة: «تقدَّموا! تقدَّموا! إنهم قادمون!»

داخل إحدى العربات وقف رجل ضرير يرتدي الزي الرسمي الذي يرتديه أفراد «جيش الخلاص» يلوح بأصابعه المعقوفة ويصيح: «الخلود! الخلود!» كان صوته أجش وجهوريًّا حتى إن شقيقي استطاع سماعه بعد أن ابتلع الغبار العربة وأخفاها عن ناظريه. بعض الذين تكدسوا داخل العربات كانوا يضربون خيولهم بالسياط بحماقة، ويتشاجرون بعضهم مع بعض، والبعض ظل بلا حراك يحدق في الفراغ بعيون ملؤها التعاسة، وبعضهم أخذوا يقضمون أياديهم من شدة الظمأ، أو تمددوا أرضًا داخل العربة التي تقلهم. كانت شكائم الخيول مغطاة بالرغاوي، وعيونها محتقنة بالدماء.

كان هناك عدد لا حصر له من سيارات الأجرة وعربات تجرها الخيول وعربات التسوق، بالإضافة إلى عربة بريد وإحدى عربات تنظيف الشوارع عليها شعار «مجلس كنيسة سان بانكراس» وعربة أخشاب كبيرة مكتظة بأناس تبدو عليهم الجلافة. قعقعت على الطريق عربة لنقل الجعة، وكانت عجلتاها القريبتان ملطختين بدماء لم تجف بعد.

تعالت الصيحات: «أفسحوا الطريق! أفسحوا الطريق!»

سُمع صدى صوت من الطريق: «الخلود! الخلود!»

كانت هناك نساء حسناوات الهندام يكسو الإنهاك والأسى وجوههن وهن يسرن على الأقدام برفقة أطفال يذرفون الدمع ويتعثرون في خطاهم، وملابسهم الأنيقة مغبرَّة ووجوههم المتعبة ملطخة بالدموع. ومع الكثير من هؤلاء ظهر رجال كانوا يمدون يد العون في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانوا متجهمين شرسين. وسط الحشد أيضًا تدافع بعض المشرَّدين يرتدون أسمالًا سوداء باهتة عيونهم فاغرة وأصواتهم مرتفعة وألسنتهم تنضح ببذيء الكلام. كان هناك عدد من العمال شداد البنيان يتدافعون إلى جانب رجال يبدو عليهم البؤس والرثاثة يتسربلون بملابس الموظفين أو عمال المتاجر ويتصارعون بين الحين والحين؛ فضلًا عن جندي مصاب انتبه إليه شقيقي، ورجال يرتدون ملابس حمَّالي السكة الحديدية، وكائن بائس في ثوب نوم فوقه معطف.

لكن على الرغم من تنوع أطياف الحشد، فإنهم كانوا يشتركون في أشياء بعينها. كانت ملامح الخوف والألم تكسو وجوههم. كان هناك جلبة على الطريق وشجار من أجل الحصول على مكان داخل إحدى العربات جعلا الحشد بأسره يسرع الخطى؛ حتى إن رجلًا ركبتاه كانتا متقوستين أسفله من شدة الرعب والوهن تنبَّه فجأة ودب فيه النشاط هنيهة. كانت حرارة الجو وغباره يفعلان فعلهما في هذا الحشد. كانت جلودهم جافة، وشفاههم متشققة داكنة اللون. كانوا جميعًا ظمأى منهكين متقرحي الأقدام. ووسط الصرخات المتنوعة كانت تُسمع النزاعات وعبارات التوبيخ وأنَّات الإنهاك والتعب، وكانت معظم تلك الأصوات جشَّاء واهنة. من العبارات التي كثر تكرارها: «أفسحوا الطريق! أفسحوا الطريق! المريخيون قادمون!»

توقف عدد قليل، وابتعدوا عن ذلك السيل الجارف. انفتح الزقاق في ميل على الطريق الرئيسي بفتحة ضيقة. كان طوفان من البشر يتوجه نحو فتحته، وضعاف الأجسام يشقون طريقهم بمرافقهم خارج الحشد لينالوا قسطًا ضئيلًا من الراحة قبل أن ينضموا إلى الحشد مجددًا. على مسافة قليلة من بداية الزقاق تمدد رجل — ومعه

صديقان محنيان فوقه — بقدم مكشوفة مضمدة بأسمال ملطخة بالدماء. كان الرجل محظوظًا لكون صديقيه معه.

عرج رجل مسن ضئيل الجسم ذو شارب أشيب يرتدي معطفًا طويلًا أسود متسخًا، وجلس بجوار العربة وخلع حذاءه — فظهر جوربه الملطخ بالدماء — وأزال منه حصاة، ثم واصل مشيته العرجاء ثانية، بعد ذلك ألقت فتاة صغيرة وحيدة في الثامنة أو التاسعة من عمرها نفسها أسفل سياج الشجيرات بجوار شقيقي وأخذت تبكي: «لا أستطيع الاستمرار! لا أستطيع الاستمرار!»

أفاق شقيقي من خَدَر الذهول، ورفعها، وتحدث إليها برفق، ثم حملها إلى الآنسة إلفنستون. وما إن لمسها حتى هدأت تمامًا، لكأنها كانت مذعورة.

صاحت سيدة من بين الحشد وأثر الدموع يظهر في صوتها: «إلين! إلين!» هبت الفتاة فجأة مبتعدة عن شقيقي وهي تصيح: «أمي!»

قال رجل على صهوة جواد يمر بمحاذاة الزقاق: «إنهم قادمون.»

وصاح سائق عربة يعلو برأسه عن الآخرين: «ها هم هنالك!» ورأى شقيقي عربة مغلقة تنعطف داخل الزقاق.

تدافع الناس للخلف واحدًا بعد آخر بغية تفادي الحصان. دفع شقيقي الحصان والعربة إلى الخلف داخل سياج الشجيرات، وتقدم الرجل ثم توقف عند منعطف الطريق. كانت عربة بها عمود يتسع لاثنين من الخيول، لكن واحدًا فحسب كان مشدودًا إلى العربة. شاهد شقيقي وسط الغبار صورة غير واضحة لرجلين يرفعان شيئًا فوق مِحفَّة بيضاء ويضعانه برفق على العشب تحت سياج الشجيرات.

هرع أحد الرجلين نحو شقيقي.

قال الرجل: «من أين لي بالماء؟ إنه يحتضر، وقد بلغ به الظمأ مبلغه. إنه اللورد جاريك.»

قال شقيقي: «لورد جاريك؟ قاضي القضاة؟»

قال الرجل: «الماء؟»

قال شقيقي: «ربما يكون هناك صنبور في أحد المنازل. ليس لدينا ماء، ولا أستطيع ترك رفيقتيّ وحدهما.» اندفع الرجل عكس اتجاه الحشد نحو بوابة المنزل الكائن عند مفترق الطريق.

قال الناس وهم يدفعونه: «هيا! إنهم قادمون! هيا!»

ثم تحول اهتمام شقيقي إلى رجل ذي لحية ووجه أشبه بوجه النسر يجر حقيبة يد صغيرة انشقت في اللحظة نفسها التي وقعت فيها عينا شقيقي عليها، وخرجت منها كتلة من النقود الذهبية تبعثرت على هيئة عملات متفرقة مع ارتطامها بالأرض. تدحرجت النقود هنا وهناك وسط أقدام الرجال والخيول التي تشق طريقها بصعوبة. توقف الرجل، ونظر في حماقة إلى النقود، فاصطدمت عارضة إحدى العربات بكتفه ما أدى إلى اختلال توازنه. أطلق الرجل صيحة، وتراجع إلى الخلف، وكادت إحدى عجلات العربة تصيبه.

صاح الرجال حوله: «الطريق! أفسحوا الطريق!»

حالما مرت العربة، ألقى الرجل نفسه بيدين مفتوحتين على كومة النقود، وبدأ يأخذ منها ويضع في جيبه. ارتفع حصان بالقرب منه، وفي لحظة وجد نفسه أسفل حوافر الحصان.

صرخ شقيقي: «توقفوا!» وحاول — وهو يدفع سيدة من طريقه — الإمساك بشكيمة الحصان.

قبل أن يتمكن من الوصول إليها، سمع صرخة أسفل العجلات، ورأى وسط الغبار إطار العجلة يمر فوق ظهر الرجل التعس. ضرب السائق بالسوط نحو شقيقي الذي ركض خلف العربة. أربكت الصيحات المتعددة أذنيه. كان الرجل يتلوى وسط الغبار بين نقوده المبعثرة غير قادر على النهوض بعد أن كسرت العجلة ظهره وتمددت أطرافه السفلية عاجزة بلا حراك. وقف شقيقي وصرخ في السائق التالي، وتقدم رجل يمتطي حصانًا أسود لمساعدته.

قال: «أبعده عن الطريق.» فأمسك شقيقي ياقة الرجل بيده وسحبه جانبًا، لكنه ما زال متشبثًا بنقوده، وحدج شقيقي بنظرة حادة وهو يضرب على يده بقبضته المليئة بالذهب. تعالت الأصوات الغاضبة من الخلف: «تقدموا! تقدموا!»

«أفسحوا الطريق! أفسحوا الطريق!»

سُمع صوت تحطم، إذ اصطدمت عارضة إحدى العربات بالعربة التي أوقفها الرجل على صهوة الحصان. رفع شقيقي بصره، وأدار صاحب الذهب رأسه، وقضم المعصم الذي كان يمسك بياقته. وقع صدام عنيف، وتقدم الحصان الأسود يترنح جانبًا، واندفع حصان العربة بجواره. نجت قدم شقيقي من أحد الحوافر بشق الأنفس، فحرر قبضته من الرجل الممدد أرضًا، واندفع للخلف. رأى الغضب يستحيل فزعًا على وجه

البائس المدد أرضًا، واختفى الرجل في دقيقة، بينما تحرك شقيقي للخلف، ودُفع نحو فتحة الزقاق، واضطر للدخول في صراع قاس مع أفراد ذلك الحشد كي ينجو منه.

رأى الآنسة إلفنستون تغطي عينيها، وطفلًا صغيرًا — بكل ما لدى الأطفال من افتقاد للتعاطف مع الآخرين — يحدق بعينين فاغرتين في شيء مغبَّر يتمدد بلا حراك مسحوقًا أسفل العربات المتحركة. صاح: «لنعد إلى الخلف مرة أخرى!» وبدأ يدير الحصان. قال: «لن نستطيع اجتياز هذا الجحيم.» وتحركوا للخلف مائة متر في الطريق الذي جاءوا منه حتى اختفى الحشد المتنازع. أثناء مرورهم بمنعطف الزقاق شاهد شقيقي وجه الرجل المحتضر في القناة أسفل سياج الشجيرات، وكان وجهه بالغ الشحوب يلمع من كثرة العرق. التزمت السيدتان الصمت، وجثمتا في مقعديهما ترتجفان.

توقف شقيقي مجددًا بعد اجتياز المنعطف. كانت الآنسة إلفنستون شاحبة الوجه، وجلست زوجة أخيها تنتحب وقد تملكها البؤس حتى إنها لم تستطع الحديث عن «جورج». استبد الفزع والارتباك بشقيقي. فما إن تراجعوا حتى أدرك أنه لا مفر من أن يسلكوا الاتجاه الذي كانوا يسلكونه أولًا. استدار إلى الآنسة إلفنستون وقد بدا ثابت العزم فجأة.

قال: «لا بد أن نسلك ذلك الطريق.» واستدار بالحصان مجددًا.

للمرة الثانية ذلك اليوم أثبتت تلك الفتاة تميزها. فلكي يشقوا طريقهم وسط ذلك الحشد من الناس، اندفع شقيقي وسط الزحام وحال دون تقدم حصان كان يجر إحدى العربات، بينما قادت هي حصان العربة التي كانوا يستقلونها. تشابكت عجلات عربة أخرى تتبعهم مع عربتهم للحظة، وانتزعت شظية طويلة من عربة شقيقي ومرافقتيه. وفي لحظة أخرى وجدوا أنفسهم منجرفين وسط الحشد. اندفع شقيقي — بعد أن خلَّف سوط سائق العربة علامات حمراء على وجهه ويديه — إلى داخل العربة وأمسك بالزمام من الفتاة.

قال وهو يعطيها المسدس: «صوِّبي المسدس نحو الرجل الذي يتبعنا إذا ما بالغ في الضغط علينا. كلّا! صوِّبيه نحو حصانه.»

ثم بدأ يبحث عن فرصة للتحرك نحو اليمين على الطريق. لكن ما إن انجرف وسط الحشد حتى بدا وكأنه يفقد إرادته ويصبح جزءًا من ذلك الحشد الغفير المغمور غبارًا. تقدَّموا مع الحشد عبر «تشيبينج بارنيت». كانوا على بعد نحو ميل من مركز المدينة

قبل أن ينتقلوا بصعوبة إلى الجانب المقابل من الطريق. كان الصخب والارتباك يفوقان الوصف؛ أما في داخل المدينة، فكان الطريق يتفرع على نحو متكرر، وهذا ما خفَّف وطأة الوضع إلى حد ما.

اتجهوا شرقًا عبر «هادلي» وهناك على جانبي الطريق وفي مكان آخر على مسافة أبعد التقوا بحشد هائل من الناس يروون ظمأهم عند النهر، والبعض يكافح من أجل الوصول إلى المياه. وعلى مسافة أخرى وسط شيء من الهدوء بالقرب من «إيست بارنيت» شاهدوا قطارين يسيران ببطء واحدًا وراء الآخر دون إشارة أو نظام — حيث الناس يحتشدون داخل القطارات حتى إن بعضهم كان يتخذ مكانه بين الفحم خلف المحركات — متجهين شمالًا عبر «جريت نورثرن ريلواي». افترض شقيقي أنهما حتمًا قد امتلآ بالركاب من خارج لندن، لأن فزع الناس في ذلك الوقت كان قد جعل من المحطة المركزية مكانًا لا يطاق.

توقفوا بالقرب من ذلك المكان لما تبقى من الظهيرة، لأن العنف الذي شهده ذلك اليوم قد استنزف قوى ثلاثتهم. بدءوا يعانون بوادر الجوع؛ كان المساء باردًا، وجافى النوم أجفانهم. وفي المساء جاء عدد كبير من الناس يهرعون على الطريق بالقرب من المكان الذي كانوا يتوقفون فيه، يفرون من خطر مجهول أمامهم، ويتقدمون في الاتجاه الذي جاء منه شقيقي.

الفصل السابع عشر

«فتاة الرعد»

لو كان المريخيون يطمحون إلى الدمار فحسب، لأبادوا مساء الاثنين جميع سكان لندن وهم ينتشرون رويدًا رويدًا في كل المقاطعات المحيطة بالمدينة. تدفق الحشد المهتاج ليس فقط على طول الطريق عبر «بارنيت»، بل أيضًا عبر «إدجوير» و«وولثام أبي»، وعلى طول الطرق المؤدية شرقًا إلى «ساوث إند» و«شوبيرينيس»، وجنوب نهر «التيمز» حتى «ديل» و«برودستيرز». لو أن أحدًا استطاع في ذلك الاثنين من شهر يونيو أن يتدلى من منطاد وسط الزرقة المتقدة فوق لندن، لبدت كل الطرق شمالًا وشرقًا وكأنها مرقطة بنقاط سوداء من أثر اللاجئين المتدفقين؛ كل نقطة تجسِّد كربًا نفسيًّا ومعاناة بدنية. استعرضتُ على نحو تفصيلي في الفصل الأخير قصة شقيقي في الطريق نحو «تشيبينج بارنيت» حتى يدرك القراء المهتمون كيف كانت تبدو تلك النقاط السوداء المحتشدة. للمرة الأولى في تاريخ العالم يتحرك مثل هذا الحشد من البشر ويشتركون في المعاناة معًا. لم تكن الحشود الأسطورية للقوطيين والهونيين سوى قطرة في ذلك السيل. ولم يكن ذلك الزحف منظمًا، بل كان فرارًا جماعيًّا — مهولًا مرعبًا — يفتقر إلى النظام والهدف؛ ستة ملايين فرد عُزَّل غير مزودين بالمؤن يتحركون بسرعة. كانت تلك بداية انكسار الحضارة، ومذبحة البشر.

كان راكب المنطاد سيرى أسفله مباشرة شبكة الشوارع في كل مكان حيث المنازل والكنائس والميادين والحدائق — التي أصبحت مهجورة حينئذ — منتشرة مثل خريطة هائلة مرقطة ناحية الجنوب. وفوق «إيلينج» و«ريتشموند» و«ويمبلدون»، بدا المشهد وكأن قلمًا مهولًا قد قذف ما فيه من حبر فوق الخريطة. وبثبات ودونما توقف، ازدادت كل بقعة وامتدت لتنطلق منها تفرعات هنا وهناك؛ تارة تحشد نفسها قبالة أرض

مرتفعة، وتارة تتدفق سريعًا على إحدى القمم في وادٍ مكتشف حديثًا، تمامًا مثلما تنتشر بقعة الحبر فوق ورق النشَّاف.

وبعيدًا فوق التلال الزرقاء التي تعلو جنوب النهر، تحرك المريخيون المتلألئون جيئة وذهابًا، وفي هدوء ونظام أخذوا ينشرون سحابتهم السامة فوق هذه البقعة من المدينة وفوق تلك، ثم يقضون عليها مجددًا باستخدام البخار بعد أن تؤدي الغرض المطلوب منها ويستولون على المدينة المنتزعة. لا يبدو أنهم يسعون إلى الإبادة بقدر ما كانوا يسعون إلى التثبيط الكامل للهمم والقضاء على أي مقاومة. فجروا أي مستودع للبارود كانوا يعثرون عليه، وقطعوا خطوط التلغراف، ودمروا السكك الحديدية هنا وهناك. كانوا يريدون تعجيز البشر. ويبدو أنهم لم يكونوا في عجالة بشأن مد نطاق عملياتهم، إذ لم يبتعدوا عن الجزء المركزي في لندن طوال ذلك اليوم. يجوز أن عددًا كبيرًا من الناس في لندن التزموا البقاء في منازلهم صباح الاثنين، ومؤكد أن الكثيرين لقوا حتفهم في منازلهم مختنقين بفعل «الدخان الأسود».

حتى نحو منتصف النهار، كان حوض السفن في لندن مشهدًا مثيرًا للدهشة؛ إذ كانت السفن البخارية والسفن من جميع الأنواع موجودة بدافع إغراء المبالغ الهائلة من النقود التي يعرضها اللاجئون، ويُذكر أن العديد ممن سبحوا خارج تلك السفن قد دفعتهم خطاطيف الزوارق ولقوا حتفهم غرقًا. نحو الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم، ظهرت الآثار الضامرة لإحدى سحب البخار الأسود بين قناطر جسر «بلاكفرايرز». عندها أصبح حوض السفن مسرحًا للفوضى الجامحة والقتال والاصطدام، ولبعض الوقت تكدست العديد من القوارب والزوارق الكبيرة في القنطرة الشمالية لجسر «تاور بريدج»، واضطر البحارة وقادة الزوارق إلى الدخول في قتال عنيف مع من احتشدوا حولهم من ناحية النهر. كان الناس يتسلقون ركائز الجسر نزولًا من أعلاه.

عندما ظهر أحد المريخيين — بعد مرور ساعة — وراء «برج الساعة» وخاض مياه النهر، لم يكن شيء سوى حطام السفن يسبح فوق «لايمهاوس».

سأرجئ الحديث عن سقوط الأسطوانة الخامسة بعض الوقت. سقط النجم السادس في «ويمبلدون». رأى شقيقي — الذي ظل يراقب المشهد بجوار السيدتين داخل العربة في أحد المروج — وهجه الأخضر بعيدًا فيما وراء التلال. وفي يوم الثلاثاء شقت المجموعة الصغيرة — التي كانت لا تزال عازمة على عبور البحر — طريقها عبر الريف المكتظ بالحشود نحو «كولتشستر». تأكدت الأخبار الخاصة باستيلاء المريخيين على لندن بأسرها

حينئذ، إذ شوهدوا في «هايجيت»، بل قيل إنهم شوهدوا في «ناسدن». لكن شقيقي لم يرهم حتى اليوم التالي.

في ذلك اليوم بدأت الحشود المتفرقة تدرك الحاجة الملحة للتزود بالمؤن. ومع زيادة شعورهم بالجوع لم يعد أحد يكترث بحقوق الملكية. خرج المزارعون ليذودوا عن حظائر الماشية ومخازن الحبوب والخضراوات اليانعة حاملين الأسلحة في أياديهم. توجه عدد من الناس الآن — مثل شقيقي — ناحية الشرق، بل إن بعض البائسين عادوا أدراجهم باتجاه لندن بغرض الحصول على طعام. كان هؤلاء القوم في الأساس من الضواحي الشمالية، وكل معرفتهم عن الدخان الأسود كانت مما سمعوه من الآخرين. تناهى إلى أسماعه أن نحو نصف أعضاء الحكومة قد اجتمعوا في «بيرمنجام»، وأن كميات ضخمة من المواد شديدة الانفجار كانت تُعَد للاستخدام في زرع ألغام عبر الأجزاء الداخلية من البلاد.

كان مما سمعه أيضًا أن شركة «ميدلاند ريلواي» قد استبدلت بالعمال الذين فروا وسط موجة الذعر في اليوم الأول عمالًا آخرين، وأنها استأنفت العمل، وكانت تشغل القطارات المتجهة شمالًا من «سانت ألبانز» من أجل تخفيف الزحام في المقاطعات المحيطة بلندن. كانت هناك أيضًا لافتة في «تشيبينج أونجار» تقول إن كميات كبيرة من الدقيق متوافرة في المدن الشمالية، وإنه في غضون أربع وعشرين ساعة سيوزَّع الخبز بين الجوعى في المناطق المجاورة. لكن تلك المعلومة لم تثنِه عن خطة الفرار التي وضعها، وتوجه الثلاثة شرقًا طوال ذلك اليوم، ولم يسمعوا عن توزيع الخبز شيئًا سوى هذا الوعد. والحقيقة أن الآخرين لم يسمعوا شيئًا عنه أيضًا. سقط النجم السابع تلك الليلة فوق تل «بريمروز». سقط النجم بينما كانت الآنسة إلفنستون تراقب الوضع؛ ذلك أنها اضطلعت بتلك المهمة بالتناوب مع شقيقي.

في يوم الأربعاء وصل الفارّون الثلاثة — بعد أن قضوا الليل في أحد حقول القمح غير اليانع — «تشلمسفورد»، وهناك استولت مجموعة من السكان تطلق على نفسها اسم «لجنة الإمدادات العامة» على الحصان دون أن تعطيهم شيئًا في المقابل باستثناء وعد بالحصول على نصيب من المال في اليوم التالي. هنا انتشرت شائعات عن وصول المريخيين إلى «إيبينج»، وأخبار عن الدمار الذي لحق بمصانع بارود «والثام أبي» في محاولة بائسة لتفجير أحد الغزاة.

كان الناس يراقبون المريخيين من أبراج الكنائس. آثر شقيقي — وصادف أن كان ذلك من حسن حظه — مواصلة الطريق على الفور إلى الساحل بدلًا من انتظار

الطعام، بالرغم من أن الثلاثة كانوا يتضورون جوعًا. مع حلول منتصف النهار مروا على «تيلينجام» التي بدت — على نحو غريب للغاية — مهجورة وساكنة تمامًا إلا من بعض اللصوص المتسللين بحثًا عن الطعام. بالقرب من «تيلينجام» رأوا البحر فجأة، ورأوا أكثر حشد مذهل من كافة أنواع السفن التي يمكن تخيلها.

بعد أن عجز البحَّارة عن الوصول إلى نهر «التيمز»، قدِموا إلى ساحل «إسكس»، وإلى «هاريتش» و«والتون» و«كلاكتون»، وبعدها إلى «فولنيس» و«شوبيري» لنقل السكان. وقفوا في منحنى منجلي الشكل تختفي نهايته وسط الضباب باتجاه «نيز». وعلى مقربة من الشاطئ شوهد العديد من قوارب الصيد — إنجليزية، وأسكتلندية، وفرنسية، وهولندية، وسويدية — وزوارق بخارية من نهر «التيمز»، ويخوت، وقوارب كهربائية، وعلى مسافة كانت توجد سفن ذات حمولات كبيرة، وحشد من عمال المناجم رثي الهيئة، والتجار المتأنقين، والسفن المخصصة لنقل الأنعام، وقوارب نقل الركاب، وحاويات النفط، وسفن الشحن العابرة للمحيطات، وسفينة لنقل الجند بيضاء قديمة، وسفن ركاب بيضاء ورمادية أنيقة من «ساوثامبتون» و«هامبورج»؛ وعلى طول الساحل الأزرق لنهر «بلاك ووتر»، استطاع شقيقي أن يميز دون وضوح حشدًا غفيرًا من القوارب يتفاوض أصحابها حول السعر مع الأفراد الواقفين على الشاطئ؛ حشدًا امتد هو الآخر على طول نهر «بلاك ووتر» حتى كاد يصل إلى «مالدون».

على بعد نحو ميلين استقرت سفينة حربية مدرعة على عمق كبير في المياه حتى إنها بدت لشقيقي كسفينة غائصة في المياه. كانت هذه «فتاة الرعد». كانت السفينة الحربية الوحيدة على مرمى البصر، غير أنه بعيدًا نحو اليمين أعلى السطح المستوي للبحر — إذ كانت الرياح هادئة تمامًا ذلك اليوم — ظهر دفق متلوٍّ من الدخان الأسود يشير إلى المدرعات الحربية التالية في «تشانيل فليت»؛ تلك المدرعات التي ظلت واقفة في صف ممتد على استعداد للتحرك في الجانب الآخر من مصبِّ نهر «التيمز» أثناء الغزو المريخي، ومع ما كانت عليه من انتباه، فإنها عجزت عن فعل أي شيء للحيلولة دون ذلك الغزو.

عند رؤية منظر البحر استسلمت السيدة إلفنستون للشعور بالهلع على الرغم من تطمينات شقيقة زوجها. لم يحدث من قبل أن غادرت إنجلترا. كانت تفضل الموت على الحياة وحيدة في بلد أجنبي. من الواضح أن المرأة المسكينة قد تخيلت أنه لا فرق بين الفرنسيين والمريخيين. كان شعورها بالهلع والخوف والإحباط يتزايد شيئًا فشيئًا على مدار اليومين اللذين استغرقتهما رحلة الفرار. كانت تفكر في العودة إلى «ستانمور». لطالما كان كل شيء على ما يرام في «ستانمور»، ولربما أيضًا وجدوا جورج هناك.

بصعوبة بالغة نجحا في إنزالها إلى الشاطئ حيث نجح شقيقي بعدها بقليل في لفت انتباه بعض الرجال على متن باخرة من نهر «التيمز». أرسلوا قاربًا، وعقدوا اتفاقًا لنقل الثلاثة مقابل ستة وثلاثين جنيهًا. قال الرجال إن الباخرة متجهة إلى «أوستيند».

كانت الساعة نحو الثانية عندما وجد شقيقي نفسه — بعد دفع أجرة الركوب على سلم السفينة — آمنًا بصحبة مرافقتيه على متن قارب بخاري. وجدوا طعامًا على متن القارب وإن كان بأسعار باهظة، وتمكن الثلاثة من تناول وجبة في مقدمة القارب.

كان على متن القارب عدد كبير من الركاب بعضهم أنفق آخر ما لديهم من مال في دفع أجرة السفر، لكن الربَّان ظل واقفًا عند نهر «بلاك ووتر» حتى الخامسة بعد الظهر يملأ القارب بالركاب حتى اكتظ سطح القارب على نحو منذر بالخطر. كان من الممكن أن ينتظر أكثر من ذلك لولا صوت المدافع التي انطلقت تلك الساعة في الجنوب. وفيما بدا أنه ردٌّ على ذلك، أطلقت المدرعة الحربية طلقة صغيرة ورفعت صفًّا من الأعلام. وانطلق دفق من الدخان من مداخنها.

بعض الركاب رأوا أن صوت الإطلاق قادم من «شوبيرينيس» حتى لوحظ أنه يعلو تدريجيًّا. في الوقت نفسه، وعلى مسافة بعيدة في الجنوب الشرقي ارتفعت صاريات ثلاث سفن حربية مدرعة واحدة بعد أخرى من البحر تغطيها سحب من الدخان الأسود. لكن انتباه شقيقي تحول سريعًا إلى إطلاق النيران البعيد في الجنوب. خيِّل له أنه رأى عمودًا من الدخان يرتفع من بين الضباب الرمادي البعيد.

كانت السفينة البخارية الصغيرة تتحرك في طريقها نحو الشرق وساحل «إسكس» يزداد زرقة وضبابية عندما ظهر أحد المريخيين — صغير الحجم غير واضح المعالم من بعد — يشق طريقه على طول الساحل الطيني من ناحية «فولنيس». عندها أخذ الربَّان يلعن تأخيره بأعلى صوته في غضب وخوف، وبدا أن رعبه قد انتقل إلى البحارة. وقف جميع الركاب على جانب السفينة أو فوق المقاعد يحدقون في ذلك الهيكل البعيد — الذي كان يفوق الأشجار وأبراج الكنائس طولًا — وهو يتقدم بخطى واسعة تحاكي خطى البشر.

كان هذا أول مريخي يراه شقيقي، فوقف — ودهشته تفوق خوفه — يشاهد ذلك العملاق وهو يتقدم قاصدًا السفن ويخوض في المياه أكثر فأكثر مع انحدار الساحل. بعدها وعلى مسافة أبعد ظهر مريخي ثان يخطو خطوات واسعة فوق بعض الأشجار الصغيرة، وبعدها ظهر مريخي آخر يخوض بعمق في بركة طينية بدت وكأنها عالقة في

منتصف المسافة بين البحر والسماء. كانوا جميعًا يتقدمون نحو البحر وكأنهم يعترضون فرار حشد السفن المكتظة بالركاب بين «فولنيس» و«نيز». وعلى الرغم من الجهد المحموم لمحركات القارب الصغير، والزبد الذي كانت تطرحه عجلات القارب وراءه، فإنه تقهقر في حركة بطيئة مثيرة للفزع بسبب تقدم المريخيين المنذر بالسوء.

بالنظر جهة الشمال الغربي، رأى شقيقي هلالًا كبيرًا من السفن يتحرك مع تحرك ذلك الهلع الوشيك؛ سفينة تمر وراء أخرى، سفن بخارية تصفر وتطلق كميات هائلة من البخار، أشرعة تُرفع، وزوارق بخارية تندفع هنا وهناك. أُخذ شقيقي للغاية بهذا المشهد وبالخطر المتسلل بعيدًا نحو اليسار، حتى إنه لم يعد ينظر باتجاه البحر. حينها تحركت السفينة البخارية (إذ غيرت اتجاهها كي تتلافى الاجتياح) حركة مفاجئة طرحته من المقعد الذي كان يقف عليه. كان هناك صياح في كل مكان حوله، ووقع أقدام، وهتاف بدا غير مجاب بالكاد. ترنحت السفينة متسببة في تقلبه على يديه.

انتصب على قدميه ورأى إلى اليمين وعلى بعد أقل من مائة متر من سفينتهم المتمايلة كتلة حديدية ضخمة تشبه نصل محراث يشق المياه قاذفًا بها على كلا الجانبين في موجات هائلة من الزبد انطلقت نحو السفينة البخارية، رافعة نصالها عديمة الحيلة في الهواء، ثم دافعة إياها مجددًا لتغوص في الماء حتى يوشك الماء على غمر السطح.

أعمى سيل من الماء شقيقي هنيهة. وعندما استعاد القدرة على الرؤية مجددًا رأى أن الوحش قد تجاوزهم وأنه يندفع نحو اليابسة. ظهر سطح حديدي ضخم من ذلك الهيكل المسرع، ومنه برز أنبوبان أطلقا طلقة دخان ونار. كانت هذه «فتاة الرعد» تتقدم بسرعة من أجل إنقاذ السفن التي يحيق بها الخطر.

أمَّن شقيقي موقع قدميه على سطح السفينة المزدحم بأن تشبث بجانب السفينة، ونظر إلى المريخيين مرة أخرى، فرأى ثلاثة منهم قريبين بعضهم من بعض يقفون على مسافة بعيدة جدًّا في البحر حتى إن دعاماتهم الثلاثية كادت تكون مغمورة بالكامل في المياه. على هذه الحالة ومن هذه المسافة البعيدة، بدوا أقل إثارة للرعب بكثير من الجسم الحديدي الضخم الذي تتمايل في أثره السفينة البخارية على نحو بائس. يبدو أنهم كانوا يشاهدون ذلك الخصم الجديد في دهشة. ربما ظنوا أن هذا الخصم العملاق أشبه بواحد مثلهم. لم تطلق «فتاة الرعد» أي طلقات، بل اكتفت بالتقدم نحوهم بأقصى سرعتها. ربما يكون عدم إطلاقها شيئًا هو ما مكنها من الاقتراب من العدو على هذا النحو، فهم لم يفهموا شيئًا عن ماهيتها. لو أن قذيفة واحدة أُطلقت، لأغرقوها على الفور تحت الأعماق باستخدام الشعاع الحراري.

كانت تنطلق بتلك السرعة حتى إنها في غضون دقيقة بدت في منتصف الطريق بين السفينة البخارية والمريخيين؛ بدت كتلة سوداء متضائلة قبالة الامتداد الأفقي المنحسر لساحل «إسكس».

فجأة أدنى المريخي الأول أنبوبه وأطلق قذيفة شظايا من الغاز الأسود نحو السفينة الحربية المدرعة. ارتطمت القذيفة بميسرة السفينة وارتدت على هيئة دفق قاتم اتجه نحو البحر؛ سيل ممتد من الدخان الأسود تفادته السفينة الحربية المدرعة. بدت «فتاة الرعد» أمام المشاهدين في السفينة البخارية — من مكانهم في المياه والشمس في أعينهم — أنها بالفعل وسط المريخيين.

رأوا الهياكل المخيفة تنفصل وتبرز من المياه مع تقهقرها نحو الشاطئ، بينما رفع أحدها مولِّد الشعاع الحراري الشبيه بآلة التصوير. أمسك به موجهًا إياه بميل إلى أسفل، وانبعثت غيمة من البخار من المياه ما إن لمسها. لا بد أنه اخترق جانب السفينة مثلما يخترق قضيب حديدي متقد إحدى الأوراق.

ارتفعت ومضة من اللهب من بين البخار المتصاعد، ثم تمايل المريخي وترنح. وفي دقيقة أخرى طُرح المريخي أرضًا، وانطلقت كتلة كبيرة من المياه والبخار عاليًا في الهواء. تردد صوت مدافع «فتاة الرعد» من بين البخار، تنطلق واحدًا بعد آخر، وتسببت إحدى الطلقات في تناثر المياه عاليًا قرب السفينة البخارية، ثم ارتدت باتجاه السفن المسرعة إلى الشمال، وحطَّمت أحد مراكب الصيد إلى شظايا صغيرة.

لكن أحدًا لم ينتبه كثيرًا لذلك. فعند مشاهدة انهيار المريخي صاح الربَّان صيحة مبهمة، وصاح حشد الركاب على متن السفينة البخارية معًا، ثم أطلقوا صيحة ثانية. بعدها تحرك شيء طويل أسود، وومضات اللهب تنبعث من منتصفه، والنيران تنطلق من فتحات التهوية والمداخن.

كانت «فتاة الرعد» لا تزال تعمل؛ يبدو أن تروس القيادة لم تمس بسوء، والمحركات كانت تعمل. توجهت مباشرة إلى مريخي ثان، وكانت على مسافة مائة متر منه عندما استُخدم الشعاع الحراري. انطلق صوت دوي عال وشوهد وهج براق، وتحركت أسطح السفينة ومداخنها إلى الأعلى. ترنح المريخي من أثر الانفجار، وفي دقيقة أخرى اصطدم به الحطام المتوهج للسفينة — التي لا تزال تندفع إلى الأمام — بالمريخي وسحقته كما لو كان قطعة من الكرتون. صاح شقيقي صيحة لا إرادية، وبعدها حجبت كتلة من البخار المغلي كل شيء مجددًا.

صاح الربَّان: «اثنان!»

كان الجميع يهللون. دوت السفينة البخارية من أولها لآخرها بأصوات التهليل المحموم الذي انطلق من إحدى السفن أولًا ثم تلتها في ذلك الحشود الغفيرة للسفن والقوارب التي كانت تشق طريقها في البحر.

ظل البخار عالقًا فوق المياه عدة دقائق يحجب المريخي الثالث والساحل تمامًا. وطوال كل هذا الوقت كان القارب البخاري يتقدم بثبات نحو البحر وبعيدًا عن القتال، وعندما انتهت الجلبة أخيرًا تدخَّلت غيمة منجرفة من البخار الأسود، ولم يستطع أحد رؤية شيء من «فتاة الرعد» أو المريخي الثالث. لكن السفن الحربية المدرعة المواجهة للبحر كانت قريبة جدًّا الآن وتقف ناحية الشاطئ بمحاذاة القارب البخاري.

واصل القارب الصغير تقدمه في البحر، وتراجعت السفن الحربية المدرعة شيئًا فشيئًا نحو الساحل الذي كان لا يزال محجوبًا عن الأنظار بفعل غيمة من الضباب بعضها بخار وبعضها غاز أسود يدوران ويمتزجان أحدهما مع الآخر على نحو أشد ما يكون من الغرابة. كان حشد النازحين يتحركون مشتتين نحو الشمال الشرقي، والعديد من قوارب الصيد الصغيرة تبحر بين السفن الحربية المدرعة والقارب البخاري. بعد فترة وقبل أن تصل السفن الحربية إلى موقع الغيمة الآخذة في الاختفاء، استدارت نحو الشمال، وفجأة غيرت اتجاهها لتجتاز ضباب الليل الكثيف نحو الجنوب. زادت ضبابية المشهد على الساحل، وفي النهاية أصبح غير واضح المعالم بسبب غيمات البخار المنخفضة التي كانت تتجمع حول الشمس الدالكة.

وفجأة من بين السديم الذهبي لشمس المغيب انطلق هدير المدافع، وتحركت بعض الظلال السوداء. تنازع الجميع من أجل الوصول إلى حاجز القارب البخاري، وألقوا نظرة على النيران المتوهجة ناحية الغرب، لكن لم يكن باستطاعة أحد أن يميز شيئًا بوضوح. تصاعدت كتلة من الدخان في خط متمايل وحجبت قرص الشمس. تقدم القارب البخاري في طريقه وسط شعور غير متناه من القلق.

غاصت الشمس وسط السحب الرمادية، وأظلمت السماء، وظهر نجم الليل مهتزًّا أمام الناظرين. كان قد مر وقت طويل على الغسق عندما صاح الربَّان وأشار بيده. حدق شقيقي النظر. اندفع شيء إلى الأعلى نحو السماء ... اندفع إلى الأعلى في خط منحن وبسرعة هائلة فوق السحب التي تنتشر في السماء ناحية الغرب؛ شيء مستو وعريض وضخم انطلق في خط منحن كبير وأخذ يتضاءل شيئًا فشيئًا ثم اختفى ثانية وسط سماء الليل. ومع اختفائه حلَّ الظلام على الأرض.

الكتاب الثاني

الأرض في قبضة المريخيين

الفصل الأول

تحت الأقدام

في الكتاب الأول حِدْت كثيرًا عن مغامراتي الخاصة لأتحدث عن التجارب التي مر بها شقيقي، وعلى مدار الفصلين الأخيرين كنت أنا والكاهن نختبئ في المنزل الخالي في «هاليفورد» حيث لذنا بالفرار هربًا من الدخان الأسود. ومن هناك سأواصل الحديث. بقينا هناك طوال ليل الأحد وطوال اليوم التالي — يوم الذعر — في جزيرة صغيرة يملؤها ضوء النهار وقد عزلها الدخان الأسود عن بقية العالم. لم يكن بمقدورنا فعل شيء سوى الانتظار وسط حالة من الخمول المؤلم خلال هذين اليومين المثيرين للضجر.

كان عقلي مشغولًا بالقلق على زوجتي. تخيلتها في «ليذرهيد» مذعورة، يحدق بها الخطر، تبكيني على اعتبار أني قد لقيت حتفي. ذرعت غرف المنزل جيئة وذهابًا وأنا أبكي بصوت عال عندما فكرت كيف بُوعد بيني وبينها، وفي كل ما قد ينزل بها أثناء غيابي. أعلم أن ابن عمي يتحلى بالشجاعة الكافية للتعامل مع أي موقف طارئ، لكنه لم يكن من نوعية الرجال الذين يدركون وقوع الخطر سريعًا، فيهبُّوا للتصرف على الفور. لم تكن الشجاعة هي المطلوبة آنذاك، وإنما الحيطة والحذر. عزائي الوحيد أني فكرت في أن المريخيين كانوا يتحركون باتجاه لندن بعيدًا عن زوجتي. تلك الهموم التي يكتنفها الغموض تجعل العقل سريع التقلب وتثير الشعور بالألم. زاد سأمي وغضبي من صرخات الكاهن الدائمة. تعبت من رؤية قنوطه الأناني. بعد عدد من الاعتراضات التي لم تُجد نفعًا ابتعدت عنه، وجلست في غرفة — كان واضحًا أنها غرفة درس الأطفال — تحتوي على مجسمات للكرة الأرضية وأوراق ودفاتر. وعندما تبعني إلى هناك ذهبت إلى مخزن في أعلى المنزل، وأغلقت الباب على نفسي لأبقى وحيدًا مع همومي المؤلمة.

حاصرَنا الدخان الأسود بما يبعث على اليأس طوال ذلك اليوم وصباح اليوم التالي. كانت هناك أمارات على وجود أشخاص في المنزل المجاور مساء يوم الأحد؛ فكان هناك

وجه خلف النافذة ومصابيح تتحرك وأخيرًا صوت صفق لأحد الأبواب. لكني لم أكن أعرف شيئًا عن هؤلاء الأشخاص، أو عما حدث لهم. لم نر أحدًا منهم في اليوم التالي. زحف الدخان الأسود شيئًا فشيئًا نحو النهر طوال صبيحة يوم الاثنين مقتربًا منا أكثر فأكثر، لينجرف أخيرًا على طول الطريق الممتد خارج المنزل الذي كنا نختبئ داخله.

جاء أحد المريخيين عبر الحقول نحو منتصف النهار، وبدأ يطلق دفقًا من البخار فائق الحرارة يصدر صفيرًا عند اصطدامه بالجدران، وحطم كل النوافذ التي مسها، وسفع يد الكاهن أثناء فراره من غرفة المعيشة. عندما تمكنا أخيرًا من التسلل عبر الغرف الرطبة ونظرنا في الخارج مجددًا، بدت البلدة ناحية الشمال وكأن عاصفة ثلجية سوداء قد مرت فوقها. وعندما نظرنا تجاه النهر، تملكنا الذهول لرؤية حمرة هائلة تمتزج بسواد المروج المحترقة.

لم نتبين لبعض الوقت كيف يمكن لهذا التغيير أن يؤثر على وضعنا، باستثناء أننا تخلصنا من شعورنا بالخوف من الدخان الأسود. لكنني أدركت لاحقًا أننا لم نعد محاصرين، وأنه يمكننا الفرار الآن. وحالما أدركت أن طريق الفرار مفتوح، عاودني الحلم بفعل شيء ما. لكن الكاهن كان متبلدًا لا يطاق.

أخذ يردد: «نحن بأمان هنا. بأمان هنا.»

عقدت العزم على أن أتركه ... ويا ليتني فعلت! وعملًا بنصيحة المدفعي، بحثت عن طعام وشراب. عثرت على دهان وضمادات من أجل الحروق التي أعانيها، وأخذت أيضًا قبعة وقميصًا قطنيًّا وجدتهما في إحدى غرف النوم. عندما تأكد له أني عازم على الذهاب من دونه — إذ كنت قد أقنعت نفسي بالذهاب بمفردي — قرر مرافقتي فجأة. ولما كان الهدوء يخيم على المكان فترة الظهيرة، بدأنا التحرك في الساعة الخامسة حسبما أظن على طول الطريق المتشح بالسواد إلى «صنبري».

في «صنبري» وعلى مسافات متباعدة على الطريق كانت جثث الخيول والبشر على السواء ممددة في هيئات ملتوية، وكانت هناك عربات مقلوبة وأمتعة، وكل شيء مغطى بطبقة كثيفة من الغبار الأسود. تلك الغيمة من الذرور الرمادي جعلتني أفكر فيما قرأته عن الدمار الذي لحق بمدينة «بومبي» الإيطالية. وصلنا إلى «هامتون كورت» دون أن يصيبنا مكروه، وعقولنا مملوءة بأفكار غريبة غير مألوفة، وفي «هامتون كورت» شعرنا بالارتياح عندما وقعت أعيننا على رقعة خضراء نجت من الدخان الخانق. سرنا عبر منتزه «بوشي بارك» حيث الغزلان تتحرك هنا وهناك أسفل أشجار الكستناء، وبعض

الرجال والنساء يركضون على مسافة نحو «هامتون»، وهكذا وصلنا «تويكينام». كان هؤلاء أول من نراهم من البشر.

بعيدًا على الطريق، كانت الغابات على مسافة من ضاحيتي «هام» و«بيترشام» لا تزال مشتعلة. لم تتعرض «تويكينام» للشعاع الحراري أو الدخان الأسود، وكان بها عدد أكبر من الناس، ومع ذلك لم يستطع أحد مدَّنا بالأخبار. كان هؤلاء القوم في الأغلب مثلنا يستغلون السكون ليتنقلوا من مكان لآخر. تولَّد لديّ انطباع بأن معظم المنازل هنا لا تزال مأهولة بسكان مذعورين، حتى إن ذعرهم أعجزهم عن محاولة الفرار. وهنا أيضًا ظهرت آثار تدل على وجود حشد مسرع على الطريق. أذكر بوضوح شديد ثلاث دراجات محطمة في كومة مسحوقة على الطريق بفعل عجلات العربات المتتالية. عبرنا جسر «ريتشموند بريدج» نحو الثامنة والنصف. بالطبع أسرعنا الخطى ونحن نعبر الجسر المكشوف، لكني لاحظت عددًا من تكتلات حمراء اللون تطفو على الماء في اتجاه التيار على بعد عدة أمتار في الجانب المقابل. لم أكن أعرف ماهية تلك التكتلات — ولم يكن لدي وقت لتدقيق النظر — وألحقتُ بها تفسيرات مرعبة أكثر مما كانت تستحق. هنا أيضًا في «سَري» شوهد الغبار الأسود الذي كان دخانًا فيما مضى، وأيضًا الجثث؛ كومة منها بالقرب من المحطة، لكننا لم نر أثرًا للمريخيين حتى قطعنا جزءًا من الطريق نحو «بارنز».

رأينا على مسافة بعيدة — والسواد يكتنف الأجواء — مجموعة من ثلاثة أشخاص يركضون في شارع جانبي نحو النهر، لكن فيما عدا ذلك بدا المكان مهجورًا. كانت «ريتشموند» تحترق عن آخرها، ولم يكن هناك أي أثر للدخان الأسود خارج المدينة.

فجأة، ومع اقترابنا من بلدة «كيو»، جاء عدد من الناس يركضون، ولاح الجزء العلوي لواحدة من آلات القتال التي يستخدمها المريخيون فوق أسطح المنازل على بعد أقل من مائة متر منا. وقفنا مبهوتين من الشعور بالخطر، ولو أن المريخي نظر أسفله لكنَّا في عداد الهالكين على الفور. بلغ بنا الذعر كل مبلغ حتى إننا عجزنا عن مواصلة السير، وانحرفنا جانبًا، واختبأنا في سقيفة إحدى الحدائق. وهناك جثم الكاهن على الأرض، وأخذ يبكي دون صوت رافضًا التحرك مجددًا.

لكن عزمي القاطع على الوصول إلى «ليذرهيد» لم يترك أمامي مجالًا للتوقف، وفي ضوء الشفق غامرت بالخروج مرة أخرى. سرت وسط مجموعة من الشجيرات وعلى طول ممر بجانب منزل كبير، وهكذا خرجت على الطريق المؤدي إلى «كيو». تركت الكاهن في السقيفة، لكنه جاء يركض خلفي.

تلك الانطلاقة الثانية كانت أكثر ما فعلته طيشًا؛ إذ كان واضحًا أن المريخيين موجودون حولنا. وما إن لحق بي الكاهن حتى رأينا آلة القتال التي رأيناها من قبل أو أخرى شبيهة بها بعيدًا عبر المروج في اتجاه «كيو لودج». ركضت أربعة أو خمسة هياكل سوداء صغيرة أمامها عبر الحقل الذي جمع بين اللونين الأخضر والرمادي، وفي دقيقة بدا واضحًا أن ذلك المريخي يتعقبهم. في ثلاث خطوات واسعة كان المريخي بينهم، في حين أخذوا هم يركضون متسللين من بين أقدامه في جميع الاتجاهات. لم يُستخدم الشعاع الحراري للقضاء عليهم، لكنه التقطهم واحدًا بعد آخر. وعلى ما يبدو أنه ألقى بهم داخل الحامل المعدني الكبير الذي يبرز من خلفه كسلَّة عامل معلقة على كتفيه.

تلك هي المرة الأولى التي أدرك فيها أنه ربما يكون للمريخيين غرض آخر سوى إلحاق الدمار بالبشرية المقهورة. وقفنا متسمِّرين في مكاننا هنيهة، ثم استدرنا وفررنا عبر بوابة خلفنا إلى حديقة مسيَّجة، ووجدنا قناة رقدنا فيها دون أن يجرؤ أحدنا على أن يهمس للآخر حتى طلعت النجوم.

أظن أن الساعة كانت تقترب من الحادية عشرة عندما استجمعنا شجاعتنا للانطلاق مجددًا، وبعدها لم نغامر بالسير في الطريق، بل كنا نتسلل بمحاذاة سياجات الشجيرات وعبر الزروع ونحن نراقب المكان بحذر — هو على اليمين وأنا على اليسار — وسط الظلام بحثًا عن المريخيين الذين بدا أنهم كانوا ينتشرون في كل مكان. في إحدى البقاع تعثرنا بمنطقة محروقة مسودَّة — كانت حينئذ تبرد وتستحيل رمادًا — وعدد من جثث مبعثرة لأناس مصابين بحروق مروعة في الرءوس والجذوع، غير أن أقدامهم وأحذيتهم كادت لا تمس بسوء، وجثث خيول خلف صف يضم أربعة مدافع مدمَّرة وعربات مدافع محطمة ربما بمسافة خمسة عشر مترًا.

يبدو أن ضاحية «شين» أفلتت من الدمار، لكن المكان كان ساكنًا ومهجورًا. هنا لم نر أي جثث، وإن كان الليل بظلمته الحالكة لم يتح لنا رؤية شيء في الطرق الجانبية للمكان. وفي «شين» اشتكى مرافقي فجأة من الإعياء والظمأ، وقررنا دخول أحد المنازل.

أول منزل دخلناه — بعد أن وجدنا صعوبة بسيطة في فتح النافذة — كان منزلًا ريفيًّا صغيرًا نصف منفصل، ولم أجد فيه ما يصلح للأكل سوى بعض الجبن المتعفن. لكن كانت هناك مياه صالحة للشرب، وأخذت معي بلطة صغيرة خيل لي أنها ستفيدنا في اقتحام المنزل التالي.

انتقلنا بعدها إلى مكان ينعطف فيه الطريق نحو ضاحية «مورتليك». وهناك رأينا منزلًا أبيض داخل حديقة محاطة بالأسوار، وفي خزانة المؤن الخاصة بهذا المنزل وجدنا

الكثير من الطعام؛ رغيفين من الخبز في مقلاة، وشريحة لحم نيئة، وقطعة من لحم الخنزير المدخن. أذكر قائمة الطعام تلك على هذا النحو من الدقة، لأنه حدث أن تعيَّن علينا الاعتماد على ذلك الطعام مدة أسبوعين تاليين. وجدنا جعة أسفل أحد الأرفف، وكيسين من الفاصولياء وبعض الخس ضامر الأوراق. تفتح هذه الخزانة على مطبخ بداخله وقود لإشعال النيران، وكانت هناك أيضًا خزانة وجدنا فيها نحو اثنتي عشرة قنينة من خمر «بورجوندي»، وسمك السلمون، وحساء معلبًا، وعلبتين من البسكويت.

جلسنا في المطبخ المجاور في الظلام — لأننا لم نكن نجرؤ على إشعال الضوء — وتناولنا الخبز ولحم الخنزير، وشربنا الجعة من الزجاجة نفسها. كان الكاهن لا يزال مرتاعًا متململًا لا يقوى على مواصلة السير على نحو يدعو إلى الذهول، وكنت أحثه على الحفاظ على قوته بتناول الطعام عندما وقع الحادث الذي انحبسنا في إثره.

قلت: «مؤكد أن منتصف الليل لم يحل بعد.» ثم طغى وهج ساطع من ضوء أخضر براق. ظهر كل شيء في المطبخ واضحًا تمامًا باللونين الأخضر والأسود ثم اختفى ثانية. وبعدها حدثت هزة لم أسمع مثلها قبل ذلك الحين أو بعده. وعقب تلك الهزة بوقت قليل جدًّا — حتى بدا وكأنه قد حدث على الفور — صدر صوت هدير من خلفي، وانكسار زجاج، وانهيار أجزاء من المبنى في كل مكان حولنا، وسقط جبس السقف ليتهشم إلى عدة أجزاء صغيرة فوق رءوسنا. اصطدمت بالأرض على الفور قبالة مقبض الموقد، وانتابني الذهول. أخبرني الكاهن أني فقدت الوعي وقتًا طويلًا، وعندما استعدت وعيي كان الظلام يحيط بنا ثانية، وكان الكاهن يرش الماء عليّ ووجهه مبلل بالدماء من أثر جرح في جبهته مثلما عرفت لاحقًا.

بقيت بعض الوقت عاجزًا عن استيعاب ما حدث، ثم بدأت أسترجع الأحداث تدريجيًّا. شعرت بوجود كدمة على صدغي.

سأل الكاهن بصوت هامس: «أتشعر بتحسن؟»

وأخيرًا أجبته بأن اعتدلت في جلستي.

قال: «لا تتحرك. الأرضية مغطاة بآنية خزفية مهشمة من خزانة المطبخ. لن تستطيع التحرك ما لم تُحدث ضوضاء، وأظن أنهم في الخارج.»

جلس كلانا في صمت مطبق، نكاد لا يسمع أحدنا أنفاس الآخر. خيَّم السكون التام على كل شيء، لكن حدث مرة أن انزلق بالقرب منا شيء — بعض الدهان أو مواد البناء المكسورة — محدثًا صوتًا مدويًّا. وفي الخارج على مسافة قريبة جدًّا كنا نسمع أصوات قعقعة رنَّانة متقطعة.

قال الكاهن عندما سمعنا الصوت مجددًا بعد وقت قصير: «ذاك!»

قلت: «أجل، لكن ما هذا؟»

قال الكاهن: «مريخي!»

أنصتُّ السمع مجددًا.

قلت: «لم يكن ذلك مثل الشعاع الحراري.» ولبعض الوقت كنت أميل إلى الاعتقاد بأن إحدى آلات القتال الضخمة تعثرت في المنزل، لأني كنت قد رأيت إحداها يتعثر في برج كنيسة «شيبرتون».

كان الموقف غريبًا مبهمًا حتى إننا كدنا لا نتحرك مدة ثلاث أو أربع ساعات حتى طلوع الفجر. ثم تسلل الضوء إلى الداخل؛ ليس من خلال النافذة التي ظلت سوداء، بل من خلال فتحة مثلثة الشكل بين إحدى العوارض وكومة من القرميد المكسور في الحائط خلفنا. وللمرة الأولى رأينا الجزء الداخلي للمطبخ بلون باهت.

انفتحت النافذة بفعل كتلة من تربة الحديقة اندفعت فوق الطاولة التي كنا نجلس عليها واستقرت عند أقدامنا. في الخارج كانت التربة تتجمع في كومة عالية أمام المنزل. ومن أعلى إطار النافذة استطعنا أن نرى أنبوب صرف منزوعًا من مكانه. كانت الأرضية مغطاة بآنية متهشمة، والجانب البعيد من المطبخ ناحية المنزل قد تعرض للاقتحام عنوة. وبما أن ضوء النهار يظهر هناك، فمن المؤكد أن جزءًا كبيرًا من المنزل قد تهدَّم. وفي تناقض واضح مع ذلك الدمار، ظهرت خزانة الأواني المرتَّبة مطلية وفق أحدث طراز بلون أخضر فاتح، وفي مستوى أدنى استقر عدد من أواني القصدير والنحاس، وكان ورق الحائط شبيهًا بقرميد يتخذ اللونين الأزرق والأبيض، فضلًا عن وجود جزأين مكمِّلين ملونين معلَّقين على الجدار فوق الموقد.

عندما اشتد ضوء الفجر، رأينا من خلال الفجوة في الحائط جسد مريخي أظنه كان يقف حارسًا على الأسطوانة المتوهجة الساكنة. عندما شاهدنا ذلك تسللنا بأقصى درجات الحذر الممكنة بعيدًا عن الشفق الذي ملأ المطبخ إلى الظلمة التي كانت تغلف حجرة غسل الآنية.

وفجأة خطر ببالي التفسير الصحيح لما حدث.

همستُ: «الأسطوانة الخامسة! الطلقة الخامسة من المريخ ضربت هذا المنزل ودفنتنا تحت أنقاضه!»

ظل الكاهن صامتًا بعض الوقت ثم همس: «ليرحمنا الرب!»

سمعته بعدها بقليل يئن بصوت مكتوم.

فيما عدا ذلك الصوت، خيم علينا الصمت التام داخل حجرة غسل الآنية، ومن جانبي كدت لا أجرؤ على التنفس، فجلست وعيناي مثبتتان على الضوء الخافت عند باب المطبخ. استطعت أن أرى وجه الكاهن بيضاويًّا شاحبًا، وياقته، وطرفي كُمَّيه. وفي الخارج بدأت أصوات طرق رنانة، تبعها صوت صفير حاد، وبعدها بفترة طويلة علا صوت هسيس يشبه أصوات المحركات. استمرت تلك الجلبة — المثيرة للريبة في الأغلب — على فترات متقطعة، بل بدا أنها تزداد في العدد مع مرور الوقت. بعدها بوقت قصير بدأ صوت هدير منضبط الإيقاع، وحدثت هزَّة جعلت كل شيء حولنا يرتجف والأواني داخل الخزانة تحدث صوت رنين وتتحرك من مكانها، وهو ما استمر حينًا. خفت الضوء في لحظة، وأصبح مدخل المطبخ مظلمًا تمامًا. ولعدة ساعات بقينا جاثمين هناك في صمت وكلانا يرتجف إلى أن خبت جذوة انتباهنا ...

أخيرًا وجدت نفسي منتبهًا أشعر بالجوع الشديد. أظن أن جزءًا كبيرًا من اليوم كان قد انقضى قبل تلك الانتباهة. بلغ بي الجوع مبلغًا جعلني أتحرك كي أفعل شيئًا. أخبرت الكاهن أني سأذهب للبحث عن طعام، وتحسست طريقي نحو خزانة المؤن. لم يجبني، لكن ما إن بدأت تناول الطعام ووصلتْه الضوضاء الخافتة التي أحدثتُها حتى تحرك، وسمعته يزحف ببطء خلفي.

الفصل الثاني

ما رأينا من خلال المنزل المنهار

بعد تناول الطعام انسللنا عائدين إلى حجرة غسل الآنية، ولا بد أني غفوت هناك مرة أخرى، لأني عندما نظرت بعدها بوقت قصير حولي، وجدت نفسي وحيدًا. استمرت الهزة الهادرة على نحو ثابت يبعث على الضجر. همست مناديًا على الكاهن عدة مرات، وفي النهاية تحسست طريقي نحو باب المطبخ. لا يزال ضوء النهار يعلن عن نفسه، ولمحت الكاهن في الجانب الآخر من الغرفة يرقد مستندًا على الفتحة المثلثة التي تطل على المريخيين. كانت كتفاه مُحدودبتين حتى إنني لم أر رأسه.

وصل إلى مسامعي عدد من الأصوات تكاد تشبه ما يُسمع من أصوات في حظيرة القاطرات، وارتج المكان بفعل ذلك الهدير المتواصل. ومن خلال الفتحة في الجدار، استطعت أن أرى قمة شجرة بها مسحة من لون ذهبي، إلى جانب زرقة سماء الليل الساكنة. ظللت نحو دقيقة أرقب الكاهن، ثم تقدمت جاثمًا على الأرض أتحرك بحذر بالغ وسط الأواني الخزفية المكسورة التي تغطي الأرضية.

لمست قدم الكاهن، فانتفض من مكانه في حركة عنيفة للغاية حتى إن كتلة من الجبس انزلقت من الخارج وسقطت محدثة صوتًا عاليًا. قبضت على ذراعه خشية أن يصرخ، وربضنا بلا حراك وقتًا طويلًا. بعدها استدرت لأرى كم تبقى من الساتر الذي كنا نحتمي خلفه. أحدثَ تساقط الجبس صدعًا رأسيًّا وسط الأنقاض، وعندما رفعت نفسي بحذر مقابل إحدى العوارض استطعت أن أرى من تلك الفتحة المكان الذي كان بالأمس طريقًا هادئًا. والواقع أن التغيير الذي رأيناه كان هائلًا.

لا بد أن الأسطوانة الخامسة سقطت مباشرة في منتصف المنزل الذي دخلناه أول مرة. اختفى المبنى، وانهار بالكامل، وانسحق وتبدد من أثر الاصطدام. تستقر الأسطوانة الآن على مسافة كبيرة تحت قواعد المنزل؛ في عمق كوة أكبر اتساعًا من الحفرة التي

كنت قد رأيتها في «ووكينج». تناثرت التربة في كل مكان حول الكوة إثر ذلك الاصطدام المهول، وكوَّنت كومات متراكمة أخفت المنازل المجاورة عن الأنظار. بدت الأرض حينها وكأنها وحل طُرق عليه طرقات عنيفة. انهار المنزل الذي كنا فيه إلى الخلف؛ وتهدم الجانب الأمامي — حتى في الطابق الأرضي — تمامًا، وبطريق المصادفة نجت حجرتا المطبخ وغسل الآنية من الانهيار، وبقيتا الآن مدفونتين تحت الأنقاض تحيط بهما أطنان من التربة من كل جانب عدا الجانب المواجه للأسطوانة. وبذلك كنت أنا والكاهن عالقين الآن على شفير الحفرة الدائرية الواسعة التي كوَّنها المريخيون. كان صوت الطرق المدوي واضحًا خلفنا مباشرة، وبين الحين والآخر كان بخار أخضر لامع يتصاعد وكأنه ستار أمام الفتحة التي كنا نختلس النظر منها.

كانت الأسطوانة مفتوحة بالفعل في مركز الحفرة، وعلى الحافة البعيدة من الحفرة وسط الشجيرات المسحوقة والمغطاة بأكوام من الحصى، برزت واحدة من آلات القتال الضخمة — بعد أن هجرها قاطنوها — منتصبة وطويلة قبالة سماء الليل. في البداية لم ألحظ الحفرة والأسطوانة — وإن كان الأنسب وصفهما أولًا — بسبب الآلة فائقة البريق التي كانت منكبَّة على أعمال الحفر، وبسبب الكائنات الغريبة التي كانت تزحف في تؤدة ومشقة على التربة المتكومة بالقرب منها.

مؤكد أن الآلة هي أول ما لفت انتباهي. كانت واحدة من تلك الآلات المعقدة التي يُطلق عليها منذ ذلك الحين آلات قابضة، والتي كانت دراستها باعثًا كبيرًا على ما كان من اختراعات على كوكب الأرض. ومثلما تبادرت إلى ذهني في البداية، فقد كانت تشبه عنكبوتًا معدنيًّا لديه خمس أقدام رشيقة ذات مفاصل، وعدد هائل من الروافع المفصلية والقضبان ومجسات ممتدة وقابضة حول هيكل الآلة. كانت معظم أذرعها مقبوضة، لكن باستخدام ثلاثة مجسات طويلة كانت تلتقط عددًا من القضبان والصفائح التي تبطن غطاء الأسطوانة والتي كانت على ما يبدو تدعم جدرانها. وعندما تُنتزع تلك الأشياء، كانت تُرفع وتوضع فوق سطح مستو على الأرض خلف الآلة.

كانت حركتها بالغة السرعة والتعقيد والإتقان، حتى إنني لم أعتقد أنها آلة في بادئ الأمر بالرغم من لمعانها البراق. كانت آلات القتال متناسقة بعضها مع بعض ومفعمة بالحيوية إلى أقصى درجة ممكنة، لكنها لم تكن لتقارَن بتلك الآلات. هؤلاء الذين لم تسبق لهم رؤية تلك الهياكل ولم يتوفر لديهم سوى اجتهادات الرسَّامين منقوصة الخيال، أو الوصف المعيب لشهود العيان مثلي الذين نادرًا ما يستوعبون طابع الحيوية ذاك.

أذكر على وجه الخصوص وصفًا ورد في واحد من أوائل الكتيبات التي قدمت وصفًا تتابعيًّا للحرب. كان واضحًا أن الرسام جمع معلوماته عن آلات القتال في عجالة، وهنا كانت نهاية إلمامه بها. صوَّر الرسام تلك الآلات على أنها حاملات ثلاثية القوائم متقوسة ومتيبسة تفتقر إلى المرونة والفطنة، إلى جانب رتابة مخادعة تمامًا فيما يتعلق بتأثيرها. حظي الكتيب الذي تضمن تلك الأوصاف رواجًا كبيرًا، ومدعاة ذكري له هنا هي تحذير القارئ من الانطباع الذي ربما يكون قد تكوَّن لديه. أولئك الذين وردت أوصافهم في الكتيِّب لم يكن بينهم وبين المريخيين الذين رأيتهم على أرض الواقع شبه أكثر مما يكون بين الدمى والبشر.

في البداية لم تترك الآلة القابضة انطباعًا لدي على أنها آلة، بل مخلوق أشبه بالسرطان ذو غلاف خارجي لامع، في حين بدا المريخي الذي يتحكم بمجساته الدقيقة في تحركات الآلة شبيهًا بالجزء الدماغي لدى السرطان. لكنني بعدها أدركت تشابه غلافها الخارجي الجلدي اللامع ذي اللون البني المائل إلى الرمادي مع الأجسام الأخرى الممددة أرضًا على مسافة، واتضحت في ذهني الماهية الفعلية لذلك الصانع الحذِق. ما إن أدركت ذلك حتى تحول اهتمامي إلى الكائنات الأخرى؛ المريخيين الفعليين. لدي انطباع عابر مسبق عنهم، ولم يعد شعور الغثيان الذي كان يراودني تجاههم في بادئ الأمر يؤثر سلبًا على ملاحظتي لهم. أضف إلى ذلك أني كنت مختبئًا بلا حراك، فلم تكن هناك حاجة ملحة للتحرك.

كانوا أكثر المخلوقات التي يمكن تخيلها غرابةً؛ أجسام — أو بالأحرى رءوس — دائرية ضخمة يزيد قطر كل منها عن المتر قليلًا، وكل جسم به وجه في الجانب الأمامي. لم يكن ثمة منخار في ذلك الوجه؛ الحقيقة أن المريخيين بدوا وكأنهم يفتقرون إلى حاسة للشم، لكن كانت هناك عينان سوداوان بالغتا الاتساع، وأسفلها مباشرة ما يشبه منقارًا لحميًّا. في ظهر تلك الرأس أو الجسد — لا أدري كيف أطلق عليه — كان السطح الطبلي الوحيد الثابت الذي عُرف تشريحيًّا منذ ذلك الحين بأنه أُذن، مع أنه من المؤكد أن تلك الأذن كادت تكون عديمة الجدوى في ظل هوائنا الكثيف على الأرض. حول الفم كانت توجد مجموعة من ستة عشر مجسًّا رفيعًا تكاد تشبه السياط مرتبة في حزمتين كل منها تضم ثمانية مجسات. وصف عالم التشريح المتميز بروفيسور هاوس بجدارة بالغة تلك المجسات بأنها أيادٍ. عندما رأيت هؤلاء المريخيين أول مرة بدا أنهم يحاولون الوقوف فوق تلك الأيادي، لكن كان ذلك مستحيلًا بالطبع بسبب الوزن الزائد في ظل الظروف

على كوكب الأرض. ومنطقي أن نفترض أنهم ربما يستخدمون تلك الأيادي في السير على كوكب المريخ بقدر من السهولة.

يجدر بي الإشارة هنا إلى أن التكوين الداخلي — مثلما أظهر التشريح فيما بعد — كان على القدر نفسه من البساطة تقريبًا. كان الدماغ هو الجزء الأكبر من الهيكل تخرج منه أعصاب مهولة إلى العينين والأذن والمجسات الحسية. وإضافة إلى ذلك كانت هناك رئة واسعة يفتح فيها الفم، فضلًا عن القلب وأوعيته. بدا الألم الرئوي الذي حدث بسبب زيادة كثافة الغلاف الجوي والجاذبية واضحًا للغاية في الحركات المتشنجة التي كانت تصدر عن البشرة الخارجية.

كانت تلك هي الأجهزة التي تكون أجسام المريخيين. ومع أن الأمر قد يبدو غريبًا على بني البشر، فإن جميع أجهزة الهضم المعقدة — التي تسهم بقدر كبير في وزن الجسم — لم تكن موجودة لدى المريخيين. كانوا رءوسًا؛ مجرد رءوس. لم يكن لديهم أمعاء. لم يكونوا يأكلون، وبالطبع لم يكونوا يهضمون. بدلًا من ذلك كانوا يأخذون الدماء الحية من المخلوقات الأخرى ويضخونها داخل أوردتهم. رأيت ذلك بنفسي، وسوف أتحدث عنه في موضعه. لكن لأني سريع الإصابة بالغثيان، فلن أستطيع حمل نفسي على وصف ما لم أتحمل مجرد الاستمرار في مشاهدته. سأكتفي بأن أقول إن الدماء تؤخذ من كائن حي هامد — في معظم الحالات يكون إنسانًا — لتنساب مباشرة بواسطة أنبوب صغير داخل القناة المستقبِلة …

لا شك أن مجرد التفكير في هذا الأمر يثير اشمئزازنا إلى أقصى حد، لكن في الوقت نفسه أظن أنه علينا أن نتذكر كم أن عاداتنا الخاصة بتناول اللحوم قد تبدو مثيرة للاشمئزاز في نظر أرنب ذكي.

المزايا الفسيولوجية المرتبطة بعملية الحقن هذه أمر لا جدال فيه، إذا فكرنا في ما يهدره البشر من كميات هائلة من الوقت والطاقة في عمليتي تناول الطعام والهضم. تتكون أجسامنا في الأغلب من غدد وقنوات وأعضاء مهمتها تحويل الأطعمة المختلفة إلى دماء. عمليات الهضم وتأثيرها على الجهاز العصبي تضعف قوانا وتشوه عقولنا. فسعادة الإنسان أو تعاسته ترتبط بصحة كبده أو اعتلاله، وبصحة غدده المِعديّة. أما المريخيون فقد ارتقوا فوق كل تلك التقلبات العضوية المرتبطة بالحالة المزاجية والشعورية.

يتضح تفضيلهم المؤكد للبشر كمصدر للحصول على الغذاء إلى حد ما من خلال طبيعة بقايا الضحايا الذين أتوا بهم من المريخ ليتغذوا عليهم. كانت لتلك المخلوقات

— من خلال الحكم عليها من البقايا الضامرة التي وقعت في أيادي البشر — قدمان، وهياكل عظمية سليكية رقيقة (تكاد تشبه الإسفنجيات السليكية)، وجهاز عضلي يبلغ طوله نحو مترين، ورءوس مستديرة منتصبة، وعينان واسعتان داخل مَحجِرين قاسيين. أحضر المريخيون اثنين أو ثلاثة من تلك المخلوقات في كل أسطوانة، وجميعهم قُتلوا قبل وصولهم الأرض. كان هذا من حسن حظهم، لأن مجرد محاولة وقوفهم منتصبين على كوكبنا كان من شأنه أن يكسر كل عظمة في أجسادهم.

وأنا أتطرق لذلك الوصف، سأضيف في هذا الموضع تفاصيل أخرى محددة تمكِّن القارئ — مع أنها لم تكن واضحة لنا تمامًا في وقتها — غير الملم بها من أن يكوِّن صورة واضحة عن تلك المخلوقات القبيحة.

كانت طبيعتهم الفسيولوجية تختلف عنا على نحو غريب في ثلاثة جوانب أخرى. لم تكن أجهزتهم العضوية تعرف النوم، مثلما هو الحال مع قلوب البشر. ولأنه لم يكن لديهم جهاز عضلي يحتاج إلى التعافي بعد الإجهاد، فإن الخمود الذي يصيب البشر على فترات متقطعة لم يكن معروفًا لهم. من الواضح أنهم لم يشعروا بالتعب. ومع أنهم لم يكونوا يتحركون على الأرض دون بذل جهد، فإنهم استمروا في العمل حتى النهاية. كانوا يعملون أربعًا وعشرين ساعة على مدار اليوم، ربما كما هو الحال مع النمل على سطح الأرض.

الأمر الثاني — وهو ما يبدو مدعاة للعجب في عالم يقوم على النشاط الجنسي — أن المريخيين لم يكونوا متباينين في الجنس، ومن ثم لم تكن لديهم أي مشاعر جامحة كالتي تنشأ جراء ذلك التباين بين بني البشر. حدث بالفعل أن وُلد مريخي صغير — ذاك أمر مؤكد الآن — فوق سطح الأرض أثناء الحرب، ووُجد موصولًا بأبيه؛ متبرعمًا إلى حد ما مثلما تتبرعم بصْلات الزنبق أو مثلما تتبرعم الحيوانات الصغيرة في المياه العذبة.

في الإنسان، وفي جميع الحيوانات الأرضية العليا، اندثرت طريقة التكاثر هذه، وحتمًا كانت تلك هي الطريقة البدائية على هذه الأرض. وبين الحيوانات الدنيا — حتى تلك الشبيهة بالحيوانات الفقارية مثل شعبة الزِّقيات — تحدث العمليتان جنبًا إلى جنب، لكن الطريقة الجنسية حلت أخيرًا محل منافِستها تمامًا. أما على كوكب المريخ فمن الواضح أن العكس هو ما حدث.

جدير بالذكر أن كاتبًا يشتهر بكتاباته التأملية شبه العلمية — كان يكتب قبل وقت طويل من غزو المريخيين — تنبأ للإنسان بهيكل نهائي لا يختلف عن حال المريخيين

الفعلي. أذكر أن نبوءته ظهرت في شهر نوفمبر أو ديسمبر من عام ١٨٩٣ في مجلة توقف صدورها منذ زمن طويل واسمها «بال مال بادجيت»، وأذكر أيضًا رسمًا كاريكاتوريًّا عن ذلك في مجلة «بانش» التي كانت تصدر قبل غزو المريخيين. أشار هذا الكاتب — في لهجة هزلية سخيفة — أن بلوغ حد الإتقان للأدوات الآلية سيقضي على أطراف الإنسان في النهاية، وأن بلوغ حد الإتقان للأجهزة الكيميائية سيلغي عملية الهضم، وأن أعضاء كالشعر والأنف والأسنان والأذن والذقن لن تكون أساسية في الكائن الحي، وأن نزعة الانتخاب الطبيعي ستسير في اتجاه ضمور هذه الأعضاء بصفة ثابتة على مر العصور المقبلة. الدماغ وحده هو الذي سيبقى ضرورة لا غنى عنها. جزء آخر فقط من أجزاء الجسم سيحظى بسبب قوي للبقاء وهي اليد؛ ذلك أنها هي التي توجِّه الدماغ وهي أيضًا أداته. وبينما يضمر بقية الجسد، يتزايد حجم الأيدي.

كم من جدٍّ في ثوب مزاح! لا جدال في أن المريخيين هنا قد انتهوا بالفعل من القضاء على الجانب الحيواني في الجسم بالعقل. ولا مشكلة لديّ في أن أصدق أن المريخيين ربما ينحدرون من كائنات لا تختلف عنا عن طريق تطور تدريجي للمخ والأيدي (حيث أدت الأيدي إلى ظهور مجموعتي المجسات الرقيقة في النهاية) على حساب بقية أجزاء الجسم. ومن دون الجسد، سيصبح المخ مجرد عقل أناني بلا أي درجة من درجات الشعور التي يتمتع بها الكائن الحي.

النقطة الأخيرة اللافتة للنظر فيما يتعلق باختلاف أجهزة تلك الكائنات عنا كانت تكمن في تفصيلة ربما يعتبرها أحد محض تفاهة. فالميكروبات — التي تجلب الكثير من الأمراض والألم على كوكب الأرض — إما أنها لم تظهر قط على سطح المريخ، أو أن العلوم الصحية لدى المريخيين قضت عليها منذ عهود مضت. لم ترِد مئات الأمراض — كل أنواع الحمى والأمراض المعدية بين البشر، والسل، والأمراض السرطانية، والأورام وما شابه من الأمراض — قط في قاموس حياتهم. وبالحديث عن أوجه التباين بين الحياة على المريخ والحياة على الأرض، ربما يتعين علي الإشارة هنا إلى العشب الأحمر.

من الواضح أن مملكة النباتات في المريخ تتخذ من الأحمر القاني لونًا لها، بدلًا من سيادة اللون الأخضر. وعلى أي حال، فإن البذور التي جلبها المريخيون (سواء عن عمد أو مصادفة) نمَت في جميع الحالات وتحولت إلى نباتات ذات لون أحمر قان. لكن وحده النبات الذي اشتُهر بين الناس باسم العشب الأحمر هو ما وجد لنفسه موضع قدم بين النباتات الأرضية. كان العشب الأحمر سريع الزوال، وقلة من الناس رأته ينمو. لكن

لفترة ما، نما ذلك العشب الأحمر المتعرش بوفرة وغزارة تثيران الذهول. انتشر العشب على جوانب الحفرة بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام على حصارنا، وكوَّنت فروعه الشبيهة بنبات الصبار هُدبًا قرمزيًّا على أطراف نافذتنا المثلثة. وبعد ذلك وجدُته وقد انتشر في كل أرجاء البلدة، وحيثما وُجد مجرى مياه على وجه الخصوص.

كان لدى المريخيين ما بدا أنه عضو سمعي — طبلة مستديرة وحيدة في مؤخرة الجسد الذي يتخذ شكل الرأس — وعيون ذات مدى بصري لا يختلف كثيرًا عن مدانا البصري، فيما عدا أن الأزرق والبنفسجي كانا يبدوان لهما كاللون الأسود. شاع بين الناس أن المريخيين يتواصلون عن طريق الأصوات والإيماء بالمجسات، وهو ما جرى التأكيد عليه على سبيل المثال في الكتيِّب الجيد الذي قد جُمع في عجالة (من الواضح أن من كتبه لم يكن شاهد عيان على أفعال المريخيين) والذي أشرت إليه من قبل، وهو — حتى الآن — المصدر الرئيسي للمعلومات المتعلقة بهم. لم ير أحد من البشر الأحياء قدر ما رأيت من تحركات المريخيين. لا أدعي لنفسي شرفًا لمجرد حادث وقع لي، لكنها الحقيقة. وأؤكد أني شاهدتهم عن كثب مرارًا وتكرارًا، وأني رأيت أربعة وخمسة و(ذات مرة) ستة منهم يتحركون بخطى متثاقلة وهم يؤدون أكثر العمليات تعقيدًا بعضهم مع بعض دون أن يصدر عنهم صوت أو إيماءة. كان نعابهم المميز يسبق دومًا حصولهم على الغذاء؛ لم يكن ثمة تغير في طبقات هذا الصوت، وأظن أنه لم يكن إشارة على الإطلاق، بل مجرد زفر للهواء تمهيدًا لعملية المصّ. لديَّ معرفة أولية بعلم النفس، وفي هذا الشأن لدي قناعة — قاطعة كقناعتي بأي شيء آخر — أن المريخيين كانوا يتبادلون الأفكار دون أي وسيط مادي. تكونت لدي تلك القناعة بالرغم من الأفكار الراسخة المبلورة مسبقًا. قبل غزو المريخيين — مثلما قد يتذكر قارئ عابر هنا أو هناك — كنت قد كتبت نقدًا حادًّا بعض الشيء لنظرية توارد الخواطر.

لم يرتد المريخيون ملابس. كانت مفاهيمهم عن الزينة والاحتشام تختلف بالضرورة عن مفاهيمنا، ولم يكونوا أقل تأثرًا بالتغيرات في درجات الحرارة عنا فحسب، بل بدا أن تغيرات الضغط أيضًا لا تؤثر في صحتهم تأثيرًا يُذكر. وعلى الرغم من عدم ارتدائهم للملابس، فإن الإضافات الاصطناعية الأخرى المتصلة بأجسادهم هي مكمن تفوقهم الهائل على بني البشر. نحن البشر — بما لدينا من دراجات وألواح تزلج، وآلات تحليق، ومدافع وعصيّ وغيرها — لا نزال نخطو أولى خطواتنا في طريق التطور الذي بلغه المريخيون. الواقع أنهم أصبحوا مجرد عقول ترتدي أجسادًا وفق حاجتها، مثلما يرتدي

الإنسان ثيابه ويصطحب دراجة إذا كان في عجلة من أمره أو مظلة إذا كان اليوم مطيرًا. وبالحديث عن أجهزتهم، فإن أكثر ما قد يثير الدهشة حقيقة أن السمة التي تكاد تميز جميع الأجهزة الآلية لم تكن موجودة لديهم؛ فالمريخيون لم يستخدموا العجلة. فمن كل الأشياء التي جلبوها معهم إلى كوكب الأرض، لم يكن هناك أي أثر أو دلالة على استخدامهم العجلات. ربما يتوقع المرء وجودها على الأقل في التنقل. وفي هذا الصدد من الغريب أن نشير إلى أنه حتى على سطح هذه الأرض لم يحدث قط أن اكتشفت «الطبيعة» العجلةَ فجأة، أو فضَّلت وسائل أخرى عليها. لم يقتصر الأمر على كون المريخيين إما لا يعرفون العجلة (وهو ما لا يمكن تصديقه) وإما أحجموا عن استخدامها، بل تعدى الأمر ذلك، فنادرًا ما كانت أجهزتهم تستخدم محور الارتكاز الثابت أو محور الارتكاز الثابت نسبيًّا عند الحركة الدائرية المنحصرة في سطح واحد. فكل مفاصل الآلات تقريبًا كانت تمثل نظامًا معقدًا من أجزاء منزلقة تتحرك فوق مساند مقاومة للاحتكاك صغيرة وإن كانت مقوَّسة على نحو بديع. ومن الجدير بالذكر هنا أيضًا أن قوى الرفع في آلاتهم كانت تُستثار في أغلب الحالات بواسطة شيء أشبه بجهاز عضلي زائف من الأقراص داخل غلاف لدِن؛ تلك الأقراص تُستقطب وتُقرَّب بعضها من بعض أثناء دورانها بفعل تيار كهربائي. كان هذا مصدر تشابه حركتهم اللافت للنظر مع حركة الحيوانات؛ الأمر الذي كان البشر ينظرون إليه بمزيج من الدهشة والانزعاج. توافرت تلك العضلات الزائفة بكثرة في الآلة القابضة الشبيهة بالسرطان التي شاهدتها تفرغ محتويات الأسطوانة عندما نظرت من الفتحة أول مرة. بدت الآلة مفعمة بالحيوية أكثر بكثير من المريخيين الفعليين الذين كانوا يرقدون على مسافة تحت شمس المغيب يلهثون ويحركون مجساتهم العاجزة، ويتحركون واهنين بعد رحلتهم الطويلة عبر الفضاء.

بينما كنت أشاهد تحركاتهم المتثاقلة في ضوء الشمس، وأرقب كل تفصيلة غريبة من هيئتهم، نبَّهني الكاهن إلى وجوده بأن جذبني من ذراعي بقوة. استدرت فرأيت وجهًا عبوسًا، وشفاهًا صامتة وإن كانت معبرة. كان يود النظر من الشق الذي يتيح الرؤية لواحد منا فحسب، وهكذا اضطررت للتخلي عن مشاهدتهم بعض الوقت ليحظى بتلك الميزة.

عندما نظرت مجددًا، كانت الآلة القابضة النشطة قد انتهت من تجميع العديد من القطع التي استخرجتها من الأسطوانة داخل هيكل شبيه بها تمامًا. وفي بقعة منخفضة على اليسار، ظهرت آلة حفر صغيرة نشطة تنبعث منها هبَّات من البخار الأخضر، وهي

تعمل حول الحفرة، تحفر وتطوق المكان بطريقة منظمة ودقيقة. تلك الآلة كانت مصدر الضوضاء الشبيهة بالطرقات المتتالية، والاهتزازات الإيقاعية التي دأبت على رجرجة ملجئنا المنهار. كانت تزمر وتصفر وهي تعمل. وبقدر ما أتيح لي من رؤية، لم يكن هناك مريخي يوجِّه ذلك الشيء على الإطلاق.

الفصل الثالث

أيام الحصار

اضطرَّنا وصول آلة القتال الثانية إلى مغادرة الفتحة التي كنا نختلس النظر منها والانتقال إلى حجرة غسل الآنية؛ خشية أن يرانا المريخي من مكانه المرتفع ونحن جالسان خلف الحاجز الذي كنا نلوذ به. وبعد فترة بدأنا نشعر بتضاؤل الخطر؛ لأنه من المؤكد أن مأوانا كان يبدو لأي عين في ضوء الشمس الساطع بالخارج سوادًا حالكًا، غير أنه في أول الأمر كانت أي إشارة على اقترابهم تجعلنا نهرع إلى حجرة غسل الآنية وكلانا يرتجف خوفًا. وعلى الرغم من الخطر الذي كنا نعرض أنفسنا له، فإن كلينا لم يستطع مقاومة غواية اختلاس النظر. وأذكر الآن في شيء من العجب أنه على الرغم من الخطر الهائل الذي كنا معرضين له ما بين التضور جوعًا أو الموت وهو الأشد خطورة، كنا نتنازع كثيرًا من أجل أن نحظى بميزة المشاهدة المروِّعة هذه. كنا نتسابق على نحو عجيب عبر المطبخ تتباين مشاعرنا ما بين اللهفة والفزع من إحداث جلبة، وكلانا يضرب الآخر ويدفعه ويركله على بعد بضع خطوات من الفتحة.

الحقيقة أن ميولنا وعاداتنا في التفكير والتصرف كانت متنافرة كل التنافر، والخطر الذي يحدق بنا والعزلة التي كنا فيها لم يفعلا شيئًا سوى أنهما أكَّدا على ذلك التنافر. عندما كنا في «هاليفورد» حدث أني كرهت اعتياد الكاهن الصراخ البائس إضافة إلى جمود عقله. كانت همهماته المتواصلة تفسد أي جهد أبذله للتفكير في خطة، وكادت في بعض الأحيان — بعدما كنت أصبح مكبوتًا محتدًّا — أن تدفعني نحو حافة الجنون. كان فاقد السيطرة على نفسه كامرأة حمقاء. كان يبكي ساعات، ولديّ يقين أن هذا الطفل المدلل ظل حتى النهاية يظن أن دموعه البائسة فعَّالة وأنها ستؤتي ثمارها بصورة أو بأخرى. كنت أجلس في الظلام عاجزًا عن التفكير في شيء آخر غيره بسبب إلحافه. تناول من الطعام أكثر مما تناولت، وقد نبَّهته دون جدوى أن فرصتنا الوحيدة

للحياة هي البقاء في هذا المنزل حتى ينتهي المريخيون من عملهم في الحفرة، وأنه قد يأتي علينا — أثناء تلك الفترة الطويلة من الانتظار — وقت نحتاج فيه إلى الطعام. كان يقضي أوقاتًا طويلة يتناول الطعام والشراب بنَهم، ولم يكن ينام إلا قليلًا.

مع مضي الأيام، زاد استهتاره التام بأي اعتبار من حدة ضائقتنا ومن الخطر الذي يحيق بي، حتى إني اضطررت — على مضض كبير مني — للجوء إلى التهديدات، وأخيرًا لجأت إلى ضربه. ذلك الأمر جعله يتعقل بعض الوقت، لكنه كان واحدًا من أولئك الضعاف، عديمي الأنفة، الرعاديد، فاتري الهمم، واسعي الحيلة الذين لا يقوون على مواجهة الرب أو البشر، أو حتى مواجهة أنفسهم.

تعفُّ نفسي عن تذكر تلك الأمور والكتابة عنها، لكنني ما أفعل ذلك إلا بغية اكتمال روايتي. إن مَن لم يروا شيئًا من كآبات الحياة وأهوالها لن يجدوا أي مشكلة في أن يلوموا وحشيتي ونوبات غضبي في مأساتنا الأخيرة، لأنهم يعرفون الخطأ كأي شخص آخر، لكنهم لا يعرفون ما قد يحدث للمعذَّبين من البشر. أما من تعرضوا لتلك الأهوال، فسيكونون أكثر قدرة على التسامح.

في الداخل كنا نتصارع وسط الظلام، ونتناحر بأصوات خفيضة، ونتخطف الطعام والشراب، ويكيل كلانا الضربات للآخر، وفي الخارج — في ضوء شمس يونيو الحارقة — كانت الأعجوبة المتمثلة في الأعمال الروتينية الغريبة للمريخيين داخل الحفرة تتواصل. لنعد إلى التجارب الجديدة التي مررت بها في بادئ الأمر. بعد وقت طويل خاطرت بالعودة إلى الفتحة حيث وجدت الوافدين الجدد وقد انضم إليهم ما لا يقل عن ثلاثة من مشغلي آلات القتال. أحضرت تلك الآلات الأخيرة معها معدات حديثة بعينها اصطفت في ترتيب منظم حول الأسطوانة. اكتملت الآلة القابضة الثانية حينئذ، وكانت مشغولة بخدمة إحدى الآلات الجديدة التي أحضرتها الآلة الكبيرة. كان هيكلًا يشبه علبة الحليب في شكله العام، وفوقه يتأرجح وعاء يشبه ثمرة الكمثرى، ومنه يتدفق تيار من ذرور أبيض إلى حوض دائري بالأسفل.

انتقلت الحركة المتذبذبة إلى تلك الآلة عن طريق أحد مجسات الآلة القابضة. وبيدين منبسطتين كانت الآلة القابضة تحفر الأرض وتطرح كتل الطين داخل الوعاء كمثريّ الشكل في الأعلى، وبذراع أخرى كانت بين الحين والحين تفتح بابًا وتزيل خَبَثًا صدِئًا مسودَّ اللون. كان مجس فولاذي آخر يصرِّف الذرور من الحوض عبر قناة مضلعة إلى مستقبِل كان محجوبًا عني بواسطة كومة الغبار الضارب إلى الزرقة. ومن ذلك المستقبِل

المستتر تصاعد خيط رفيع من الدخان الأخضر رأسيًّا في الهواء الساكن. وبينما أنظر مدت الآلة القابضة — محدثة صوت قعقعة موسيقية خافتة — مجسًّا لم يكن من قبل سوى بروز ثَلِم حتى اختفت نهايته خلف كومة الطين. وفي لحظة أخرى رفعت قضيبًا من الألومنيوم الأبيض — لم تصبه الأوساخ بعد ويلمع بشدة — ووضعته في كومة من القضبان كانت تتزايد باستمرار على جانب الحفرة. وما بين مغيب الشمس وظهور ضوء النجوم، كانت هذه الآلة فائقة البراعة قد صنعت أكثر من مائة من تلك القضبان من الطين الخام، وارتفعت كومة الغبار المزرق على نحو ثابت حتى علت جانب الحفرة.

التناقض بين الحركات الخاطفة والمعقدة لتلك الآلات والحركات الخرقاء اللاهثة الكسول للكائنات التي تتحكم فيها كان أمرًا لافتًا للانتباه، واضطررت على مدار عدة أيام بعدها أن أكرر على نفسي أن الكائنات — وليست الآلات — هي التي تنعم بالحياة.

كان الكاهن ينظر من الفتحة عندما جلب المريخيون أول إنسان إلى الحفرة. كنت أجلس في مكان أدنى رابضًا أرهف السمع. تحرك للخلف فجأة، وجثم على الأرض في نوبة فزع خشية أن يلاحظونا. جاء ينزلق على الأنقاض، وزحف بجواري في الظلام يشير بيده عاجزًا عن الكلام، وشاركته الفزع هنيهة. كانت إشارته دليلًا على تنازله عن الفتحة، وبعد قليل منحني الفضول الشجاعة، فوقفت، وخطوت بجانبه، ثم تسلقت الأنقاض وصولًا إلى الفتحة. في البداية لم أر داعيًا لتصرفه الجنوني. حل ضوء الشفق الآن وكانت النجوم صغيرة خافتة الضوء، لكن الحفرة كانت تسطع بالنيران الخضراء المتوهجة التي صاحبت تصنيع الألومنيوم. كان المشهد بأكمله صورة متوهجة من وميض أخضر وظلال سوداء صدئة متنقلة ومجهِدة للعين على نحو غريب. انتشرت الوطاويط في كل مكان. لم يعد بالإمكان رؤية المريخيين المتمددين بعد أن ارتفعت كومة الذرور الأخضر الضارب إلى الزرقة حتى حجبتهم، ووقفت إحدى آلات القتال بأقدام منكمشة منقبضة في زاوية الحفرة. بعدها ووسط الضجيج الصاخب الصادر من الآلة، سمعت ما يشبه أصواتًا بشرية، انتبهت لها أول الأمر لكن سرعان ما توقفت عن التفكير فيها.

جثمت في مكاني أرقب آلة القتال عن كثب، أقنع نفسي الآن للمرة الأولى أن القلنسوة تحتوي بالفعل كائنًا مريخيًّا. مع تصاعد اللهب الأخضر استطعت أن أرى الوميض الزيتي لبشرته وبريق عينيه. وفجأة سمعت صرخة، ورأيت مجسًّا طويلًا يصل خلف الآلة إلى القفص الصغير الذي انعقف فوق ظهرها. بعدها رُفع شيء — شيء يقاوم بكل ما أوتي من قوة — عاليًا في السماء؛ شيء غامض أسود في ضوء النجوم، وعندما

نزل ذلك الشيء الأسود مرة أخرى، رأيت وسط البريق الأخضر أنه إنسان. للحظة كانت هيئته واضحة للغاية؛ كان بدينًا متورد الوجه كهلًا حسن الهندام لا بد أنه قبل ثلاثة أيام كان يجوب العالم متمتعًا بمنزلة اجتماعية رفيعة. رأيت عينيه المحدقتين وومضات من الضوء على أزرار ثيابه وسلسلة الساعة. اختفى الرجل خلف الكومة، وساد الصمت هنيهة. بعدها صدر صوت صياح ونعاب جذِل متواصل من المريخيين.

نزلت متسللًا الأنقاض، ووقفت بصعوبة، ثم وضعت يدي في أذني، وأسرعت إلى حجرة غسل الآنية. رفع الكاهن — الذي كان يجلس جاثمًا في صمت وذراعاه فوق رأسه — بصره حال مروري بجواره، وصرخ بصوت عال لفراري منه، ثم أخذ يركض خلفي.

وازنَت تلك الليلة — ونحن نختبئ داخل حجرة غسل الآنية — بين شعورنا بالرعب وبين غواية اختلاس النظر هذه، مع أني شعرت بحاجة ملحة لفعل شيء ما، وحاولت عبثًا التفكير في خطة للهرب، لكن بعدها وفي اليوم الثاني، استطعت تحديد موقعنا بوضوح شديد. وجدت الكاهن عاجزًا كلية عن النقاش؛ فذلك الفعل الجديد الذي بلغ منتهى الوحشية سلبه بقايا عقله أو قدرته على النظر في عواقب الأمور. الواقع أنه دنا بالفعل إلى مستوى الحيوانات. لكني سيطرت على نفسي قدر المستطاع. ما إن واجهت الحقائق حتى تأكد لدي أنه بالرغم من الموقف العصيب الذي نحن فيه، فلا يوجد مبرر لليأس التام. فرصتنا الرئيسية تكمن في احتمالية ألا يجعل المريخيون من الحفرة سوى معسكر مؤقت، وحتى لو جعلوها موقعًا دائمًا، فربما يعتبرون أن حراستها ليست بالأمر الضروري. أيضًا فكرت مليًّا في احتمال أن نحفر طريقًا في اتجاه بعيد عن الحفرة، لكن احتمالات ظهورنا في نطاق رؤية إحدى آلات القتال القائمة بأعمال الحراسة بدت لي كبيرة في البداية. إضافة إلى ذلك كان سيتعين عليّ القيام بجميع أعمال الحفر بمفردي؛ فمؤكد أن الكاهن كان سيخذلني.

كنا في اليوم الثالث — إذا لم تخني الذاكرة — عندما شاهدت مقتل الفتى. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رأيت فيها المريخيون يَطعَمون. بعد تلك التجربة تجنبت النظر من فتحة الجدار جزءًا طويلًا من اليوم. دخلت حجرة غسل الآنية، وأزلت الباب، وقضيت بعض الساعات أحفر مستخدمًا بلطتي محاولًا قدر المستطاع ألا أصدر جلبة، لكن عندما حفرت فتحة بعمق نحو نصف متر انهارت الأرض المتداعية في صخب، ولم أجرؤ على استئناف الحفر. خارت عزيمتي، وتمددت على أرضية الحجرة وقتًا طويلًا دون أن أجرؤ حتى على الحركة. وبعدها تخليت تمامًا عن فكرة الهروب عن طريق الحفر.

كان التأثير الذي تركه المريخيون عليّ هائلًا حتى إني لم أعلق في البداية آملًا أن يكون خلاصنا عن طريق دحرهم على أيدي البشر. لكن في الليلة الرابعة أو الخامسة، سمعت صوتًا يشبه قصف المدافع.

كان ذلك في وقت متأخر جدًّا من الليل، وكان القمر متلألئًا من شدة الضياء. أزال المريخيون آلة الحفر، وباستثناء آلة قتال كانت تقف عند أبعد كومة من الحفرة وآلة قابضة محجوبة عني داخل أحد أركان الحفرة أسفل الفتحة التي كنت أختلس النظر منها مباشرة، لم يكن أحد منهم في المكان. وفيما عدا الوهج الخافت المنبعث من الآلة القابضة والقضبان ورُقع ضوء القمر الأبيض، كانت الحفرة مظلمة، وباستثناء قعقعة الآلة القابضة كان المكان هادئًا. كانت ليلة سكون جميل، وباستثناء كوكب واحد، بدا القمر وكأنه يستأثر بالسماء لنفسه. سمعت نباح كلب، وذلك الصوت المألوف هو ما جعلني أرهف السمع. بعدها سمعت بوضوح شديد صوت هدير يشبه تمامًا هدير المدافع. سمعت صوت ستة انفجارات، ثم تلتها ستة أخرى بعد فترة طويلة. وكان ذلك كل شيء.

الفصل الرابع

موت الكاهن

في اليوم السادس من حصارنا اختلست النظر للمرة الأخيرة من الفتحة، وعندها وجدت نفسي وحيدًا. بدلًا من بقاء الكاهن بالقرب مني ومحاولة إبعادي عن الفتحة، فإنه عاد إلى حجرة غسل الآنية. داهمتني فكرة مفاجئة. عدت بسرعة وهدوء إلى حجرة غسل الآنية، ووسط الظلام سمعت الكاهن يشرب. انتزعت منه ما كان يشربه في الظلام، ووجدت بين أصابعي زجاجة خمر.

تصارعنا بضع دقائق. سقطت الزجاجة على الأرض وانكسرت، وتوقفت أنا، ثم نهضت. وقفنا نلهث وكلانا يهدد الآخر. في النهاية وقفت حائلًا بينه وبين الطعام، وأخبرته عن نيتي لأن نضع نظامًا جديدًا. قسَّمت الطعام في حجرة المؤن إلى حصص تكفينا عشرة أيام. لم أكن لأسمح له بتناول المزيد من الطعام ذلك اليوم. بعد الظهيرة حاول دون جدوى أن يصل إلى الطعام. كان النعاس قد غلبني، لكني استيقظت في لحظة. طوال النهار وطوال الليل ونحن نجلس وجهًا لوجه؛ أنا منهك ولكن ثابت العزم، وهو يبكي ويتذمر من شعوره بالجوع. أعرف أنه لم يمر علينا ونحن هكذا سوى نهار وليل، لكنهما بدوا لي — حسبما يبدو لي الآن — أمدًا لا نهاية له.

وهكذا انتهى تنافرنا المتزايد باصطدام صريح. وعلى مدار يومين طويلين نشبت بيننا نزاعات خفيضة الصوت فيها شيء من التصارع. كانت ثمة أوقات أضربه فيها وأركله بجنون، وأوقات أداهنه وأقنعه، ومرة حاولت رشوته بآخر زجاجة خمر لدينا، إذ كانت هناك مضخة لمياه الأمطار يمكنني الحصول على الماء منها، لكن لا القوة أفادت ولا اللين أفاد؛ فقد تجاوز الرجل حدود العقل. لم يتوقف عن هجماته على الطعام ولا عن تمتمته الصاخبة بينه وبين نفسه. لم يراع الاحتياطات الأولية التي تجعل من محبسنا

مكانًا محتملًا للبقاء. شيئًا فشيئًا بدأت أدرك أنه فقد عقله تمامًا؛ بدأت أدرك أن رفيقي الوحيد في تلك الظلمة البغيضة رجل مجنون.

تحضرني الآن ذكريات ضبابية محددة تجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن عقلي كان يشتُّ في بعض الأوقات. كانت تراودني أحلام غريبة بشعة كلما غفت عيناي. قد يبدو أن في الأمر تناقضًا، لكني أميل إلى الاعتقاد بأن ضعف الكاهن وذهاب عقله حذَّراني وثبَّتاني وحافظا على سلامة عقلي.

في اليوم الثامن بدأ يتحدث بصوت مرتفع بدلًا من الحديث همسًا، ولم أفلح بأي وسيلة في حمله على خفض صوته.

أخذ يردد مرارًا وتكرارًا: «إنه العدل، يا إلهي! إنه العدل. العقاب ينزل عليّ. لقد أذنبنا، وأخفقنا. كان هناك فقر وبلوى؛ الفقراء دُفنوا في التراب، وأنا التزمت الصمت. وعظتُ الحمقى ... يا إلهي، كم كنتُ أحمق! عندما كان يتعين علي أن أصمد وأن أدعوهم كي يتوبوا ... يتوبوا! ... ظالمو الفقراء والمحتاجين ...! معصرة غضب الله!»

بعدها يعود فجأة إلى موضوع الطعام الذي منعته منه فيناشد ويتوسل ويبكي وأخيرًا يهدد. بدأ يرفع صوته، ورجوته ألا يفعل. أحسَّ أن بوسعه التحكم فيّ؛ فهددني بأنه سيصرخ ويحضر المريخيين إلى هنا. أفزعني ذلك بعض الوقت، لكن أي تنازل من جانبي كان سينتقص من فرصة هروبنا إلى حد لا يوصف. تحديته، مع أني كنت أشك أنه سينفذ تهديده. لكنه لم يفعل شيئًا في ذلك اليوم. كان يتحدث وصوته يرتفع شيئًا فشيئًا طوال الجزء الأكبر من اليومين الثامن والتاسع ... كان يطلق تهديدات وتوسلات ممزوجة بكثير من الهذيان، وعلى الدوام كان يتحدث بندم أخرق على زيفه في خدمته للرب، وهو ما جعلني أشفق عليه. غلبه النعاس برهة، ثم بدأ ثانية بقوة جديدة وبصوت عال حتَّم علي إيقافه.

ناشدته: «هلا التزمت الصمت!»

وقف على ركبتيه، إذ كان جالسًا في الظلام بجوار المرجل.

قال بنبرة من المؤكد أنها وصلت الحفرة: «أنا صامت منذ حين، والآن لا بد لي من الإدلاء بشهادتي. الويل لتلك المدينة الظالمة! الويل! الويل! الويل! الويل لسكان الأرض بسبب الأصوات الأخرى للبوق ...»

قلت: «اخرس!» ونهضت، وفي ظل فزعي من أن يسمعنا المريخيون أضفت: «أستحلفك بالله ...»

صاح الكاهن: «كلا، تكلَّم! حقَّت عليّ كلمة الرب!»

في ثلاث خطوات وصل إلى الباب المؤدي إلى المطبخ.

«لا بد لي من الإدلاء بشهادتي! أنا ذاهب! لقد تأخرت كثيرًا.»

مددت يدي، وشعرت بساطور اللحم معلقًا على الحائط. تبعته في غمضة عين. كنت ثائر الأعصاب من شدة الخوف. قبل أن يصل إلى منتصف المطبخ، باغتُّه. وبلمسة إنسانية أخيرة، أدرت النصل وضربته بمؤخرة الساطور. تمدد على وجهه على الأرض. تعثرت فيه ووقفت ألهث. كان جامدًا بلا حراك.

فجأة سمعت ضوضاء في الخارج — تفتت وتهشم الجبس المتداعي — وأظلمت فتحة الحائط المثلثة. رفعت بصري، ورأيت السطح السفلي من إحدى الآلات القابضة يقترب شيئًا فشيئًا من الفتحة. التوى أحد أطرافها القابضة وسط الحطام، وظهر طرف آخر يتحسس طريقه فوق العوارض المتداعية. وقفت مبهوتًا أحدق النظر. بعدها رأيت من خلال شيء أشبه بطبق زجاجي بالقرب من طرف الجسم وجهَ — مثلما قد نسميه — المريخي، وعيناه السوداوان الكبيرتان تختلسان النظر، ثم ظهر مجس معدني طويل يشبه الأفعى يتحرك ببطء عبر الفتحة.

استدرت بصعوبة، وتعثرت في جثة الكاهن، وتوقفت عند باب حجرة غسل الآنية. كان المجس بعيدًا بعض الشيء — على مسافة مترين أو أكثر — في الحجرة، يتلوى ويستدير بحركات مفاجئة غريبة في هذا الاتجاه وفي ذاك. في البداية وقفت مذهولًا من تلك الحركة البطيئة المتقطعة. وبعدها وبصرخة جشَّاء خافتة دفعت نفسي عبر حجرة غسل الآنية. ارتجف جسدي بعنف؛ حتى كدت لا أستطيع الوقوف منتصبًا. فتحت باب قبو الفحم، ووقفت هناك في الظلام أحدق في مدخل المطبخ خافت الإنارة وأنا أرهف السمع. هل رآني المريخي؟ ماذا هو فاعل الآن؟

كان شيء يتحرك هناك جيئة وذهابًا بهدوء بالغ، وبين الحين والحين كان يقرع الجدار أو يبدأ تحركه بصوت رنين مدو خافت كحركة المفاتيح في حلقة المفاتيح. ثم سُحب جسم ثقيل — عرفت ماهيته جيدًا — عبر أرضية المطبخ نحو الفتحة. لم أستطع المقاومة، فتسللت إلى الباب، واختلست النظر إلى المطبخ. وفي ضوء الشمس الساطع في الخارج رأيت المريخي — داخل آلته القابضة — ينعم النظر في رأس الكاهن. فكرت على الفور أنه سيستنتج وجودي من أثر الضربة التي سددتها للكاهن.

زحفت عائدًا إلى قبو الفحم، وأغلقت الباب، وبدأت أغطي نفسي قدر استطاعتي بهدوء وسط الظلام بين أخشاب الوقود والفحم هناك. بين الحين والآخر كنت أتوقف جامدًا في مكاني لأسمع ما إذا أدخل المريخي مجساته عبر الفتحة مجددًا.

عاد الرنين المعدني الخافت مرة أخرى. تعقبته ببطء وهو يتحرك داخل المطبخ. بعد قليل سمعته في مكان قريب؛ حجرة غسل الآنية حسبما ظننت. خيِّل إلي أن طوله ربما لا يكون كافيًا للوصول إلي. أطلت الدعاء. تحرك ذلك الشيء يخدش باب القبو بصوت خافت. تلا ذلك أمد من قلق لا يطاق، ثم سمعته يتحسس المزلاج! لقد وجد الباب! المريخيون يعرفون الأبواب!

أمسك بالمزلاج دقيقة، ثم فُتح الباب.

في الظلام استطعت بالكاد رؤية ذلك الشيء — شديد الشبه بخرطوم الفيل أكثر من أي شيء آخر — يتحرك في اتجاهي ويلمس ويفحص الجدران والفحم والخشب والسقف. كان شبيهًا بدودة سوداء تميل برأسها العمياء هنا وهناك.

في إحدى المرات لمس كعب حذائي. كنت على شفا الصراخ؛ فعضضت على يدي. ظل المجس صامتًا فترة. ظننت أنه قد تقهقر، لكن بعد فترة قصيرة وبطقطقة مفاجئة أمسك شيئًا — ظننته أنا! — وبدا أنه خرج من القبو ثانية. ظل الشك يعتريني هنيهة. من الواضح أنه أخذ كتلة من الفحم كي يفحصها.

انتهزت الفرصة، وغيرت مكاني قليلًا، ثم أنصتُّ. همست بدعاء من القلب طلبًا للأمان.

بعدها سمعت الصوت الموزون البطيء يتسلل نحوي مجددًا. اقترب مني شيئًا فشيئًا يخدش الجدران ويقرع قطع الأثاث.

وبينما لا يزال الشك يعتريني، قرع المجس باب القبو بخفة وأغلقه. سمعته يدخل حجرة المؤن، وسمعت قعقعة علب البسكويت وانكسار إحدى الزجاجات، وبعدها صوت ارتطام مدوٍّ عند باب القبو، تلاه صمت تحول إلى حال من الترقب لا نهاية له.

أتراه رحل؟

أخيرًا قررت أنه رحل.

لم يدخل حجرة غسل الآنية مرة أخرى، لكنني رقدت طوال اليوم العاشر في الظلام مدفونًا بين الفحم وخشب الوقود لا أجرؤ حتى على الخروج من أجل الحصول على شراب كنت أتعطش للحصول عليه. وفي اليوم الحادي عشر جازفت بالخروج من مكمني.

الفصل الخامس

السكون

أول ما فعلته قبل العودة إلى حجرة المؤن أني أحكمت غلق الباب بين المطبخ وحجرة غسل الآنية. لكن حجرة المؤن كانت خالية؛ اختفى كل فتات الطعام. على ما يبدو أن المريخي أخذه كله في اليوم السابق. عندما اكتشفت ذلك اعتراني اليأس للمرة الأولى. لم أتناول طعامًا أو شرابًا في اليومين الحادي عشر والثاني عشر.

في البداية جفَّ فمي وحلقي، وضعُفت قواي على نحو ملحوظ. جلست في ظلمة حجرة غسل الآنية تنتابني مشاعر البؤس المشوب بالجزع. انصب تفكيري على الطعام. خيِّل إلي أني أُصبت بالصمم، لأني توقفت تمامًا عن سماع أصوات الحركة التي اعتدت سماعها من الحفرة. لم أشعر بالقوة الكافية للتسلل في هدوء إلى الفتحة، وإلا لكنت فعلت.

في اليوم الثاني عشر كان حلقي يؤلمني للغاية حتى إني انقضضت — مخاطرًا بلفت أنظار المريخيين لي — على مضخة مياه الأمطار التي تصدر صوت صرير بجوار الحوض، وحصلت على كوبين ممتلئين من مياه الأمطار المشوبة بالأوساخ والسواد. أنعشتني تلك المياه كثيرًا، وتشجعت عندما أدركت أنه ما من مجسات فضولية تتبعت الصوت الصادر عن المضخة.

أثناء تلك الأيام — وعلى نحو متقلب غير متسق — فكرت كثيرًا في الكاهن وفي طريقة موته.

في اليوم الثالث عشر شربت المزيد من المياه، وغفوت، وانتابتني أفكار غير مترابطة عن الطعام وخطط الهروب المستحيلة الغامضة. كلما غفوت راودتني كوابيس مرعبة عن موت الكاهن أو وجبات عشاء مترفة، لكني كنت في صحوي وفي نومي أشعر بألم

شديد يدفعني لتناول المزيد والمزيد من المياه. لم يعد الضوء المتسلل إلى حجرة غسل الآنية رماديًّا، وإنما بدا أحمر اللون. بدا لونه في خيالي المضطرب كلون الدماء.

في اليوم الرابع عشر دخلت المطبخ، وفوجئت عندما وجدت أوراق العشب الأحمر قد نمت أمام الفتحة في الجدار لتحول ضوء المكان إلى ضباب قرمزي اللون.

في وقت مبكر من اليوم الخامس عشر سمعت سلسلة أصوات غريبة مألوفة في المطبخ، وعندما أنصت ميزت كلبًا يتشمم المكان ويخدش بأظافره. عندما دخلت المطبخ رأيت أنف كلب يطل برأسه من فتحة بين الأوراق داكنة الحمرة. أدهشني هذا الأمر أيما دهشة. عندما اشتم الكلب رائحتي، نبح نباحًا قصيرًا.

فكرت في أني لو تمكنت من حثه على دخول المكان بهدوء لربما تمكنت من قتله وأكله، وعلى أي حال سيكون من الأفضل قتله خشية أن تلفت أفعاله اهتمام المريخيين.

تسللت للأمام قائلًا بصوت خافت: «أيها الكلب المطيع!» لكنه سحب رأسه فجأة، واختفى.

أرهفت السمع، فلم يكن بي صمم، بل كانت الحفرة ساكنة. سمعت صوتًا يشبه صفق أجنحة الطيور وصوت نعيب أجش، ولم أسمع شيئًا آخر.

ظللت راقدًا بجوار الحفرة وقتًا طويلًا دون أن أجرؤ على التحرك بجوار النباتات الحمراء التي حجبت الحفرة عن عيني. مرة أو مرتين سمعت صوت خطوات تشبه قدم كلب يسير جيئة وذهابًا فوق الرمال على مسافة بعيدة في مستوى أدنى من المكان الذي كنت فيه، ومزيدًا من الأصوات الشبيهة بأصوات الطيور، لكن لم أسمع شيئًا آخر. وأخيرًا شجعني السكون، وألقيت نظرة.

باستثناء الزاوية — حيث تجمَّع عدد كبير من الغربان وتصارعوا على الهياكل العظمية للجثث التي استنزفها المريخيون — لم يكن ثمة كائن حي داخل الحفرة.

حدقت النظر حولي دون أن أصدق عيني. اختفت كل الآلات. وباستثناء الكومة الكبيرة للذرور الأزرق الرمادي في إحدى الزوايا، وعدد من قضبان الألومنيوم في زاوية أخرى، والطيور السوداء، وهياكل القتلى، كان المكان مجرد حفرة دائرية فارغة وسط الرمال.

دفعت نفسي على مهل خارج العشب الأحمر، ووقفت على كومة الأنقاض. استطعت رؤية كل الاتجاهات عدا الاتجاه الذي كان خلفي نحو الشمال، ولم أر المريخيين ولا أي أثر لهم. انهارت الغرفة تحت قدمي تمامًا، لكن النفايات وفرت منحدرًا يمكن الوصول من خلاله إلى قمة الأنقاض. ها قد حانت فرصة هروبي. حينها بدأت أرتجف.

ترددت بعض الوقت، وبعدها في نوبة حزم يائس وبقلب يخفق بعنف، تسلقت الأنقاض وصولًا إلى قمة الكومة التي كنت مدفونًا فيها منذ وقت طويل.

نظرت حولي مجددًا. لم أر أيًّا من المريخيين جهة الشمال أيضًا.

عندما رأيت هذا الجزء من «شين» آخر مرة في ضوء النهار، كان شارعًا مليئًا بمنازل بيضاء وحمراء مترفة، تنتشر في أماكن متفرقة منه العديد من الأشجار الظليلة. الآن أقف على تل من المباني المنهارة والطين والحصى، ينتشر فوقه نبات أحمر شبيه بالصبار يصل ارتفاعه حتى الركبة لا ينازعه نبات أرضي وحيد. كانت الأشجار بالقرب مني بنية ميتة، وعلى مسافة أبعد كانت شبكة من الخيوط الحمراء تغطي الجذوع التي لا تزال حية.

صارت كل المنازل المجاورة خرابًا، لكن أيًّا منها لم يحترق. كانت الجدران قائمة — حتى الطابق الثاني في بعض الأحيان — تتخللها نوافذ محطمة وأبواب مكسورة. نما العشب الأحمر بغزارة داخل الغرف غير المسقوفة. وفي مستوى أدنى مني كانت تقع الحفرة الكبيرة حيث تتعارك الغربان على ما فيها من فضلات. انقض عدد من الطيور الأخرى وسط الأنقاض. وعلى مسافة أبعد رأيت قطًّا نحيلًا ينسل خلسة جاثمًا فوق أحد الجدران، لكن لم يكن ثمة أثر للبشر.

بدا النهار — على عكس الأيام التي قضيتها في محبسي الأخير — وضّاءً مشرقًا، والسماء زرقاء وهاجة. تحرك العشب الأحمر الذي يغطي كل قطعة من الأرض غير المأهولة بالسكان حركة خفيفة بفعل الرياح الهادئة. وأخيرًا عدت أستمتع بالهواء العليل!

الفصل السادس

حصيلة خمسة عشر يومًا

أخذت أسير مترنحًا بعض الوقت فوق تلك الرابية دون أن أحسب حسابًا لسلامتي. في نطاق هذا الوكر كريه الرائحة الذي خرجت منه فكرت بقليل من الجدية في سلامتنا الحالية. لم أكن أدرك ما حدث للعالم، ولم أتوقع ذلك المشهد المروع لتلك الأشياء الغريبة. توقعت رؤية «شين» أطلالًا؛ وجدت حولي مشهدًا — غريبًا مفزعًا — لكوكب آخر.

في تلك اللحظة اعتراني شعور يتجاوز نطاق مشاعر البشر، لكنه شعور تعرفه جيدًا الحيوانات البائسة التي نفرض هيمنتنا عليها. شعرت بما قد يشعر به أرنب عائد إلى جحره، وفجأة يرى نتيجة ما قام به عدد كبير من عمال البناء المنشغلين الذين يحفرون أساس أحد المنازل. شعرت ببوادر شيء ازداد وضوحًا في ذهني بعدها بقليل؛ شيء أغمَّني أيامًا عديدة، شعور بالنزول عن العرش، اقتناع أني لم أعد السيِّد، بل مجرد حيوان من الحيوانات تحت أقدام المريخيين. حالنا مشابه لحال تلك الحيوانات؛ ما بين التسلل والمراقبة والجري والاختباء. انتهى الخوف من البشر وإمبراطوريتهم.

لكن ما لبث هذا الشعور الغريب أن اختفى سريعًا كما انتابني، وأصبح الجوع دافعي بعد أيام طويلة كئيبة من الامتناع عن الطعام. في الاتجاه البعيد عن الحفرة رأيت — خلف سور مكسو باللون الأحمر — رقعة من حديقة غير مدفونة. أمدني هذا بفكرة، فسرت وسط العشب الأحمر الذي كان يصل إلى ركبتي في بعض الأحيان وإلى عنقي في أحيان أخرى. كثافة العشب أمدتني بشعور مطمْئن بأني محجوب عن الأنظار. كان ارتفاع السور نحو مترين، وعندما حاولت تسلقه اكتشفت أني لا أستطيع رفع قدمي على قمة السور، لذلك تابعت سيري بمحاذاته ووصلت إلى ركن وكومة من الصخور مكنتني من اعتلاء قمته، وألقيت بنفسي داخل الحديقة التي كنت أنشد الوصول إليها. هناك وجدت بعض البصل الصغير، وبصلتين من نبات سيف الغراب، وكمية من

الجزر غير الناضج أخذتها جميعًا ثم تسلقت بصعوبة سورًا منهارًا مواصلًا سيري بين الأشجار القرمزية متجهًا إلى «كيو»، كان الأمر أشبه بالسير وسط ممر من قطرات الدماء العملاقة، وأنا تسيطر علي فكرتان: الحصول على مزيد من الطعام، والابتعاد — بسرعة وبعيدًا قدر ما تسمح لي قوتي — عن تلك المنطقة الملعونة الخارقة للطبيعة التي توجد بها الحفرة.

على مسافة أبعد وفي بقعة معشوشبة وجدت مجموعة من فطر عيش الغراب التهمتها هي الأخرى، ثم وجدت جدولًا بنيًّا من مياه ضحلة جارية في مكان كان مرعًى فيما سبق. لم تفعل تلك القطع الصغيرة من الطعام شيئًا سوى أنها فتحت شهيتي للطعام. دُهشت أول الأمر لرؤية ذلك السيل في صيف جاف حار كهذا، لكني اكتشفت بعدها أن سببه هو النمو الوفير للعشب الأحمر. ما إن تلتقي تلك النبتة الغريبة بالمياه، حتى تستحيل على الفور عملاقة وخصيبة على نحو استثنائي. كانت بذوره تلقى في نهري «واي» و«التيمز»، وسرعان ما سدَّت الأوراق العملاقة سريعة النمو مجرى المياه في النهرين.

في «بيوتني» — مثلما رأيت فيما بعد — كاد الجسر يُفقد وسط كتلة متشابكة من هذا العشب، وفي «ريتشموند» أيضًا تدفقت مياه نهر «التيمز» في جداول واسعة ضحلة عبر مروج «هامتون» و«تويكينام». وأينما انتشرت المياه، تبعها العشب حتى اختفت منازل وادي «التيمز» المنهارة لفترة في ذلك المستنقع الأحمر الذي استكشفت حدوده، واختفى معظم الخراب الذي أحدثه المريخيون.

في النهاية مات العشب الأحمر بنفس السرعة التي انتشر بها تقريبًا. يُعتقد أن داءً يُعزى إلى نوع من البكتيريا قد أصابه بعد فترة قصيرة. بفضل الانتخاب الطبيعي، تتمتع كل النباتات الأرضية بمناعة ضد الأمراض البكتيرية، فهي لا تموت أبدًا دون صراع مرير، لكن العشب الأحمر تعفن وكأنه شيء ميت بالفعل. ابيضَّت الأوراق، ثم تغضنت وجفت. كانت الأوراق تتكسر من أضعف لمسة، والمياه التي كانت تحفز نموها من قبل أصبحت الآن تحمل بقاياها إلى البحر.

بالطبع أول ما فعلته عندما وصلت إلى هذه المياه أني رويت ظمئي. شربت قدرًا كبيرًا من المياه، ودفعني دافع أن آكل بعض أوراق العشب الأحمر، لكنها كانت مخضلَّة ذات مذاق لاذع يبعث على الشعور بالغثيان. وجدت المياه ضحلة بما يكفي لأن أخوض فيها بأمان، مع أن العشب الأحمر أعاق حركتي قليلًا، لكن الجدول أخذ يزداد عمقًا

في اتجاه النهر، واستدرت عائدًا إلى «مورتليك». تمكنت من تمييز الطريق عن طريق الأطلال المتفرقة لمنازله وأسواره ومصابيحه، وهكذا خرجت سريعًا من ذلك الفيضان، وشققت طريقي إلى التل الواصل باتجاه «روهامتون» ووصلت مرعى «بيوتني».

هنا تغير المشهد من الغريب وغير المألوف إلى حطام مألوف؛ كشفت بقع من الأرض عن دمار إعصار، وعلى مسافة ليست ببعيدة رأيت أماكن لم يتغير فيها شيء على الإطلاق، فستائر المنازل مسحوبة على نحو حسن الترتيب، والأبواب مغلقة، كأن أصحابها تركوها مدة يوم واحد، أو كأن قاطنيها ينامون في الداخل. كان العشب الأحمر أقل كثافة، والأشجار الطويلة على طول الطريق خالية من العشب الأحمر. بحثت عن الطعام بين الأشجار، لكن دون جدوى، واقتحمت منزلين يخيم عليهما السكون، لكنهما كانا قد تعرضا للاقتحام والنهب من قبل. استرحت ما تبقى من النهار في مكان تحفه الأشجار بعد أن استعصت عليّ مواصلة السير من شدة ما كنت ألاقيه من وهن.

كل هذا الوقت لم أر بشرًا، ولا أثرًا للمريخيين. التقيت كلبين يبدو عليهما الجوع، لكن كليهما أسرعا في طريق ملتوٍ بعيدًا عن الاتجاه الذي كنت أسلكه. وبالقرب من «روهامتون» رأيت هيكلين عظميين بشريين؛ ليسا جثتين بل هيكلين عظميين منزوع عنهما اللحم تمامًا، وفي الغابة القريبة مني وجدت عظامًا مسحوقة مبعثرة لقطط وأرانب وجمجمة لأحد الخراف. لُكْت أجزاء منها في فمي، لكنني لم أحصل منها على شيء.

بعد غروب الشمس واصلت السير على وهن في الطريق المؤدي إلى «بيوتني» حيث تراءى لي أن الشعاع الحراري حتمًا أُعمل هاهنا. وفي الحديقة التي كانت تبعد عن «روهامتون» حصلت على كمية من ثمار البطاطا غير الناضجة تكفي لسد رمقي. ومن هذ الحديقة ألقيت نظرة على «بيوتني» والنهر. بلغ قفر المكان في ضوء الغسق كل مبلغ حيث الأشجار السوداء والأطلال المهجورة التي يغطيها السواد، ونحو سفح التل رأيت زَخَّات من مياه النهر الفائضة المصطبغة بالصبغة الحمراء للعشب الأحمر. وفيما عدا ذلك، كان السكون المطبق. التفكير في كيفية حصول ذلك التغير الموحش على هذا النحو من السرعة بثَّ في نفسي رعبًا يعجز اللسان عن وصفه.

ظللت حينًا أظن أن البشر قد أُبيدوا من الوجود، وأني واقف هناك وحدي؛ أني آخر من تُرك حيًّا. وعلى مقربة من قمة تل «بيوتني» وجدت هيكلًا عظميًّا آخر ذراعاه مخلوعتان من مكانيهما وملقاتان على بعد عدة أمتار من الهيكل. كلما واصلت السير، زادت قناعتي أن إبادة الجنس البشري — باستثناء الهائمين على وجوههم مثلي — وقع

في ذلك الجزء من العالم. واصل المريخيون — حسبما تراءى لي — طريقهم تاركين البلدة مهجورة بحثًا عن الغذاء في مكان آخر. ولعلهم في تلك اللحظة يلحقون الدمار بمدينة برلين أو باريس، أو لعلهم اتجهوا ناحية الشمال.

الفصل السابع

الرجُل الذي قابلته على تل «بيوتني»

قضيت تلك الليلة في نزل يوجد على قمة تل «بيوتني»، أنام على فراش للمرة الأولى منذ فراري من «ليذرهيد». لن أتحدث عن المتاعب غير الضرورية التي واجهتها في دخول النزل عنوة — مع أني لاحقًا وجدت الباب الأمامي غير موصد — ولا عن كيفية تفتيش كل الغرف بحثًا عن الطعام، حتى إذا كنت على شفا اليأس، وجدت — فيما بدت لي غرفة خادم — كسرة خبز لم تسلَم من قرض الجرذان وعلبتي أناناس محفوظ. كان أحدهم قد سبقني إلى تفتيش المكان وسلبه ما فيه. بعدها وجدت في الحانة بعض البسكويت والشطائر لم يلتفت إليها من سبقني في تفتيش المكان. لم أستطع تناول الشطائر لأنها كانت عفنة، أما البسكويت فلم يسد رمقي فحسب، بل ملأت به جيوبي أيضًا. لم أشعل أي ضوء خوفًا من قدوم المريخيين إلى ذلك الجزء من لندن بحثًا عن الغذاء في الليل. قبل أن أخلد إلى الفراش، مررت بفترة من التململ أطوف المكان خلسة من نافذة إلى أخرى أختلس النظر بحثًا عن أي أثر لتلك الوحوش. لم أنم إلا قليلًا، وبينما كنت أتمدد في فراشي وجدت نفسي أفكر دونما انقطاع، وهو شيء أذكر أني لم أفعله منذ جدالي الأخير مع الكاهن. وخلال كل الفترات التي تخللت هاتين النقطتين كانت حالتي الذهنية سلسلة متسارعة من حالات شعورية مبهمة أو شيئًا من الاستعداد الأحمق للتلقي. لكن أثناء الليل بدأ عقلي — الذي قوِي بفعل ما تناولت من الطعام على حد اعتقادي — يزداد صفاءً، وفكَّرت.

تصارعت ثلاثة أمور في الاستحواذ على عقلي؛ مقتل الكاهن، ومكان المريخيين، والمصير المحتمل لزوجتي. الحدث الأول لم يجلب لي أي شعور بالخوف أو تأنيب الضمير؛ نظرت إليه على أنه مجرد حادث قد وقع؛ حدث تمقته الذاكرة كثيرًا لكن من دون أي شعور بالذنب. أنظر لنفسي حينها مثلما أنظر لنفسي الآن مدفوعًا خطوة

خطوة نحو تلك الضربة المتهورة التي كانت نتاجًا محتمًا لسلسلة من الأحداث. لم أشعر بالاستهجان، لكن الذكرى الساكنة غير المتحركة استبدت بي. في سكون الليل — ومع ذلك الإحساس بقرب الرب الذي يصاحب السكون والعتمة في بعض الأحيان — عَقدت محاكمتي من أجل لحظة الحنق والخوف هذه. تتبعت كل خطوة في حديثنا بدءًا من اللحظة التي وجدته فيها جاثمًا بجواري غير عابئ بظمئي وهو يشير إلى ألسنة النيران والدخان التي تتصاعد من أنقاض «وايبريدج». كنا عاجزين عن التعاون؛ وهو ما لم تنتبه إليه المصادفة المشئومة. لو أني توقعت ما سيحدث، لافترقت عنه في «هاليفورد»، لكني لم أتوقع شيئًا، والجريمة هي أن تتوقع وتفعل. أسجل هذه الواقعة مثلما سجلت كل أحداث القصة. لم يكن هناك أي شهود، ولذا كان بإمكاني إخفاؤها، لكني كتبت عنها، وعلى القارئ أن يكوِّن رأيه حسبما يشاء.

بعد أن بذلت جهدًا في أن أزيح جانبًا صورة جثة الكاهن المنبطحة أرضًا، واجهت مشكلة المريخيين ومصير زوجتي. لم يكن لدي أي أخبار بشأن المريخيين، وفكرت في مائة احتمال، ولسوء الحظ فعلت الأمر نفسه مع مصير زوجتي. وفجأة أصبحت تلك الليلة مفزعة. وجدت نفسي جالسًا في الفراش أحدق في الظلام. وجدت نفسي أصلِّي من أجل أن يكون الشعاع الحراري قد اصطدم بها فجأة وأودى بحياتها دون أن يصيبها بالألم. لم أُصلِّ منذ الليلة التي عدت فيها من «ليذرهيد». كنت قد اعتدت قبلًا أن أتلو الصلاة من دون تدبر، وأن أصلي مثلما يغمغم الوثنيون بالتعويذات عندما يغمرني الكرب الشديد، أما الآن فقد صلَّيت خاشعًا، وتضرَّعت بثبات وتعقل وجهًا لوجه مع الرب في هذا الظلام. يا لها من ليلة غريبة! وأغرب ما فيها أنه ما إن طلع الفجر حتى تسللت — أنا الذي كنت أتحدث مع الرب — خارج النزل مثل فأر يغادر مخبأه، مثل كائن بالكاد أكبر من الفأر، حيوان دونيّ، شيء قد يُصاد ويُقتل بسبب نزوة عابرة من أسيادنا. ربما هم أيضًا كانوا يصلون للرب في طمأنينة. مؤكد أننا إذا لم نكن قد تعلمنا أي شيء، فعلى الأقل علَّمتنا هذه الحرب الشفقة؛ الشفقة على تلك الأرواح معدومة العقل التي تعاني هيمنتنا.

كان الصبح صحوًا صافيًا، وتوهجت السماء في الجانب الشرقي باللون القرنفلي، وكانت متقدة بسحب ذهبية صغيرة. وفي الطريق الذي يمتد ما بين قمة تل «بيوتني» و«ويمبلدون» رأيت عددًا من الآثار البائسة التي تؤكد تدفق تيار النازحين الفزعين في اتجاه لندن ليلة الأحد بعد القتال. كانت هناك عربة ثنائية العجلات محفور عليها اسم

«توماس لوب، بائع خُضر، مدينة نيو مالدن» إحدى عجلاتها مكسورة وبها صندوق قصديري مهجور، وقبعة من القش مغروسة في الطين الذي تيبس الآن، وأعلى تل «وست هيل» رأيت الكثير من الزجاج الملطخ بالدماء حول حوض المياه المقلوب. كنت أتحرك بخطى متثاقلة، وكانت خُططي أبعد ما تكون عن الوضوح. فكرت في الذهاب إلى «ليذرهيد» مع أني كنت أعرف أن فرصتي في العثور على زوجتي تكاد تكون معدومة. مؤكد أنها وأبناء عمي قد فروا من المكان ما لم يكن الموت قد باغتهم فجأة، لكن بدا لي أني ربما أجد أو أعرف المكان الذي فر إليه سكان «سَري». كنت أعلم أني أود العثور على زوجتي، وأن قلبي يعتصر ألمًا عليها وعلى عالم البشر، لكن لم تكن لدي فكرة واضحة عن المكان الذي يمكنني العثور عليها فيه. حينها أيضًا كنت منتبهًا تمام الانتباه للوحدة التامة التي كنت أعانيها. ومن مفترق الطريق ذهبت — متخذًا من الأشجار والشجيرات الكثيفة غطاءً — إلى أطراف أراضي ويمبلدون الممتدة في كل مكان.

أضيئت رقع من المدى المظلم بنباتات الجولق الصفراء دون أي أثر للعشب الأحمر. وبينما أجوب المكان مترددًا على حدود الأرض الخلاء، أشرقت الشمس لتغمر جميع الأرجاء بالضوء والحيوية. التقيت مجموعة من الضفادع الصغيرة النشطة في مستنقع بين الأشجار. توقفت لأنظر إليها، وآخذ عبرة من إصرارها الشديد على الحياة. ولما استدرت فجأة بعدها بقليل وسط شعور غريب بأني مراقَب، رأيت شيئًا يربض وسط مجموعة من الأشجار. وقفت أشاهد ذلك الشيء. تقدمتُ للأمام خطوة، فوقف، ووجدته رجلًا مسلحًا بسيف قصير مقوس. اقتربت منه ببطء، بينما وقف هو ساكنًا بلا حراك ينظر إلي.

عندما اقتربت منه أكثر، وجدته يرتدي ملابس مغبَّرة ومتسخة كملابسي، الواقع أنه بدا وكأن أحدًا جرَّه عبر بالوعة. وعندما اقتربت أكثر، رأيت وحل المصارف الأخضر يمتزج باللون البني الباهت للطين الجاف والبقع الفحمية اللامعة. انسدل شعره الأسود فوق عينيه، وكان وجهه أسود متسخًا غائرًا حتى إنني لم أتعرف عليه أول الأمر. كان ثمة جرح أحمر في الجزء السفلي من وجهه.

صاح الرجل عندما أصبحت على مسافة عشرة أمتار منه: «مكانك!» فتوقفت. قال بصوت أجش: «من أين أتيت؟»

فكرت في سؤاله وأنا أتفحصه.

قلت: «أتيت من «مورتليك». كنت مدفونًا بالقرب من حفرة المريخيين التي أحدثتها أسطوانتهم. وقد استطعت الفرار.»

قال: «ما من طعام هنا. تلك بلدتي؛ كان هذا التل متجهًا للأسفل نحو النهر وللخلف نحو «كلابهام» وحتى حدود الأرض الخلاء. أي طريق ستسلك؟»

أجبته متأنيًا: «لا أدري. كنت مدفونًا تحت أنقاض أحد المنازل مدة ثلاثة عشر أو أربعة عشر يومًا. لا أعرف ماذا حدث.»

نظر إليّ في ارتياب، وظل يحدق في، ثم تغيرت تعبيرات وجهه.

أضفت: «لا رغبة لدي في التوقف هنا. عليّ الذهاب إلى «ليذرهيد» لأن زوجتي كانت هناك.»

مدَّ إصبعه مشيرًا إليّ.

قال: «إنه أنت! ذلك الرجل من «ووكينج». ولم تلق حتفك في «وايبريدج».»

تعرفت عليه في اللحظة نفسها.

– «وأنت المدفعي الذي جاء إلى حديقتي.»

قال: «يا لحسن الحظ! كلانا محظوظ! يا للعجب!» مدَّ يده نحوي، فصافحتها. وأردف: «تحركت زحفًا داخل أحد المصارف، لكنهم لم يقتلوا الجميع. وبعد أن رحلوا، توجهت نحو «والتون» عبر الحقول. لكن ... هذه ليست ستة عشر يومًا تمامًا، والشيب تسلل إلى شعرك.» أدار رأسه فجأة، ثم قال: «إنه غراب. أصبحت أعرف أن للطيور ظلالًا تلك الأيام. المكان هنا مكشوف نوعًا ما. دعنا نسير أسفل تلك الشجيرات، ونستكمل حديثنا.»

سألته: «هل رأيت أحدًا من المريخيين؟ منذ أن خرجت من ...»

قال: «لقد رحلوا باتجاه لندن. أظن أن لديهم معسكرًا أكبر هناك. أثناء الليل في كل مكان هناك — في طريق «هامستيد» — تتوهج السماء بأضوائهم. بدا المكان وكأنه مدينة كبيرة، ووسط هذا الوهج يمكنك أن تراهم وهم يتحركون. أما في النهار فلا يسعك هذا. لكن بالقرب منهم ... لم أرهم ...» (أخذ يعدُّ على أصابعه) «... طيلة خمسة أيام. بعدها رأيت اثنين منهم في طريق «هامرسميث» يحملان شيئًا ضخمًا. والليلة قبل الأخيرة ...» توقف وتحدَّث متأثرًا «... اقتصر الأمر على الأضواء، لكن هذا الشيء كان في الهواء. يخيَّل إلي أنهم بنوا آلة طائرة، وأنهم يتعلمون الطيران.»

وقفت على يديّ وركبتيّ لأننا كنا قد وصلنا إلى الشجيرات.

– «طيران!»

قال: «أجل، الطيران.»

واصلت التحرك حتى وصلت إلى مكان صغير تظله الأشجار، وجلست.

قلت: «انتهى أمر البشرية جمعاء. لو تمكنوا من فعل ذلك، لجابوا العالم في يُسر.»

أومأ برأسه موافقًا.

– «سيفعلون. لكن ... سيخفف ذلك وطأة الأمور هنا قليلًا. وإلى جانب ذلك ...» نظر إلي، وأضاف: «ألست على يقين أنها نهاية البشر؟ أنا متيقن من ذلك. لقد هُزمنا، وقُضي علينا.»

حدقت النظر. قد يبدو الأمر غريبًا، لكني لم أفكر في تلك الحقيقة من قبل؛ حقيقة باتت واضحة وضوح الشمس فور أن تحدث بها. كنت لا أزال محتفظًا ببصيص من الأمل. تلك عادتي في التفكير دائمًا. ظل يكرر كلامه: «قُضي علينا.» وكان كلامه يحمل يقينًا قاطعًا.

قال: «قُضي الأمر. لقد فقدوا واحدًا ... واحدًا فحسب. لقد أحكموا سيطرتهم، وشلُّوا حركة أكبر قوة في العالم. حققوا فوزًا سهلًا علينا. لم يكن موت أحدهم في «وايبريدج» سوى حادث. وهؤلاء هم الطلائع فحسب. إنهم يواصلون القدوم إلى هنا. تلك النجوم الخضراء ... لم أر أيًّا منها مدة خمسة أو ستة أيام، لكني على يقين أنها تسقط في مكان ما كل ليلة. ما لنا حيلة في الأمر. لقد هُزمنا! لقد قُضي علينا!»

لم أُحر جوابًا، واكتفيت بالتحديق أمامي محاولًا التفكير عبثًا في شيء يوازن كلامه.

قال المدفعي: «تلك ليست حربًا. لم تكن حربًا قط؛ ليست أكثر من حرب بين البشر والنمل.»

فجأة تذكرت الليلة التي قضيتها في المرصد.

– «بعد الطلقة العاشرة، لم يطلقوا شيئًا ... على الأقل حتى سقوط الأسطوانة الأولى.»

قال المدفعي: «كيف عرفت؟» أوضحتُ ما لدي من معلومات، وأخذ يفكر فيها. قال: «عطل ما أصاب مدافعهم. لكن ماذا لو حدث ذلك؟ سوف يصلحونها على الفور. وحتى لو تأخروا، فكيف يمكن لهذا أن يغير النهاية؟ ليست سوى حرب بين البشر والنمل. جموع النمل تبني مُدنها، وتحيا حياتها، وتخوض حروبها وثوراتها، إلى أن يود البشر إزاحتهم من الطريق، فيُزاحون من الطريق. هذا حالنا الآن ... لسنا سوى جموع من النمل. فقط ...»

قلت: «ماذا؟»

– «نحن نمل يؤكَل.»

جلسنا كلانا ينظر إلى الآخر.

قلت: «وماذا سيفعلون بنا؟»

أجاب: «ذلك ما كنت أفكر فيه؛ ذلك ما كنت أفكر فيه. بعد أن تركت «وايبريدج»، اتجهت جنوبًا وأنا أفكر. أدركت ما يحدث. كان معظم الناس منهمكين في الصراخ ونشر الهياج فيما بينهم. لكنني لا أحب الصراخ. لقد واجهت الموت بضع مرات؛ لست جنديًّا زائفًا، وفي أحسن الأحوال وأسوئها الموت مجرد موت. ومن يواصل التفكير هو الذي يحظى بالنجاة. رأيت الجميع يسلكون الطريق بعيدًا عن الجنوب، وقلت في نفسي: «لن يكفي الطعام في هذا الاتجاه.» ثم استدرت في الاتجاه الآخر. ذهبت إلى المريخيين مثلما يذهب عصفور إلى واحد من بني البشر. في كل مكان ...» لوَّح بيده في الأفق «... كانوا حشودًا يتضورون جوعًا وهم يفرّون، ويطأ بعضهم بعضًا بأقدامهم ...»

رأى وجهي، فتوقف مرتبكًا.

قال: «لا شك أن كثيرين ممن كانوا يمتلكون نقودًا قد فروا إلى فرنسا.» بدا عليه التردد بشأن الاعتذار لي، ووقعت عيناه على عيني، فاستطرد: «الطعام هنا في كل مكان. معلبات في المتاجر؛ خمور، ومشروبات كحولية، ومياه معدنية، قنوات المياه ومصارفها خالية. حسنًا ... كنت أخبرك عما أفكر فيه. قد قلت لنفسي: «تلك كائنات عاقلة، ويبدو أنهم يريدوننا غذاءً لهم. في البداية سيسحقوننا؛ سيسحقون السفن والماكينات والمدافع والمدن وكل ما لدينا من نظام وترتيب. كل ذلك سيختفي. لو أن أحجامنا كأحجام النمل، لربما خرجنا من بينهم سالمين، لكننا لسنا كذلك. الوضع مستعص على السيطرة. تلك أولى الحقائق المؤكدة.» أليس كذلك؟»

صدَّقت على كلامه.

– «هذا هو الحال، وقد أنعمت التفكير فيه. الأمر الثاني أنهم الآن ينالون منا وقتما يريدون. على المريخي أن يقطع بضعة أميال فحسب ليصل إلى حشد من الفارّين. رأيت واحدًا منهم ذات يوم بالقرب من «واندسورث» يدك المنازل دكًّا وينقِّب وسط الأنقاض. لكنهم لن يستمروا على ذلك. حالما ينتهون من تدمير السفن والمدافع والسكك الحديدية وينتهون من كل ما يفعلونه هناك، سيبدءون في الإمساك بنا على نحو منظم؛ يختارون الأفضل من بيننا ويودِعونهم داخل أقفاص وأشياء شبيهة. هذا ما سيبدءون فعله عما قريب جدًّا. يا إلهي! إنهم لم يبدءوا حربهم ضدنا بعد. ألا ترى ذلك؟»

قلت متعجبًا: «لم يبدءوا!»

– «لم يبدءوا. كل ما حدث حتى الآن إنما حدث بسبب عدم التزامنا الهدوء ... نحن نزعجهم بالمدافع وبمثل تلك الحماقات. نفقد هدوءنا، ونتدافع حشودًا إلى أماكن ليست أكثر أمانًا عن الأماكن التي نفر منها. أما هم، فليست لديهم الرغبة في التضييق علينا بعد. هم يصنعون معداتهم؛ يصنعون كل المعدات التي لم يستطيعوا إحضارها معهم، ويهيئون المكان لباقي شعبهم. وهذا على الأرجح سبب توقف أسطواناتهم وقتًا خشية إلحاق الأذى بمن جاءوا منهم من قبل. بدلًا من أن نهرول على غير هدى مكتفين بالولولة أو إعداد المواد المتفجرة على أمل القضاء عليهم، علينا أن نهيئ أنفسنا بما يتفق والوضع الجديد. هذا ما توصلت إليه. لا يتعلق الأمر بما يريده الإنسان لبني جنسه، بل بما تشير إليه الحقائق. وذاك هو المبدأ الذي تصرفت وفقه. المدن والأمم والحضارة والتقدم ... كل شيء انتهى. انتهى أمرنا. قُضي علينا.»

– «لكن إذا كان الوضع كذلك، فماذا تبقى لنحيا من أجله؟»

– «لن يكون هناك مزيد من الحفلات الموسيقية الممتعة مدة مليون عام أو نحو ذلك، لن تكون هناك أي «أكاديمية ملكية للفنون»، ولا طعام شهي في المطاعم. إذا كنت تسعى وراء اللهو والتسلية، فظني أن الأمر قد انتهى. إذا كانت تتبع سلوكيات معينة في قاعة الاستقبال أو كنت ممن يمقتون تناول البازلاء باستخدام السكين أو إسقاط حروف الهاء في أوائل الكلمات، فعليك أن تتخلص من تلك العادات. لن يكون لها استخدام فيما بعد.»

– «تعني ...»

– «أعني أن البشر مثلي سيواصلون الحياة ... من أجل الحفاظ على النسل. دعني أؤكد لك أني مصرٌّ على الحياة. ولو لم أكن مخطئًا، فستُظهر أنت أيضًا ما بداخلك عما قريب. لن يبيدونا. ولا أعني بذلك أيضًا أنهم سيمسكون بي ويروضونني ويسمِّنونني ويربونني كما لو كنت ثَوْرًا هادرًا. أُفٍّ لذلك! عجبًا لهؤلاء الزاحفين البنيِّين!»

– «لا تقصد أن تقول ...»

– «بل أقصد. سوف أواصل الحياة تحت أقدامهم. لقد خططت للأمر، وفكرت فيه مليًّا. نحن البشر قُضي أمرنا. نحن لا نعرف الكثير. علينا أن نتعلم قبل أن نحظى بالفرصة، وعلينا أن نحيا، ونواصل الاعتماد على أنفسنا ونحن نتعلم. أترى! هذا ما يتعين فعله.»

حدقت فيه مذهولًا، وأثَّر في كثيرًا عزم الرجل.

صحت: «يا الله! أنت محق بالفعل.» وأمسكت فجأة بيده.

قال وعيناه تلمعان: «فكرتُ في الأمر مليًّا، ما رأيك؟»

قلت: «استمر.»

– «حسنًا، مَن يريدون الإفلات من قبضتهم عليهم أن يستعدوا. وها أنا ذا أستعد. تأكَّد أننا لن نتحول جميعًا إلى حيوانات متوحشة، وهذا ما سيحدث. لهذا السبب راقبتُك؛ إذ خامرتني الشكوك. أصبحتَ هزيلًا. لم أكن أعرفك، أو أعرف عنك شيئًا. هؤلاء — مَن سكنوا تلك المنازل وشغلوا تلك الوظائف البائسة واعتادوا أن يسلكوا ذاك الطريق — لن يجدي وجودهم نفعًا. هؤلاء يفتقرون إلى الشجاعة في داخلهم، ليست لديهم أحلام تبعث على الفخر ولا رغبات تبعث على الفخر أيضًا، والإنسان الذي لا يمتلك هذا أو ذاك ... يا إلهي! ماذا يمكن أن يكون سوى رعديد؟ هؤلاء اعتادوا أن يهرعوا إلى العمل ... رأيت المئات منهم يحملون إفطارهم في يدهم يركضون مندفعين ويسرعون الخطى كي يلحقوا بقطارهم المتواضع الذي يستقلونه مستخدمين التذاكر الموسمية، وكل ذلك خشية أن يُفصلوا من عملهم؛ يعملون في وظائف لا يكلفون أنفسهم عبء فهمها، ويهرعون في طريق العودة خشية أن يتأخروا عن موعد العشاء، ويبقون في منازلهم بعد العشاء خوفًا من الشوارع الخلفية، ويقضون الليل مع زوجاتهم اللاتي تزوجوا بهن ليس لأنهم يريدونهن، بل لأنهم امتلكوا القليل من المال الذي يوفر لهم الأمان في خضم سعيهم المتعجِّل في ذلك العالم. يؤمِّنون على حياتهم ويستثمرون أموالهم مخافة التعرض للنوازل. وفي أيام الآحاد ... يخافون من الآخرة، وكأن جهنم أُعدَّت للأرانب! المريخيون سيكونون مجرد عطيَّة من الله لهؤلاء. سينعمون بأقفاص فسيحة جذابة، وطعام مسمِّن، وتناسل موزون لا خوف. بعد أسبوع أو نحو ذلك من المطاردة في الحقول والأراضي على مِعَد خاوية، سوف يأتون ويُمسَك بهم عن طيب خاطر. وبعد قليل سيغمرهم السرور. سوف يتعجبون مما فعله الناس قبل أن يتولى المريخيون أمرهم. المتسكعون في الحانات، وأزيار النساء والمغنُّون ... بوسعي أن أتخيلهم.» أضاف بنبرة رضا مشوبة بالأسى: «سيكون هناك الكثير والكثير من الإحساس والتدين بينهم. كثير من الأشياء رأيتها بعيني، لكنها لم تتجل أمامي بوضوح إلا في الأيام القليلة الأخيرة. كثيرون سيقبلون بالأمور على ما هي عليه ... بدناء حمقى، وكثيرون سيختلج صدورهم شعور بأن ما يحدث ليس من الصواب في شيء، وأنه يتعين عليهم فعل شيء ما. ومتى فرضت

الأوضاع على الكثير من الناس شعورًا بأنه يتعين عليهم فعل شيء ما، فإن الضعفاء — ومن يصبحون على شاكلتهم من كثرة التفكير المشوب بالتعقيد — سيلتجئون إلى نوع من الدين الخانع، وسيسيطر عليهم شعور زائف بالورع وعلو المكانة، وسيخضعون أنفسهم لمشيئة الرب. الأغلب أنك رأيتَ الشيء نفسه. إنها فورة من مشاعر الذعر. ستمتلئ تلك الأقفاص بالترانيم والتراتيل ومظاهر الورع. أما أصحاب العقول الأبسط فسيجدون في الشبق سلواهم.»

توقف عن الكلام هنيهة.

«الأغلب أن هؤلاء المريخيين سيدجِّنون بعضهم، ويدربونهم على تنفيذ الحيَل ... من يدري؟ ... قد يزدادون تعلقًا بحيوانهم الأليف الذي بلغ من العمر ما يجعله يستحق القتل. وربما يتدرب البعض على اصطيادنا.»

صرخت: «كلّا! هذا مستحيل! ما من بشر ...»

قال المدفعي: «ما جدوى تكرار تلك الأكاذيب؟ ثمة أناس يفعلون ذلك عن طيب خاطر. من السخف أن ندَّعي غير ذلك!»

ووجدتُني أنصاع لما يقول.

قال: «لو طاردوني، يا إلهي، لو طاردوني!» وانخرط في تفكير كمِد.

جلست أتأمل ما قيل لي. لم أستطع التفكير في شيء أدحض به رأي الرجل. في الأيام التي سبقت الغزو المريخي، لم يكن أحد ليشك في تفوقي الذهني عليه؛ فأنا الكاتب المعروف والمتخصص في الموضوعات الفلسفية، وهو جندي في الجيش، لكنه سبقني في تكوين فكرة حول الوضع لم أدركها قط.

قلت على الفور: «ماذا ستفعل؟ أي خطط فكرت فيها؟»

بدا عليه التردد، ثم قال: «حسنًا، يُفترض بالسؤال أن يكون «ما الذي يتعين علينا فعله؟» علينا أن نبتكر أسلوب حياة يستطيع البشر معه أن يعيشوا ويتكاثروا، ويكونوا آمنين بدرجة تمكنهم من تربية أبنائهم. نعم ... تمهَّل قليلًا، وسوف أوضح لك ما أفكر فيه. من سيروَّضون من البشر سوف يعيشون حياتهم كما الحيوانات الأليفة، وفي غضون بضعة أجيال سوف يصبحون ضخامًا موفوري الدماء بلهاء! الخطر يكمن في أننا — نحن الذين سيرفضون الخضوع لهذا الترويض — سنعود إلى بربريتنا ... إنني أنوي الحياة تحت الأرض. كنت أفكر في مصارف المياه. مؤكد أن من لا يعرفون المصارف يفكرون في أمور مروعة، لكن يوجد أسفل لندن مساحات تبلغ أميالًا وأميالًا — مئات

الأميال — وبضعة أيام من المطر كفيلة بتنظيف هذه المساحات. المصارف الرئيسية كبيرة ومليئة بالهواء، ثم إن هناك القِباء، والسراديب، والمستودعات التي يمكن عمل ممرات تربط بينها وبين المصارف، وهناك أيضًا أنفاق السكة الحديدية. أرأيت؟ وهكذا نشكِّل جماعة من الرجال الأقوياء متفتحي العقول. لن ينضم إلينا أي من الضعفاء البلهاء.»

– «هل تقصد أنني معكم؟»

– «أنا أتحدث، أليس كذلك؟»

– «لن نتنازع في هذا الشأن. واصل الحديث.»

– «سنحتاج أيضًا نساء قويات البنية متفتحات العقول، سنحتاج أمهات ومعلمات. لن تكون لنا حاجة بالنساء المتكاسلات، ولا البائسات. لا يمكن أن ينضم إلينا ضعيف أو أحمق. ستستحيل الحياة واقعًا مرة أخرى، ولا بد لعديمي النفع والمزعجين والعابثين من الموت. إنه ضرب من ضروب الخيانة أن يعيشوا ويدنِّسوا الجنس البشري، فضلًا عن أنهم لن يكونوا سعداء. وفوق كل هذا الموت ليس أمرًا مرعبًا؛ الجُبن هو ما يجعله يبدو كذلك. وعلينا أن نجتمع في كل تلك الأماكن. ستكون ضاحيتنا لندن، وربما نعين حراسة ونتجول في الأرجاء عندما يبتعد المريخيون. ربما نلعب الكريكيت أيضًا. هكذا يمكننا إنقاذ الجنس البشري. أليس هذا أمرًا ممكنًا؟ لكن إنقاذ الجنس البشري ليس مشكلة في حد ذاته. المشكلة تكمن في التحول إلى البربرية. الأمر يتعلق بإنقاذ ما لدينا من معرفة وبتنميتها. وهنا يأتي دور أمثالك. هناك الكتب، وهناك النماذج التي يمكن الاحتذاء بها. علينا أن نهيئ أماكن آمنة كبيرة على مسافات عميقة، ونضع بها كل ما نستطيع من كتب، لا أقصد الروايات والأشعار، بل أقصد الأفكار، والكتب العلمية. هنا يأتي دور الرجال الذين هم على شاكلتك. علينا الذهاب إلى المتحف البريطاني وإحضار كل هذه الكتب. علينا على وجه التحديد الحفاظ على العلم وتعلم المزيد. علينا مراقبة هؤلاء المريخيين. بعضنا سيقوم بدور الجواسيس. وأهم شيء أن نترك المريخيين وشأنهم. حتى السرقة لا ينبغي لنا أن نقربها. إذا صادفناهم في الطريق، علينا الابتعاد عنهم فورًا. لا بد أن نؤكد لهم أننا لا ننوي شرًّا. هم كائنات ذكية، ولن يكترثوا بمطاردتنا لو أن لديهم كل ما يحتاجون إليه، ولو أنهم عرفوا أننا لسنا سوى طفيليات لا ضرر منها.»

توقف المدفعي، ووضع إحدى يديه المتسختين فوق ذراعي.

«وفي النهاية، قد لا نحتاج الكثير من الوقت للتعلم قبل أن ... فقط تخيل معي: أربعًا أو خمسًا من آلات القتال التابعة للمريخيين تنطلق فجأة تصوِّب الأشعة الحرارية

هنا وهناك دون أن يكون بداخلها أي مريخي، بل سيكون بداخلها هؤلاء الرجال الذين تعلموا. تخيل أنك تتحكم في إحدى آلاتهم المبهرة بشعاعها الحراري توجهه هنا وهناك! ما الذي سيهم إذا نسفتَ المكان بعد هجمة كهذه؟ أظن أن المريخيين سيفتحون أعينهم الجميلة! ألا تستطيع تخيلهم أيها الرجل؟ ألا تستطيع تخيلهم وهم يركضون ويهرعون، يلهثون ويستغيثون بآلاتهم الأخرى؟ وفي كل مرة يفاجَئون بوجود عطل ما. يصدرون أصوات هسيس وضجيج وقعقعة! ثم ينطلق الشعاع الحراري مرة تلو الأخرى. انظر ماذا حدث! لقد استعاد الإنسان هيمنته.»

استحوذت جرأة المدفعي الممزوجة بسعة الخيال، ونبرة اليقين والشجاعة التي تحلى بها على عقلي تمامًا فترة من الوقت. صدَّقت دونما تردد كل ما قاله عن تكهنه بشأن مصير البشر وإمكانية تطبيق مخططه المذهل، وعلى القارئ الذي يظنني سريع التأثر أو أحمق أن يقارن بين وضعه — وهو يقرأ الرواية في هدوء واطمئنان — وبين وضعي وأنا أربض خائفًا وسط الشجيرات أستمع لما يقوله المدفعي والخوف يربكني. تحدثنا على هذا النحو طوال الساعات الأولى من الصباح، ثم تسللنا خارج الشجيرات، وبعد أن ألقينا نظرة على السماء بحثًا عن المريخيين، أسرعنا في عجالة إلى المنزل الذي اتخذ منه ملجأً فوق تل «بيوتني». كان مخزنًا للفحم، وعندما رأيت العمل الذي عكف عليه أسبوعًا — حفرة يبلغ طولها بالكاد عشرة أمتار حفرها كي يصل إلى المصرف الرئيسي فوق تل «بيوتني» — بدأت أفكر في تلك الفجوة بين أحلامه وقدراته. بوسعي أن أحفر حفرة كهذه في يوم واحد. لكن اقتناعي بما قاله كان كافيًا لأن أشاركه العمل طوال الصباح وحتى بعد منتصف النهار. كانت لدينا عربة يد، وكنا نلقي مخلفات الحفر أمام الموقد. جددنا نشاطنا بتناول علبة من الحساء والخمر من خزانة الطعام المجاورة. وجدت راحة غريبة من ذلك العالم الغريب في هذا العمل المتواصل. وبينما نعمل معًا أعدت التفكير في مشروعه، وبسرعة انتابتني الاعتراضات والشكوك، لكني واصلت العمل طوال فترة الصباح وأنا سعيد للغاية بأني وجدت لنفسي هدفًا أعمل من أجله ثانية. بعد ساعة من العمل بدأت أفكر في المسافة التي لا بد من قطعها قبل الوصول إلى البالوعة، وفي احتمالات عدم الوصول إليها بالمرة. المشكلة التي واجهتني على الفور تعلقت بالسبب الذي يجعلنا نحفر هذا النفق الطويل في حين أن بإمكاننا الوصول إلى المصرف مباشرة من إحدى الفتحات المخصصة للوصول إلى المصارف. بدا لي أيضًا أن اختيار هذا المنزل لم يكن صائبًا، وأنه يتطلب حفر نفق طويل دون داعٍ. وما إن بدأت أفكر في تلك الأمور، حتى توقف المدفعي عن الحفر، ونظر إلي.

قال: «نحن نبلي بلاءً حسنًا.» وضع مجرفته أرضًا، واستطرد: «دعنا نتوقف عن العمل قليلًا. أظن أن الوقت قد حان لاستكشاف المكان من فوق سطح المنزل.»

كنت أحبذ الاستمرار في العمل، وبعد قليل من الممانعة أمسك بمجرفته، وفجأة خطرت ببالي فكرة. توقفت، وتبعني في ذلك على الفور.

قلت: «لماذا كنت تتجول في الخارج بدلًا من البقاء هنا؟»

قال: «كنت أستنشق بعض الهواء. كنت سأعود. المكان يصبح أكثر أمانًا أثناء الليل.»

– «لكن ماذا عن العمل؟»

قال: «لا يمكننا أن نعمل طوال الوقت.» وفي غمضة عين رأيت حقيقة الرجل. تردد وأمسك بمجرفته، وقال: «علينا أن نستكشف المكان الآن. فلو اقترب أحد من هنا، لسمع صوت المجارف، وانقض علينا في غفلة منا.»

لم أكن قد عقدت العزم على معارضته بعد. ذهبنا معًا إلى السطح، ووقفنا فوق سلَّم نختلس النظر من الباب هناك. لم نر أيًّا من المريخيين، وجازفنا بالخروج على السطح محتمين بحاجز السقف.

ومن ذلك المكان حجبت مجموعة من الشجيرات الجزء الأكبر من «بيوتني»، لكننا استطعنا رؤية النهر في الأسفل — الذي بدا ككتلة فقاعية من العشب الأحمر — وأجزاء من «لامبيث» تغمرها المياه وتكسوها الحمرة. احتشد العشب الأحمر فوق الأشجار حول القصر القديم، وامتدت فروعه هزيلة يخلو منها أثر الحياة، وظهرت أوراقه المتغضنة من بين هذه الفروع. من بين الأمور الغريبة الاعتماد التام لتلك النباتات على الماء الجاري في انتشارها. في المكان حولنا لم يكن هناك أي أثر للعشب الأحمر. وعلى مسافة من «كينجستون»، تصاعد دخان كثيف، وهذا الدخان وضباب أزرق حجبا التلال ناحية الشمال.

بدأ المدفعي يخبرني عن نوعية البشر الذين لا يزالون في لندن.

قال: «ذات ليلة الأسبوع الماضي، أضاء بعض الحمقى الأنوار الكهربائية، وسطعت الأضواء في كل مكان في شارع «ريجنت» والسيرك، حيث اكتظ المكان بالسكارى رثي الثياب الذين يرسمون بالألوان على وجوههم. هكذا أخبرني رجل كان هناك. ومع طلوع النهار انتبهوا إلى إحدى آلات القتال الواقفة بالقرب من «لانجام» تنظر إليهم من أعلى. لا أحد يعلم كم من الوقت مر على وقوف تلك الآلة هناك. لا بد أنها بثت الرعب في نفوسهم.

تحركت الآلة على الطريق باتجاههم، والتقطت نحو مائة شخص ممن بلغ بهم السُّكر أو الخوف حدًّا أعجزهم عن الفرار.»

لحظات غريبة لن يوفيها أحد حقها في الوصف مهما قيل عنها!

وردًّا على أسئلتي، عاد المدفعي إلى الحديث عن خططه المبالغ فيها. زاد حماسه، وتكلم بلباقة بالغة عن احتمالية السيطرة على إحدى آلات القتال، حتى إنني عاودت تصديقه إلى حد ما. لكن بما أنني بدأت الآن أفهم شيئًا من طبيعته، فقد استطعت التكهن بتأكيده على عدم التعجل في فعل شيء. ولاحظت أنه صار متأكدًا الآن من قدرته شخصيًّا على التصدي للآلة العملاقة.

بعد فترة نزلنا إلى القبو. لم يبدِ كلانا رغبة في مواصلة الحفر، وعندما اقترح علي تناول وجبة لم أعترض. فجأة بدا عليه الكرم الشديد، وعندما انتهينا من الطعام، ذهب هنيهة ثم عاد ومعه سيجار فاخر. أشعلنا السيجار، وازداد شعوره بالتفاؤل. كان يعتبر مجيئي مناسبة مهمة.

قال: «توجد شمبانيا في القبو.»

قلت: «يمكننا أن نحقق نتيجة أفضل في الحفر إذا اكتفينا بشرب البورجوندي.»

أجابني: «كلا، أنا المُضيف اليوم. شمبانيا! يا لعظمة الرب! أمامنا عمل شاق للغاية! دعنا نأخذ قسطًا من الراحة ونستجمع قوانا في تلك الأثناء. انظر لتلك اليدين المتقرحتين!»

وتحقيقًا لفكرة الراحة هذه، أصرَّ على أن نلعب الورق بعد أن تناولنا الطعام. علَّمني لعبة البوكر، وقسمنا لندن بيننا؛ فأخذت أنا الجانب الشمالي وهو الجانب الجنوبي. قد يبدو الأمر غريبًا منافيًا للعقل من وجهة نظر القارئ المتزن، لكن هذا ما حدث بالفعل، والأغرب من هذا أني وجدت لعبة الورق وغيرها الكثير من الألعاب الأخرى شائقة للغاية.

كم هي غريبة عقول البشر! كم كان غريبًا أن نجلس — وجنسنا البشري على شفا الفناء أو الانحطاط المرعب، دون أي احتمال أمامنا سوى الموت في أبشع صوره — هكذا ونحن نلعب الورق على هذا النحو من الابتهاج. بعدها علَّمني لعبة البوكر، ثم هزمته ثلاث مرات في لعبة الشطرنج. عندما حلَّ الظلام قررنا المجازفة بإشعال أحد المصابيح.

بعد سلسلة متصلة من الألعاب تناولنا العشاء، وأنهى المدفعي ما تبقى من الشمبانيا. واصلنا تدخين السجائر. لم يعد هو نفسه ذلك الرجل الهُمام الذي سيحافظ على الجنس البشري والذي التقيته في الصباح. كان لا يزال متفائلًا، لكن تفاؤله كان

أقل حيوية وأكثر تفكُّرًا. أذكر أنه اختتم بالحديث عن صحتي، ولم يخل حديثه من الرتابة والتوقف كثيرًا. تناولت سيجارًا، وصعدت الطابق العلوي لألقي نظرة على الأضواء الخضراء البراقة التي تحدث عنها فوق تلال «هاي جيت».

في البداية حدقت النظر بحماقة عبر وادي لندن. كان الظلام يكتنف التلال الشمالية، وتوهجت النيران القريبة من «كينسنجتون» بلون أحمر، وبين الحين والحين كان أحد ألسنة اللهب الحمراء البرتقالية يتوهج ثم يخبو ويتلاشى وسط زرقة الليل القاتمة. كل ما تبقى من لندن كان متشحًا بالسواد. وعلى مقربة لاحظت ضوءًا غريبًا — وهجًا أرجوانيًّا باهتًا — يتراقص تحت نسيم الليل. بقيت فترة لا أعرف شيئًا عن مصدر هذا الضوء، ثم عرفت أنه لا بد أن يكون العشب الأحمر هو مصدر ذلك الإشعاع الخافت. وهنا تنبَّهت لدي مشاعر كانت ساكنة من قبل تتعلق بالتمييز وتقدير الأمور حق قدرها. ألقيت نظرة من هذا المكان على المريخ الذي بدا رائق الحمرة متوهجًا أعلى ناحية الغرب، ثم حدقت النظر طويلًا وفي جدية إلى الظلمة التي تكتنف «هامستيد» و«هاي جيت».

ظللت وقتًا طويلًا فوق السطح أتعجب من التغييرات الغريبة التي وقعت ذلك اليوم. تذكرت الحالات الذهنية التي مررت بها من وقت الصلاة التي أديتها في جوف الليل وحتى لعب الورق على هذا النحو السخيف. تملكني شعور قوي بالاشمئزاز. أذكر أني قذفت بالسيجارة بعيدًا في حركة رمزية. تبدَّى أمامي بوضوح المدى الذي بلغته من الحماقة. عقدت العزم على ترك هذا الحالِم الغريب الذي يفتقر إلى التنظيم مع طعامه وشرابه، وأن أتوجه إلى لندن. بدا لي أني قد أحظى هناك بأفضل فرصة في معرفة ما يفعله المريخيون والبشر. كنت لا أزال فوق السطح عندما بزغ ضوء القمر.

الفصل الثامن

لندن بلا حياة

بعد أن افترقت عن المدفعي نزلت التل، وسلكت طريق «هاي ستريت» عبر الجسر إلى «فولام». كان العشب الأحمر منتشرًا في كل مكان، وكاد يسد طريق الجسر، لكن أوراقه كانت مبيضة بالفعل في أجزاء منها بفعل المرض المنتشر الذي كان يقضي عليها بسرعة هائلة الآن.

على ناصية المجاز الممتد حتى محطة «بيوتني بريدج» وجدت رجلًا ممددًا على الأرض. كان شديد السواد كعامل تنظيف المداخن بفعل الغبار الأسود، وكان على قيد الحياة لكنه مخمور إلى حد أفقده قوته وقدرته على الكلام. لم أحصل منه على شيء سوى لعنات ونكزات ممزوجة بالغضب. أظن أنه كان يُفترض بي البقاء معه لولا التعبيرات البربرية التي ارتسمت على وجهه.

كان الغبار الأسود في كل مكان على طول الطريق من الجسر إلى الأمام، وازداد كثافة في «فولام». كانت الشوارع هادئة على نحو مخيف. حصلت على طعام — حامض وجافٍّ عفن — من أحد المخابز هناك. وعلى مسافة باتجاه «والام جرين» بدت الشوارع خالية من الذرور، ومررت بصف من المنازل المشتعلة؛ كانت الضوضاء الصادرة عن الحريق مصدرًا للشعور بالراحة الشديدة. وعندما تقدمت نحو «برومتون»، أصبحت الشوارع هادئة مجددًا.

هناك التقيت ثانية بالذرور الأسود في الشوارع وفوق الجثث. رأيت مجموعة من الجثث على طريق «فولام» كان أصحابها قد لقوا حتفهم قبل عدة أيام، لذا مررت بجانبهم مسرعًا. غطاهم الذرور الأسود، وأخفى ملامحهم، ونهشت الكلاب جثة أو اثنتين.

حيثما لم يكن هناك ذرور أسود، كان المكان أشبه بيوم الأحد في المدينة، حيث المتاجر المغلقة والمنازل الموصدة والستائر المسدلة، والهجر، والسكون. لم تخل بعض

الأماكن ممن يقومون بأعمال السلب والنهب، وإن اقتصر الأمر على متاجر المؤن والخمور. في أحد الأماكن كانت نافذة متجر لبيع الجواهر مكسورة، لكن من الواضح أن أحدًا قاطَع السارق، إذ رأيت ساعة وعددًا من السلاسل الذهبية مبعثرة على الرصيف. لم ألق بالًا للمس أي منها. وعلى مسافة أبعد رأيت امرأة رثة الثياب متكومة على دَرج أحد الأبواب ويدها الموضوعة على ركبتها مشجوجة وقد سال دمها على ثوبها البني الشبيه بلون الصدأ، بينما كونت زجاجة شمبانيا كبيرة مكسورة بركة فوق الرصيف. بدت المرأة غارقة في نومها، لكنها كانت ميتة.

كلما ازددت توغلًا في لندن زاد السكون عمقًا، لكنه لم يكن سكون الموت، بل سكون القلق والترقب. في أي وقت قد يضرب الدمار الذي أحرق من قبل الحدود الشمالية الغربية للعاصمة تلك المنازل ويتركها رمادًا. كانت مدينة مهجورة غير صالحة للسكنى ...

في «ساوث كنسينجتون» كانت الشوارع خالية من الموتى ومن الذرور الأسود، وبالقرب منها سمعت صوت العواء للمرة الأولى. تسلل الصوت إلى حواسي على نحو كاد لا يُلحظ، كان تناوبًا له صوت النشيج ذا درجتين صوتيتين يدوي قائلًا: «أوولا، أوولا ... أوولا، أوولا» في تعاقب دائم. عندما اجتزت الشوارع المتجهة شمالًا زادت حدة الصوت، ثم بدا وكأن المنازل والمباني تخمده وتقطعه مرة أخرى. علا الصوت كثيرًا في طريق «إجزيبشن رود». وقفت أحدق باتجاه حدائق «كنسينجتون جاردنز» وأنا أتعجب من ذلك العواء البعيد الغريب. بدا الأمر وكأن المنازل العديدة الخاوية هذه قد وجدت صوتًا تعبر به عن خوفها ووحشتها.

عوى ذلك الصوت الخارق «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا»؛ فاجتاحت موجات هائلة منه الطريق الواسع المشمس بين المباني الشاهقة على جانبيه. استدرت نحو الشمال والدهشة تملؤني، واتجهت نحو البوابات الحديدية لمنتزه «هايد بارك». فكرت في دخول «متحف التاريخ الطبيعي» عنوة والعثور على طريق أصل من خلاله إلى قمم الأبراج لأكشف المنتزه من هناك، لكنني قررت البقاء على الأرض حيث يكون الاختباء السريع ممكنًا، وهكذا سلكت طريق «إجزيبشن رود». كانت جميع المنازل الكبيرة على جانبي الطريق خالية يخيم عليها السكون، وكان لوقع أقدامي على الطريق صدى يُسمع. عند القمة، وبالقرب من البوابة، وقعت عيناي على مشهد غريب؛ حافلة مقلوبة وهيكل عظمي لحصان نُزع عنه اللحم. تملكتني الحيرة وقتًا، ثم واصلت السير نحو الجسر فوق بحيرة

«سربنتين». زادت حدة الصوت أكثر فأكثر، مع أني لم أر شيئًا فوق قمم المنازل على الجانب الشمالي من المنتزه باستثناء خيط من الدخان جهة الشمال الغربي.

دوى الصوت: «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا» وبدا لي أنه قادم من الضاحية القريبة من منتزه «ريجنتس بارك». أثرت الصرخة الموحشة في عقلي. اختفت تلك الحالة النفسية التي كانت تلازمني، واستحوذ صوت العواء عليّ. وجدت نفسي مجهدًا للغاية، ومتقرح القدمين، وبدأت مرة أخرى أشعر بالجوع والعطش.

كان ذلك بعد انقضاء فترة الظهيرة. ما الذي يجعلني أتجول وحيدًا في مدينة الموتى هذه؟ لماذا أنا وحيد بينما لندن بالكامل ترقد في أكفانها السوداء؟ شعرت بوحشة تفوق الاحتمال. تذكرت أصدقاء قدامى كنت قد نسيتهم سنوات. فكرت في السموم داخل متاجر الكيميائيين وفي الكحوليات التي يخزنها تجار الخمور، وتذكرت الكائنَين المعاقرين للخمر اللذين — على حد علمي — يشاركانني هذه المدينة ...

وصلت شارع أكسفورد عند نصب «ماربل آرش» التذكاري، وهناك أيضًا رأيت الذرور الأسود والعديد من الجثث، وشممت رائحة كريهة تنذر بالسوء تنبعث من أقبية بعض المنازل. زاد ظمئي كثيرًا بعد الحرارة التي تعرضت لها أثناء سيري الطويل. وبصعوبة بالغة نجحت في اقتحام إحدى الحانات، وحصلت على الطعام والشراب. شعرت بالإجهاد بعد تناول الطعام، ودخلت قاعة الاستقبال خلف المشرب، ونمت على أريكة مصنوعة من شعر حصان أسود وجدتها هناك.

استيقظت لأجد صوت العواء الكئيب: «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا.» لا يزال في أذني. حلَّ الغسق، وبعد أن تناولت بعض البسكويت والجبن في المشرب، رأيت هناك خزانة لحفظ اللحوم، لكن لم أجد بها سوى اليرقات. تجولت عبر الميادين السكنية الهادئة إلى شارع «بيكر» — الميدان الوحيد الذي أذكره هو «بورتمان سكوير» — وهكذا وصلت أخيرًا إلى منتزه «ريجنتس بارك». عندما خرجت من أول شارع «بيكر» رأيت على مسافة بعيدة فوق الأشجار وسط صفاء سماء المغيب قلنسوة المريخي الذي كان يصدر ذلك العواء. لم أشعر بالخوف. دنوت منه كما لو كان الأمر طبيعيًّا. راقبته بعض الوقت، لكنه لم يتحرك. بدا أنه يقف ويصرخ لسبب لم أتبيَّنه.

حاولت التفكير في خطة، لكن صوت العواء الدائم أربك عقلي. ربما منعني تعبي الشديد من الشعور بالخوف. ومؤكد أن شعوري بالفضول لمعرفة سبب تلك الصرخة الرتيبة فاق شعوري بالخوف. استدرت بعيدًا عن المنتزه، وسلكت طريق «بارك رود»

— عازمًا على أن أدور حول المنتزه — متخذًا من شرفات المنازل غطاءً حتى تمكنت من رؤية ذلك المريخي الذي يعوي بلا حراك من ناحية «سانت جونز وود». وعلى بعد نحو مائتي متر من شارع «بيكر» سمعت عاصفة من النباح، ورأيت أول ما رأيت كلبًا يمسك بين فكيه قطعة لحم أحمر متعفن قادمًا نحوي تطارده مجموعة من الكلاب التي تتضور جوعًا. انعطف الكلب بعيدًا عني كي يتفاداني خشية أن أكون منافسًا جديدًا، ومع اختفاء أصوات النباح على الطريق الساكن، فرض صوت العواء المريخي نفسه من جديد.

رأيت آلة قابضة محطمة في منتصف الطريق إلى محطة «سانت جونز وود». في البداية ظننت أن منزلًا قد انهار على الطريق. وعندما تسلقت تلك الأنقاض انتفض جسدي لرؤية تلك الآلة العملاقة ممددة ومجساتها ملتوية ومحطمة ومعوجة بين الأنقاض التي تسببت فيها. كان الجزء الأمامي مهشمًا. بدا وكأنها قد اندفعت على غير هدى نحو المنزل مباشرة، وأن المنزل انهار فوقها. بدا لي بعدها أن ذلك ربما يكون قد حدث بسبب إفلات الآلة القابضة من سيطرة المريخي المسئول عنها. لم أستطع تسلق الأنقاض لأراها، وحينها كان قد مر وقت على بدء ظهور الشفق، فلم أستطع رؤية الدماء التي تلطخ بها مكان المريخي ولا غضروف المريخي المتآكل الذي خلفته الكلاب.

بينما الدهشة تساورني من كل ما رأيت، اندفعت نحو «بريمروز هيل». وفي مكان بعيد — ومن خلال فتحة وسط الأشجار — رأيت مريخيًّا ثانيًا لا يحرك ساكنًا كما الأول يقف في المنتزه باتجاه حدائق «زولوجيكال جاردنز» هادئًا. وعلى بعد مسافة قليلة من الحطام الموجود حول الآلة القابضة المحطمة التي قابلتها في طريقي، شاهدت العشب الأحمر مجددًا، ورأيت قناة «ريجنتس كانال» وقد بدت كتلة إسفنجية من نبات أحمر قان.

وبينما كنت أعبر الجسر، توقف الصوت: «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا.» أو قُطع إذا جاز التعبير. وحل الصمت على المكان كهزيم الرعد.

وقفت المنازل المغبَّرة حولي باهتة شاهقة الارتفاع معتمة، وكانت الأشجار في اتجاه المنتزه تزداد اسودادًا. وفي كل مكان حولي تسلق العشب الأحمر بين الأنقاض يتلوى ليصل إلى ارتفاع أعلى مني وسط العتمة. كان الليل — مصدر الخوف والغموض — يحل عليّ. لكن عندما كان ذلك الصوت قائمًا، كان بوسعي تحمل الوحشة والعزلة؛ بفضله بدت لندن وكأنها لا تزال حية، وشدَّ من أزري الإحساس بالحياة من حولي. وفجأة حدث

تغير وانقضى شيء ما — لم أكن أعرف ما هو — ثم ساد السكون؛ لا شيء سوى ذلك السكون الكئيب.

حدَّقتُ في لندن من حولي كما الأشباح. كانت نوافذ المنازل البيضاء تشبه محاجر العين في الجماجم. رأيت في مخيلتي أعدادًا مهولة من أعداء يتحركون في كل مكان حولي دون أن يصدروا صوتًا. تملكني شعور بالرعب والنفور من طيشي. من أمامي أصبح الطريق حالك السواد وكأنه مغطى بالقطران، ورأيت هيكلًا ملتويًا يرقد في الطريق. لم أستطع حمل نفسي على التقدم. انعطفت في طريق «سانت جونز وود»، وفررت مسرعًا من ذلك السكون الذي لا يحتمل نحو «كيلبيرن». اختبأت من الليل ومن السكون حتى بعد انقضاء منتصف الليل بكثير داخل مأوى لسيارات الأجرة في طريق «هارو رود». لكن قبل الفجر استعدت شجاعتي، وبينما لا تزال النجوم في السماء استدرت مرة أخرى نحو منتزه «ريجنتس بارك». ضللت الطريق بين الشوارع، وبعدها بقليل رأيت على طول طريق طويل — في الضوء الخافت للساعات الأولى من الفجر — منعطف تل «بريمروز هيل». على القمة كان مريخي ثالث يكاد يصل في ارتفاعه إلى النجوم الآفلة قائمًا بلا حراك مثل الآخرين.

استحوذ عليّ قرار جنوني. أفضل أن أموت وأضع نهاية لما أنا فيه. وأفضل أن أوفر على نفسي مشقة قتلها. تقدمت بلا روية نحو ذلك العملاق، وعندما اقتربت واشتد الضوء، رأيت حشدًا من الطيور السوداء تحوم وتتجمع حول القلنسوة. عند رؤية ذلك المشهد خفق قلبي بشدة، وشرعت أركض على الطريق.

أسرعت وسط العشب الأحمر الذي سدَّ طريق «سانت إدموندز تيراس» (خضت سيلًا من المياه كان يتدفق من محطة المياه باتجاه طريق «ألبرت رود» حيث وصل ارتفاع الماء إلى صدري)، وخرجت منه فوق أرض معشوشبة مع شروق الشمس. تراكمت كومات هائلة من الطين حول قمة التل لتشكل معقلًا مهولًا — كان آخر وأكبر مكان أعدَّه المريخيون — ومن وراء تلك الكومات تصاعد خيط من الدخان نحو السماء. رأيت كلبًا يركض وقد بدا عليه الاضطراب، ثم ما لبث أن اختفى. أصبحت الفكرة التي خطرت ببالي أكثر واقعية وأكثر منطقية. لم أشعر بالخوف؛ فقط شعرت بابتهاج مفرط مشوب بالرجفة وأنا أركض عبر التل نحو الوحش الواقف بلا حراك. ومن خارج القلنسوة تدلت بقايا بنية اللون ضامرة تنقرها الطيور الجائعة وتمزقها.

في لحظة أخرى اندفعت متسلقًا المعقل الأرضي، ووقفت على قمته حتى أصبح باطن المعقل أدنى مني. كان فراغًا شاسعًا به آلات عملاقة هنا وهناك، وتلال ضخمة من المواد،

وأماكن إيواء غريبة، ينتشر حولها المريخيون وقد فارقوا الحياة؛ بعضهم داخل آلات القتال المقلوبة والبعض داخل الآلات القابضة الجامدة حينئذ، وعشرات منهم متصلبون ساكنون يرقدون صفًّا واحدًا. قُتل المريخيون بفعل البكتيريا المسببة للتعفن التي لم تكن أجسامهم مهيأة لها، انتهت حياتهم مثلما انتهت حياة العشب الأحمر، انتهت حياتهم — بعد إخفاق كل آلات البشر — بفضل أوهن الكائنات التي أوجدها الرب لحكمةٍ على هذه الأرض.

هكذا انتهى الأمر، والواقع أنه كان بإمكاني أنا وغيري من البشر أن نتوقع ذلك لولا أن الهلع والفاجعة شلّا تفكيرنا. تلك الجراثيم حصدت أرواح البشر منذ بدء الخليقة؛ حصدت أرواح أسلافنا الذين سبقوا ظهور الجنس البشري منذ بدء الحياة هنا. لكن بفضل الانتخاب الطبيعي الذي مر به نوعنا، تكونت لدينا قوة مقاومة؛ فنحن لا نموت بسبب أي نوع من أنواع البكتيريا من دون صراع، فضلًا عن أن أجسادنا محصنة تمامًا ضد العديد منها مثل ما يسبب التعفن في المادة الميتة على سبيل المثال. أما في المريخ فلا وجود للبكتيريا؛ وما إن وصل هؤلاء الغزاة إلى الأرض، وما إن شربوا وتغذوا حتى بدأ حلفاؤنا المجهريون في العمل على الإطاحة بهم. عندما وقعت عيناي عليهم، كانوا قد هلكوا بلا رجعة، كانوا يحتضرون، بل يتعفنون وهم يتحركون هنا وهناك. لم يكن ثمة مفر. بحصيلة من الموتى بلغت المليارات اكتسب الإنسان حقه الأصيل في هذه الأرض، وهي مكانه في مواجهة كل الغزاة، وكانت ستظل مكانه لو بلغت قوة المريخيين عشرة أضعاف ما كانوا عليه. ذلك أن الإنسان لا يحيا أو يموت عبثًا.

انتشر المريخيون في كل مكان، وبلغوا من العدد نحو خمسين داخل تلك الهوة الشاسعة التي أحدثوها، بعد أن باغتهم الموت الذي لا بد أنه بدا غير مفهوم لهم شأنه شأن أي موت آخر. بدا لي ذلك الموت غير مفهوم أيضًا في هذا الوقت. كل ما كنت أعرفه أن تلك الكائنات التي كانت حية ومرعبة في نظر البشر صارت ميتة الآن. فكرت هنيهة أن الدمار الذي تسبب فيه الملك «سنحاريب» قديمًا قد تكرَّر، وأن الرب قد تأسف لما حدث، فانتزع ملك الموت أرواح تلك الكائنات في الليل.

وقفت أحدق في الحفرة، واستراح قلبي كثيرًا في نفس اللحظة التي أشرقت فيها الشمس لتغمر العالم بأشعتها. كانت الحفرة لا تزال ظلماء، وبدت المحركات الضخمة — التي كانت هائلة وعجيبة في قوتها وتعقيدها وغير مألوفة لسكان الأرض بأشكالها المتمعجة — ظلالًا غريبة غير واضحة. أمكنني سماع عدد كبير من الكلاب تتنازع على

الجثث التي ترقد في الظلام في أعماق الحفرة أسفل مني بمسافة كبيرة. في الجانب الآخر من الحفرة وعلى طرفها البعيد، طُرحت آلة الطيران الضخمة التي كانوا يستخدمونها في إجراء التجارب على غلافنا الجوي الأكثر كثافة عندما باغتهم التعفن والموت. نزل بهم الموت في الوقت المناسب تمامًا. عندما سمعت صوت نعيب فوقي، رفعت بصري إلى آلة القتال الضخمة التي لن تقاتل بعد الآن أبدًا، ورأيت البقايا الحمراء الممزقة للحم الذي تقطر على المقاعد المقلوبة فوق قمة تل «بريمروز هيل».

استدرت ونظرت نحو سفح التل حيث المكان الذي كان يقف فيه المريخيان اللذان رأيتهما الليلة الماضية عندما باغتهما الموت والذي أحاطت به الطيور الآن من كل جانب. مات المريخي في نفس اللحظة التي كان يصرخ فيها لرفاقه، ربما كان هو آخر من لقي حتفه منهم، واستمر صوته دون انقطاع إلى أن استُنزفت قوة آلته. لمع المريخيان الآن؛ هيكلان ثلاثيا القوائم من المعدن اللامع لا يسببان أي أذى تحت ضوء الشمس الساطعة.

وفي كل مكان حول الحفرة امتدت «أم المدن» العظيمة وقد أنقذتها معجزة من الدمار الأبدي. يصعب على أولئك الذين لم يروا لندن إلا وهي متشحة بغيامات الدخان السوداء أن يتخيلوا صفاء تلك المنازل الساكنة وجمالها.

ناحية الشمال كانت منطقتا «كيلبيرن» و«هامستيد» زرقاوين ومزدحمتين بالمنازل، وناحية الغرب كانت المدينة الكبيرة معتمة، وناحية الجنوب — فيما وراء المريخيين — ظهرت الامتدادات الخضراء لمنتزه «ريجنتس بارك»، وقبة قاعة «ألبرت هول»، و«المعهد الإمبريالي»، وطريق «برومتن رود» واضحة وضئيلة في ضوء الشمس، بينما أنقاض «وستمنستر» ذات التضاريس ترتفع ضبابية في الخلف. وبعيدًا جدًّا ظهرت تلال «سَري» بزرقتها، ولمع برجا «كريستال بالاس» كقضيبين فضيين. أيضًا كانت قبة كاتدرائية «سانت بولز» مظلمة قبالة ضوء الشمس، ولأول مرة رأيت الدمار وقد أصابها بفعل فتحة كبيرة أصابت الجانب الغربي منها.

وبينما كنت أنظر في ذلك الامتداد الشاسع من المنازل والمصانع والكنائس الساكنة والمهجورة، وبينما كنت أفكر في الجهود والآمال التي لا تعد ولا تحصى والحشود التي لا حصر لها والتي بنت هذا الصرح البشري، وفي الدمار السريع والهمجي الذي أوشك على أن ينزل بها جميعًا، وعندما تذكرت أن العتمة قد انحسرت، وأن البشر ربما لا يزالون على قيد الحياة في الشوارع، وأن مدينتي الفسيحة الغالية التي خيم عليها شبح الموت استعادت حياتها وقوتها مرة أخرى، اجتاحتني موجة من المشاعر أقرب ما تكون إلى البكاء.

ها قد انتهى العذاب أخيرًا، بل وستبدأ المداواة في ذلك اليوم. سينتشر الناجون من البشر في كل مكان في المدينة — بلا قائد أو قانون أو طعام مثل قطيع من الأغنام بلا راع — والآلاف الذين فروا عن طريق البحر سيبدءون العودة، وسيخفق نبض الحياة — الآخذ ازديادًا في القوة — مجددًا في الشوارع الخالية ويتدفق في الميادين المهجورة. أيًّا كان ما وقع من دمار، فإن قبضة المدمِّر قد كفَّت. كل الأنقاض الموحشة وهياكل المنازل التي تحدق وسط جو مشحون بالكآبة في عشب التل المضيء بضوء الشمس سوف يصدر منها عما قريب صوت مطارق من يقومون بأعمال الإصلاح ودوي ضرب المجارف في الأرض. عند التفكير في ذلك رفعت يدي إلى السماء وشكرت الرب؛ للمرة الأولى طوال عام على ما أظن.

وبقوة عارمة تملكني التفكير في نفسي، وزوجتي، وحياة الأمل التي كنا نحياها، والاستعداد الجميل لتقديم يد العون أحدنا للآخر.

الفصل التاسع

أطلال

الآن نصل إلى الأمر الغريب في روايتي؛ مع أنه قد لا يكون غريبًا تمامًا. أذكر — بوضوح وفتور وحيوية — كل ما فعلته في ذلك اليوم حتى اللحظة التي وقفت فيها أذرف الدمع وأشكر الرب فوق قمة تل «بريمروز هيل». وبعدها أصبح كل شيء في طي النسيان.

لا أذكر شيئًا من الأيام الثلاثة التالية. علمت — بعيدًا عن كوني أول من اكتشف نهاية المريخيين — أن العديد ممن كانوا يهيمون على وجوههم مثلي قد سبق لهم اكتشاف الأمر الليلة السابقة. ذهب أحد الرجال — أول من اكتشف الأمر — إلى شارع «سانت مارتينز لو جراند»، وبينما كنت أحتمي داخل سقيفة سائقي سيارات الأجرة، تمكن هو من إرسال برقية إلى باريس. ومن ثم عمَّت الأخبار المبهجة أنحاء العالم؛ فجأة أضاءت العديد من المدن — التي ارتعدت من المخاوف المفزعة — أنوارها الساطعة؛ انتشرت الأخبار في «دبلن» و«إدنبره» و«مانشستر» و«بيرمنجام» في الوقت الذي كنت أقف فيه على حافة الحفرة. بدأ الرجال — وهم يبكون فرحًا مثلما سمعت ويصيحون ويتوقفون عن العمل ليصافح بعضهم بعضًا — في إصلاح القطارات ليستقلوها حتى لندن. وصلت الأخبار فجأة أجراسَ الكنيسة التي كانت قد توقفت عن القرع مدة أسبوعين منذ غزو المريخيين حتى أصبحت الأجراس تدق في لندن بأكملها. كان الرجال يركبون الدراجات نحيلي الوجوه شُعثًا، ينطلقون مسرعين في كل طريق في البلدة يصيحون في الوجوه الواهنة المحدقة من فرط اليأس. وفيما يخص الغذاء، كان الذرة والخبز واللحم يتدفق إلينا بغية إغاثتنا عبر بحر المانش والبحر الأيرلندي والمحيط الأطلنطي. بدا أن كل الشحنات في العالم تتجه نحو لندن في تلك الأيام. لكنني لا أتذكر شيئًا من كل هذا. لقد مسَّني الجنون. وجدت نفسي في منزل أناس عطوفين عثروا عليّ في اليوم الثالث أهيم على وجهي وأبكي وأهذي في شوارع «سانت جونز وود». أخبروني أني كنت أتغنى

بكلام هزلي جنوني. ومع أن هؤلاء الأشخاص — الذين لن أذكر أسماءهم هنا حتى على الرغم من أني أود التعبير لهم عن عميق امتناني — كانوا مهمومين بتدبير شئونهم، فقد تحملوا عبء الاهتمام بي، ووفروا لي المأوى، وحمُوني من نفسي. كان واضحًا أنهم علموا مني شيئًا عن قصتي خلال الأيام التي فقدت فيها عقلي.

وبكثير من اللِّين — عندما استعدت عقلي ثانية — أخبروني بما علموه عن مصير «ليذرهيد». دُمِّرَت «ليذرهيد» بعد يومين من محبسي بجميع مَن فيها من أحياء على يد أحد المريخيين. محاها المريخي من الوجود — كما بدا — دون أن يستفزه أحد كطفل يسحق بيت نمل في مجرد نزوة يشعر خلالها بالقوة.

كنت وحيدًا، وأغدقوا علي من عطفهم. كنت وحيدًا بائسًا، فصبروا عليّ. بقيت معهم أربعة أيام بعد شفائي. طوال ذلك الوقت شعرت بحنين متزايد ومبهم لأن ألقي نظرة من جديد على ما تبقى من الحياة الصغيرة التي بدت غاية في السعادة والبهجة في ماضيّ. كانت مجرد رغبة بائسة في إلقاء نظرة على تعاستي، لكنهم أثنوني عن فعل ذلك. بذلوا أقصى ما في وسعهم من أجل إلهائي عن كآبتي، غير أنني في النهاية لم أستطع مقاومة الرغبة أكثر من ذلك، ووعدتهم وعدًا صادقًا أني سأعود إليهم. فارقت هؤلاء الأصدقاء الذين قضيت معهم أربعة أيام بالدموع لأخرج مرة أخرى إلى الشوارع التي كانت مؤخرًا معتمة غريبة مهجورة.

كانت الشوارع في ذلك الوقت مكتظة بالعائدين، بل إن بعض المتاجر فتحت أبوابها، ورأيت سبيل مياه يفيض بمياه صالحة للشرب.

أذكر كيف بدا اليوم صافيًا على نحو يبعث على السخرية وأنا في طريق العودة في رحلتي المثيرة للابتئاس إلى المنزل الصغير في «ووكينج»، وكيف كانت الشوارع مزدحمة، والحياة مفعمة بالحيوية من حولي. رأيت العديد من الناس في الخارج في كل مكان مشغولين بأعمال كثيرة حتى إنه بدا غير معقول أن جزءًا كبيرًا من السكان قد لقي حتفه. لكني حينئذ لاحظت كم كانت وجوه الأشخاص الذين التقيتهم شاحبة وشعور الرجال شعثاء، وكم أن عيونهم متسعة لامعة، فضلًا عن أن الجميع لا يزالون يرتدون أسمالهم البالية. ظهر على كل الوجوه تعبير واحد من اثنين؛ إما حيوية وابتهاج هائلين، أو ثبات مشوب بالتجهم. وباستثناء التعبيرات التي ارتسمت على الوجوه، بدت لندن مدينة لعابري السبيل. كانت مجالس الكنائس توزع دون تمييز الخبز الذي أرسلته لنا الحكومة الفرنسية. برزت ضلوع الخيول القليلة على نحو مؤسف. ووقف رجال الشرطة

منهكين عند ناصية كل شارع. رأيت القليل من الدمار الذي أحدثه المريخيون حتى وصلت شارع «ويلينجتون»، وهناك رأيت العشب الأحمر يعتلي دعامات جسر «ووترلو بريدج».

عند زاوية الجسر أيضًا رأيت واحدًا من تلك التناقضات التي شاعت في تلك الفترة الغريبة؛ ورقة تتمايل أمام أيكة من العشب الأحمر مثبَّتة في مكانها باستخدام عصا. كان إعلانًا لأول صحيفة تستأنف النشر وهي صحيفة «ديلي ميل». ابتعتُ نسخة بشِلِن مسودٍّ كان في جيبي. كانت الصحيفة في أغلبها خالية من الأخبار، لكن مسئول الطباعة الذي كان يشعر بالعزلة والذي كتب العدد سلَّى نفسه بعمل مخطط إعلانات غريب في الصفحة الأخيرة. لم أحصل على أي أخبار جديدة باستثناء أنه في أسبوع واحد خرج الفحص الذي خضعت له معدات المريخيين بنتائج مذهلة. ومن بين أشياء أخرى، أكد المقال لي صحة ما فكرت فيه من قبل؛ لقد اكتُشف «سر الطيران». في ووترلو وجدت القطارات التي تقل الناس إلى منازلهم دون مقابل. انتهت الموجة الأولى من العائدين. كان هناك عدد قليل من الأشخاص داخل القطار، ولم أكن في حالة تسمح لي بتجاذب أطراف حديث عابر مع أحد. دخلت مقصورة مستقلة، وجلست مربعًا ذراعيَّ أنظر مغتمًّا من النافذة إلى الدمار الذي تلقي عليه الشمس بضوئها. وبالقرب من المحطة الأخيرة ارتج القطار فوق قضبان مؤقتة، وعلى جانبي السكة الحديدية كانت المنازل حطامًا مغطى بالسواد. ناحية محطة «كلابهام جنكشن» كانت لندن مغطاة بالدخان الأسود بالرغم من مرور يومين من الأمطار والعواصف الرعدية، وفي المحطة نفسها كان خط السكة الحديدية قد لحق به الدمار هو الآخر. كان هناك مئات الموظفين وأصحاب المتاجر المتعطلون عن العمل يعملون جنبًا إلى جنب مع عمال الحفر الاعتياديين.

على طول الخط من هناك كان منظر المدينة كئيبًا غريبًا، وكانت «ويمبلدون» الأكثر تضررًا. أما «والتون»، فبدت الأقل تضررًا من بين كل الأماكن بفضل غابات الصنوبر التي لم تمسها النيران فيها. بدا نهر «واندل» و«مول» وأي مجرى مائي صغير آخر كتلة متكومة من العشب الأحمر لونها وسطٌ بين لحم الجزار ومخلل الملفوف الأحمر. مع هذا كانت غابات صنوبر «سَري» شديدة الجفاف على نمو أوراق العشب الأحمر. وفي أحد المشاتل بعيدًا عن «ويمبلدون» — في نطاق الرؤية من خط السكة الحديدية — رأيت كومات متراكمة من التربة الطينية حول الأسطوانة السادسة. كان عدد من الأشخاص واقفين حولها، وبعض الجنود المسئولين عن الأعمال الهندسية مشغولين في المنتصف.

وفوق الحفرة كان العلم الإنجليزي يرفرف في بهجة وسط نسيم الصباح. كانت أرض المشتل قرمزية في كل أرجائها بسبب العشب الأحمر — امتداد شاسع من لون أزرق رمادي تتخلله ظلال أرجوانية — وكانت مجهِدة للعين كثيرًا. تحولت نظرتي من اللون الرمادي الباهت واللون الأحمر الكئيب أمامي إلى الخضرة المائلة للزرقة للتلال ناحية الشرق وهو ما جعلني أشعر بارتياح لانهائي.

لا تزال عمليات الترميم قائمة على خط السكة الحديدية في محطة «ووكينج»، ولذا نزلتُ في محطة «بايفليت» وسلكت الطريق إلى «مايبري» مرورًا بالمكان الذي تحدثت فيه أنا والمدفعي مع الفرسان، ثم المكان الذي رأيت فيه المريخي في العاصفة الرعدية. وبدافع الفضول استدرت لأرى — وسط مجموعة متشابكة من أوراق العشب الحمراء — العربة المكسورة وعظام الحصان البيضاء متناثرة ومتآكلة. وقفت بعض الوقت أرقب تلك الآثار …

ثم عدت عبر غابة الصنوبر والعشب الأحمر يصل إلى عنقي إلى حانة «سبوتيد دوج» التي لقي صاحبها حتفه، وهكذا وصلت المنزل مارًّا بمبنى «كوليدج آرمز». كان هناك رجل يقف على باب كوخ مفتوح حيَّاني باسمي عندما مررت به.

نظرت إلى منزلي ولدي بصيص أمل ما لبث أن تلاشى على الفور. كان الباب مفتوحًا عنوة؛ وكان يتحرك منفتحًا في بطء مع اقترابي.

صُفق الباب ثانية. رفرفت ستائر غرفة مكتبي خارج النافذة المفتوحة حيث كنت أنا والمدفعي نراقب الفجر منها. لم يغلق أحد النافذة منذ ذلك الحين. كانت الشجيرات المسحوقة تمامًا مثلما تركتها قبل نحو أربعة أسابيع. سرت مضطربًا نحو الردهة، وبدا المنزل خاليًا. كانت سجادة الدرَج متغضنة باهتة اللون من أثر جلوسي عليها وأنا مبتل حتى العظام من العاصفة الرعدية التي تعرضت لها ليلة الكارثة. رأيت آثار أقدامنا الملطخة بالطين تصل إلى أعلى الدرج.

تبعت هذه الآثار حتى غرفة مكتبي، ووجدت أوراق العمل التي تركتها ظهيرة اليوم الذي انفتحت فيه الأسطوانة لا تزال على طاولة الكتابة وفوقها ثقالة الورق. وقفت فترة أقرأ ما كتبت. كان بحثًا عن التطور المحتمل للأفكار الأدبية مع تطور عملية التمدُّن، وكانت آخر جملة هي افتتاحية النبوءة، وفيها كتبت: «في غضون نحو مائتي عام، ربما نتوقع …» انتهت الجملة فجأة. تذكرت — وقد مرَّ نحو شهر الآن — عجزي عن التركيز ذلك الصباح، وكيف أني توقفت فجأة للحصول على نسخة من جريدة «ديلي كرونيكل»

من بائع الصحف. أتذكر كيف أني نزلت إلى بوابة الحديقة أثناء مروره بها، وكيف أني استمعت إلى قصته الغريبة حول «البشر القادمين من المريخ».

نزلت الطابق السفلي، ودخلت حجرة الطعام. رأيت لحم الضأن والخبز — وقد بلغا مبلغًا من التعفن — وزجاجة خمر مقلوبة بعد أن تركناها أنا والمدفعي. كان منزلي مهجورًا. أدركت حماقة ذلك البصيص من الأمل الذي تعلقت به. وبعدها وقع أمر غريب. سمعت صوتًا يقول: «لا فائدة. المنزل مهجور. لم يأت أحد إلى هنا تلك الأيام العشرة. لا داعي للبقاء هنا، وتعذيب نفسك. لم ينج أحد سواك.»

تملكني الذعر. هل تحدثتُ بما أفكر فيه بصوت عال؟ استدرت، وكانت النافذة الفرنسية مفتوحة خلفي. تقدمت منها خطوة، ووقفت أحدق النظر.

وهناك — وسط مزيج من الذهول والخوف — رأيت ابن عمي وزوجتي التي كانت شاحبة عصيَّة الدمع. أطلقت صرخة خافتة.

قالت: «ها قد جئت. كنت أعرف ... كنت أعرف ...»

وضعت يدها على حلقها، ثم ترنحَت. تقدمت نحوها، واحتضنتها.

الفصل العاشر

خاتمة

لَمَّا كنت أختتم روايتي الآن، فليس أمامي سوى الشعور بالأسى حيال عجزي عن التطرق إلى الأسئلة الجدلية الكثيرة التي لم يُحسم أمرها بعد. من جانب، مؤكد أن ما أقول سيكون مثار نقد. مجال تخصصي هو الفلسفة النظرية، ومعرفتي بعلم الفسيولوجيا المقارَن قاصرة على كتاب أو اثنين، لكن يبدو أن اقتراحات كارفر بشأن السبب الذي أدى إلى موت المريخيين سريعًا معقولة للغاية حتى إنها تكاد تكون نتيجة مؤكدة، وهو ما افترضته في روايتي.

وعلى كل حال، فإنه في جميع أجساد المريخيين التي شُرِّحت بعد انتهاء الحرب، لم يُعثر على أي بكتيريا عدا تلك الفصائل المعروفة على سطح الأرض. حقيقة أنهم لم يدفنوا أيًّا من موتاهم، إضافة إلى القتل العشوائي الذي اقترفته أياديهم يشيران إلى أنهم لا يعرفون أي شيء عن عملية التعفن. وعلى ما يبدو، فإن هذه نتيجة مؤكدة.

لا يزال تركيب «الدخان الأسود» — الذي استخدمه المريخيون وكان أثره مميتًا — غير معروف، وكذا لا يزال مولِّد الأشعة الحرارية لغزًا. الكوارث المفزعة التي وقعت في مختبرات «إيلينج» و«كينسنجتون» أثنت المحللين عن إجراء المزيد من الفحوص على مولِّد الأشعة الحرارية. أما التحليل الطيفي للذرور الأسود فقد أشار قطعًا إلى وجود عنصر مجهول الهوية ذي مجموعة برَّاقة من ثلاثة خطوط من اللون الأخضر، ومن المحتمل أنه يمتزج مع الأرجون ليشكِّل مركبًا يؤثر في بعض مركبات الدم مما يسبب الوفاة على الفور. لكن هذه التخمينات غير المؤكدة لن تفيد القارئ العادي الذي أوجه له هذه الرواية في شيء. لم يجر فحص أي من الزبَد البني الذي كان ينجرف مع مياه نهر «التيمز» بعد الدمار الذي لحق بمدينة «شيبرتون» وقتها.

سبق أن تحدثت عن نتائج الفحص التشريحي لما تركته الكلاب الهائمة من أجسام المريخيين. لكن الجميع على دراية بالنماذج الرائعة التي تكاد تكون مكتملة في «متحف التاريخ الطبيعي»، والرسومات التي لا حصر لها والتي وضعت لها، وفيما عدا ذلك يكون الاهتمام بتكوينهم الفسيولوجي أمرًا علميًّا بحتًا.

المسألة الأكثر خطورة التي تحظى باهتمام عالمي تتعلق بإمكانية التعرض لهجوم آخر من المريخيين. كوكب المريخ حاليًّا في وضع اقتران مع كوكب الأرض، لكنني أتوقع شخصيًّا تجدد هجومهم مع كل عودة تالية إلى وضع الاقتراب. على أي حال لا بد أن نعد العدة. يبدو لي أنه ربما يكون ممكنًا أن نحدد الموقع الذي انطلقت منه طلقاتهم، وأن نفرض رقابة دائمة على هذا الجزء من الكوكب حتى يتسنى لنا توقع الهجوم التالي.

وفي هذه الحالة ربما ندمِّر الأسطوانة باستخدام الديناميت أو المدافع قبل أن تنخفض درجة حرارتها بما يكفي لخروج المريخيين منها، أو ربما نقتل المريخيين أنفسهم بالمدافع ما إن تنفتح الأسطوانة. يخيل إلي أنهم فقدوا ميزة هائلة عندما أخفقوا في مفاجأتنا أول مرة، وربما يكون ذلك رأيهم أيضًا.

ذكر ليسينج أسبابًا رائعة تدعونا إلى افتراض نجاح المريخيين بالفعل في تثبيت أقدامهم على كوكب الزهرة. منذ سبعة أشهر الآن كان المريخ والزهرة متوازيين مع الشمس، ما يعني أن المريخ كان في وضع الاقتراب من منظور المشاهِد على كوكب الزهرة. لاحقًا ظهرت علامات مضيئة ملتوية على النصف غير المضيء لكوكب الزهرة، وتقريبًا في الوقت نفسه ظهرت علامة مظلمة ذات طبيعة ملتوية مشابهة على الصور التي التُقطت لكوكب المريخ. لا بد من رؤية هذه الصور الخاصة بهذه العلامات حتى يتسنى التأكد من التشابه الملحوظ بينها.

وعلى كل حال، سواء توقعنا غزوًا ثانيًا أم لا، لا بد من تغيير رؤيتنا فيما يتعلق بمستقبل البشر تغييرًا جذريًّا بعد هذه الأحداث. تعلمنا الآن أنه لا يمكننا النظر إلى هذا الكوكب بوصفه مكانًا محصنًا وآمنا للبشر. لا يمكننا أن نتوقع أبدًا الخير أو الشر الذي قد ينزل بنا فجأة من الفضاء الخارجي. ربما يبدو أن البشر قد استفادوا من هذا الغزو المريخي؛ فقد سلبنا ثقتنا المزوجة بالاطمئنان في المستقبل، علاوة على أنه أسفر عن فوائد هائلة للعلم البشري، وكان له دور كبير في تعزيز مفهوم المصلحة العامة للبشر. ربما يكون المريخيون في الفضاء قد شاهدوا مصير من أُرسلوا إلى الأرض في البداية، وتعلموا الدرس، ووجدوا مستقرًّا أكثر أمانًا على كوكب الزهرة. على الرغم من ذلك، فإنه

لسنوات عديدة تالية لن يكون هناك تراخ في تفحص كوكب المريخ، وسوف تجلب تلك السهام النارية التي تسقط من السماء والنجوم الساقطة معها خوفًا مؤكدًا لبني البشر.

لا يجوز المغالاة في الحديث عن اتساع نظرة البشر من جراء تلك الأحداث. قبل سقوط الأسطوانة كان ثمة اقتناع عام بأنه لا توجد حياة في الفضاء إلا على سطح هذا الكوكب الصغير. الآن يمكننا التفكير فيما هو أبعد من ذلك. لو أن المريخيين يستطيعون الوصول إلى كوكب الزهرة، فما من سبب يدعونا إلى افتراض استحالة حدوث الأمر نفسه مع البشر. وعندما تنخفض درجة حرارة هذا الكوكب بحيث لا يكون صالحًا للحياة، ربما تنتقل الحياة عندها إلى كوكب الزهرة الشقيق.

كونت في عقلي فكرة غامضة رائعة بشأن انتشار الحياة رويدًا رويدًا من المجموعة الشمسية إلى ذلك الفضاء الجامد بين الكواكب. لكنه حلم بعيد المنال. على الجانب الآخر، قد يكون الدمار الذي أحدثه المريخيون مجرد عقوبة أُرجئ تنفيذها. ربما يكون المستقبل مقدَّرًا لهم، لا لنا.

علي الاعتراف بأن وطأة تلك الفترة وخطورتها قد خلَّفا في عقلي شعورًا بالشك وعدم الأمان. أجلس في مكتبي أكتب على ضوء المصباح، وفجأة أرى الوادي بعيدًا عني مرقطًا بكتل من اللهب المشتعلة، وأشعر بأن المنزل حولي خالٍ ومهجور. أخرج إلى طريق «بايفليت»، فتمر العربات من أمامي، وصبي الجزار في عربة جر، ومجموعة من الزائرين في سيارة أجرة، وعامل على دراجة، وأطفال في طريقهم إلى المدارس، وفجأة يصبح كل هذا مبهمًا غير حقيقي، وأهرع ثانية مع المدفعي وسط السكون المخيف. في الليل أرى الذرور الأسود يغطي الشوارع الساكنة بالسواد، وأرى الأجساد الملتوية مغطاة بالذرور الأسود، ثم تنهض أمامي ممزقة الثياب بها أثر من عض الكلاب. يثرثرون بكلام غير مفهوم ويزدادون وحشية وشحوبًا وقبحًا وكأنهم أصبحوا مسوخًا من بشر اعتراهم الجنون، ثم أستيقظ مرتجفًا تعسًا وسط ظلمة الليل.

أذهب إلى لندن وأرى الجموع النشطة في شارع «فليت» و«ستراند»، ويخطر ببالي أنهم ليسوا سوى أشباح الماضي تسكن الشوارع التي رأيتها ساكنة بائسة. والغريب أيضًا أني أقف على تل «بريمروز» — مثلما فعلت قبل يوم من كتابة هذا الفصل الأخير — لأرى الامتداد الفسيح من المنازل الباهتة الزرقاء وسط سديم الدخان والضباب الذي يختفي أخيرًا في السماء الدنيا، وأرى الناس يسيرون جيئة وذهابًا بين أحواض الأزهار فوق التل، وأرى المتفرجين على آلة المريخيين التي لا تزال هناك، وأسمع صخب الأطفال

وهم يلعبون، وأذكر الوقت عندما رأيت هذا المكان وضّاءً واضح المعالم ساكنًا فجر ذلك اليوم الأخير …

والأغرب من هذا كله هو إمساكي بيد زوجتي مرة ثانية، والتفكير في أنني قد حسبتها — وأنها قد حسبتني — في عداد الموتى.